



الأعمال الروائية

جمال الغيطاني



الزويل

الزيني بركات



جمال الغيطانى

الزينى بركات



الأعمال الروائية (٣)
١٩٩٣

الغلاف
للفنان : محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ
صبرى عبد الواحد

جمال الغيطانى

الأعمال الروائيـــة

ما شاء الله كان

بسم الله الرحمن الرحيم

لكل أول آخر ولكل بداية نهاية

رجب ٩٢٢ هـ

أغسطس إلى سبتمبر ١٥١٧ م

(مقتطف ٣ من مشاهدات الرحالة البندقى فياسكونتى جانتى ، الذى زار القاهرة أكثر من مرة فى القرن السادس عشر الميلادى أثناء طوّافه بالعالم .

تسجل هذه المشاهدات أحوال القاهرة .. خلال شهر أغسطس ١٥١٧ ميلادية ، الموافق رجب ٩٢٢ هـ) .

تضطرب أحوال الديار المصرية هذه الأيام ، وجه القاهرة غريب عنى ، ليس ما عرفته فى رحلاتى السابقة ، أحاديث الناس تغيرت ، أعرف لغة البلاد ولهجاتها ، أرى وجه المدينة مريضا يوشك على البكاء ، امرأة مذعورة تخشى اغتصابها آخر الليل ، حتى السماء نحيلة زرقاء ، صفاؤها به كدر ، مغطاة بضباب قادم من بلاد بعيدة ، أتذكر قرى الهند الصغيرة إذ يدركها الوباء ، يثقل هواؤها بالرطوبة ، الليلة ، تنتظر البيوت أمرا قد يأتى غدا أو بعد غد ، أصغى إلى وقع حوافر تصطدم بحجارة الطريق ، تبعد ، تنأى ، أطل من مشربية البيت محاذرا أن يرانى أحد ، أطل والظلام يلف البيوت ، لا أرى مئذنة جامع السلطان الغورى الجديد ، لم تمض سنوات على بنائه لم أره عندما جئت هنا آخر مرة قبل رحيلى الطويل إلى الشرق ، سمعت باستعدادات تجرى لبنائه ، تشييد القبة الضخمة المواجهة له ، أطل برأسى قليلا ، أخاف انفتاق الظلام عن وجوه درك قساة القلوب ، إذ يجدوننى أفرنجيا ، يدفعون بى إلى الموت بلا محاكمة ، لا استجواب ، لا سؤال ، من أنا ، من أين جئت !! لن تتاح الفرصة لأخبرهم ، لأقنعهم ، إننى أعرف الوالى الأمير « كرتباى » معرفة شخصية ، بل إننى أصغيت مرتين إلى متولى حسبة القاهرة ، الزينى بركات بن موسى ، إنه صاحب مناصب عديدة أيضا ، ومسئول عن حفظ الأمن والنظام ، لو رآنى

فسيتذكرنى ، أعرف أنه لا ينسى وجها عابرا رآه مرة واحدة ، حتى لو مضى على رؤيته لصاحبه عشرة أعوام ، على أية حال سأبقى الليلة ، بالتأكيد لن أنجو من العسس ، المنسر ، المماليك ، بيوت المدينة كلها مغلقة ، مرعوشة تود لو توارت ، تهفو إلى الأمان المرجو ، شموع بيتى مطفأة ، أخشى تراقص الضوء فى أحداق العيون المتلصصة ، قبيل العصر مشيت من الحسينية ، فى صدرى نفس الحنين الذى يجيئنى كلما نزلت بلدا ، كلما عدت إلى مدينة زرتها من قبل ، أقضى أياما قبل اتصالى بمعارفى من أهلها ، أجوبها من أعلى إلى أسفل ، أسعى وراء أخبار من أعرفهم ، أرثى الذين ذهبوا . أرى اليوم الذى فارق فيه الواحد منهم دنيانا ، أسأل نفسى ، أين كنت عندئذ ؟؟ فى أى مدينة ؟؟ ألقى البعض صدفة ، أفتح ذراعى على عادة أهل البلاد ، أقبل كتفه ويقبل كتفى ، أتراجع لأتأمله ، أعود لأحتضنه من جديد ، أذكر أنه لم يتغير إن كان متقدما فى السن ، أن الصحة تطل من عينيه ، يغمغم بحمد الله وبشكره ، يحلف أيمانا مغلظة ليصحبنى إلى داره فأمضى ، نجلس فى غرفة الضيافة ، تفتح نوافذها المزخرفة على حديقة صغيرة بها ريحان وفل ، تتوسطها نافورة صغيرة أرضيتها مرصعة بالرخام الملون الجميل ، لا تطلق النافورة مياهها إلا عند مجىء ضيف ، لكن اليوم طال تجوالى ، لم ألق واحدا من أصحابى القدامى ، ربما تغيروا، سمعت من العامة أن كثيرا من أعيان الناس ، والمشايخ ، نقلوا الثمين الغالى من ثيابهم وحوائجهم إلى الأماكن البعيدة المجهولة ، رحلوا عيالهم إلى الأرياف ، هجروا بيوتهم وسكنوا المزارات وفساقى الموتى ، سمعت بكثرة الإشاعات ، كل إنسان يقول ما يحلو له ، أى شخص يدخل فيما يعنيه وما لا يعنيه ، وطالب البعض بضرورة تدخل الأمير طومانباى نائب الغيبة لإسكات الألسنة ، قال البعض هذا مستحيل فانقطاع الأخبار معناه أن حدثا فظيعا لا نجرؤ على التفكير فيه وقع ، صاح البعض : وهل يقع فعلا ما لا نجرؤ على الظن به ؟ لا يمكن ، جيش السلطان من فرسان الإسلام وحماته ؛ كل فارس منهم مقوم بألف من العثمانلية وكما غلبهم الأشرف قايتباى فلابد من هزيمتهم على يد الغورى ،

يقول أخر، إذا صح هذا فلماذا لم تصل رائحة من الأخبار المفرحة ، لم تدق البشائر ، ولا الطبلخاناه ، كيف تصدق أن شيئا لم يقع ، لم يحدث ، حتى الأمور هنا مضطربة ، في المقهى عدل رجل وضع عمامته ، سأل ، هل رأى أحدكم الزينى بركات بن موسى منذ أول أمس ؟ نزل صمت معبق بحذر ، أسندت وعاء الفخار الساخن ، لم أشرب إلا رشفة من الحلبة ، ما الذى جرى للزينى بركات بن موسى ؟ إذا لم يجر ، فأى إشاعات تتردد حوله ؟ نظر إلى صاحب السؤال ، خمنت أنه ربما يعمل فى خدمة جامع ، يتاجر فى الكتب القديمة ، ربما طالب يدرس العلم فى الأزهر ، لهجته ، أسلوبه ، يوحيان بمهنة من هذه ، كلما رأيت رجلا لا أعرفه ، أسأل نفسى ، أى مهنة يعمل ؟ فى أى مكان أقام ؟ الصين ، الهند ، أو صحارى الحجاز، طال سكوته ، قال أحد الحضور ، فعلا لم نره منذ ثلاثة أيام ، قال اخر .. بل خمسة ، كل منهم يقطب جبهته ، يحاول التذكر ، حتى أنا قلت لنفسى ، فعلا لم أر الزينى خلال الأيام التى قضيتها هنا ، الزينى يراه أهل القاهرة يوميا ، ولو مرة واحدة ، تدق الطبلخاناه أمامه ، يمشى السعاة فى ركابه ، الزينى دائم التفتيش على أسعار البضائع ، يتعقب أوكار الفساد ، مشى الناس فى الطرقات ، له قواعد لابد من مراعاتها ، الالتزام بها ، أحيانا يمنع النساء من ارتداء أزياء معينة ، ربما منعهن من الخروج إلى الطرقات لتزايد عبث المماليك فى بعض الفترات ، اخر زياراتى لمصر ، رأيت الزينى بركات قويا عفيا ، لا أدرى كيف صارت به الحال ؟ ثلاث سنوات تغير الإنسان حقا ، رأيت الزينى ينزل بنفسه ، يناقش باعة الحلوى ، والأجبان ، والبيض ، يقف وقتا طويلا مع الفلاحات بائعات الدجاج والأوز والأرانب والبط ، يسعر الأصناف بنفسه ، يجرس المخالفين فى المدينة ، أعرف رضاء الناس عنه ، حبهم له ، أذكر ما كتبته عنه بعد لقائى الأول به ، رأيت رجالا كثيرين ، بربرا وهنودا وإيطاليين وحكاما من بلاد الغال والحبشة وأقصى شمال الدنيا ، لكننى لم أر مثل بريق عينيه ، لمعانهما ، خلال الحديث

تضيقان ، حدقتى قط فى سواد ليلى ، عيناه خلقتا لتنفذا فى ضباب البلاد الشمالية ، فى ظلامها ، عبر صمتها المطبق ، لا يرى الوجه والملامح ، إنما ينفذ إلى قاع الجمجمة ، إلى ضلوع الصدر ، يكشف المخبأ من الآمال ، حقيقة المشاعر ، فى ملامحه ذكاء براق ، إغماضة عينيه فيها رقة وطيبة تدنى الروح منه ، فى نفس الوقت تبعث الرهبة ، سألنى عن بلاد رحلت إليها ، كيف أقمت فيها ؟؟ كيف تعاملت مع أهلها ؟؟ حرية النساء فى بلاد الفرنجة ؟؟ أستفسر عن العدل فى الرعية ، وطرق البريد فى الهند ، وذكرأسماء مشايخ فى جدة ومكة، وأعيان من دمشق ، قلت إننى لم أذهب إلى جدة لكننى زرت مكة ، وأقمت فى دمشق ، كتب لى أسماء وعدته بالسؤال عن أصحابها ، وقتها سمعت حادثة طريفة فصل فيها الزينى بنفسه ، حدث أن أرسلت جارية رومية بيضاء إليه تستغيث به ، قيل إنها لم تتجاوز الخامسة عشرة ، اشتراها من سوق الجوارى رجل كبير السن ، يعمل فى استقطار ماء الورد ، ضخم الجثة ، نهم ، كثير الأكل ، كثير النكاح ، ومنذ شرائه الجارية الرومية البكر الحسناء ، تفرغ لها تماما ، هجر معمله ، لم يعد يخرج من بيته ، لا يمضى إلى الصلاة ، بل يأتيها كابن العشرين فى أوقات متعددة ومختلفة من النهار ومن الليل ، حتى زعموا ـ وأظنه تشنيع من العامة ـ أن صواتها يعلو خارج البيت ، فيسمعه المارة بوضوح ،يبدأ حادا ، يسمع جرى أقدام ، يسود صمت لا يستمر كثيرا حتى يعود بعد قليل من جديد ، شهد الجيران بهذا ورقوا لها ، تساءلوا فيما بينهم متى تنام البنت إذ أن صوتها لا يهدأ ليلا ولا نهارا ، قالها الرجال بحسد ، لم ترتفع عيونهم عن باب البيت الذى لم يفتح أسبوعا كاملا ، وصار الشبان يرقبون المشربيات ، وإذ تعلو صرخات البنت ، يتضاحكون ويتغامزون ، ويشد بعضهم شعر بعض ، وقال سقاء يحمل الماء إلى البيت ـ استدعاه الزينى إلى الشهادة ـ إنه سمع بأذنيه صراخ الجارية فى الحرملك ، قال إنه رآها مرة تطل من نافذة المشربية المطلة على فناء البيت الداخلى ، منفوشة الشعر ، خرج يهز رأسه متعجبا مما رأى ،

المهم انها عندما استغاثت بالزينى بركات ، أرسلت له خادما صغيرا ، قام الزينى لفوره ، شاور العلماء فى الأمر ، تباحث معهم ، وأفتى شيخهم بصحة ما ينوى الزينى القيام به ، هنا توجه الزينى إلى بيت الرجل ـ اسمه العطار فيما أذكر ـ كبس البيت ، هاج الرجل وصار يزعق غاضبا ، ما للمحتسب وما للناس فى بيوتهم ؟ . قبض عليه الزينى ، أمر ببطحه أرضا ، كشفوه فقيل انهم روعوا لمنظره ؟ . وأقسم شيخ الحنفية أنه لم يرشيئا كهذا فى حياته من قبل . قال الزينى ، البنت تصغرك بأربعين سنة ، أليس حراما أن تؤذيها .. وبهذا أيضا ؟ ضربه خمسين عصا ، ثم أمره باعتاقها، وفعلا ، أعتقها الرجل مرغما ، لكنه لم ينس ما فعله الزينى به ، أصيب بحسرة كبيرة على فراقه البنت ، بدأ يظهر فى الحارات زائغ العينين ، ممزق الثياب، ريقه يسيل ، يبحث عن شىء مجهول ضائع ، لا يذكرها باسمها ، إنما ينادى شيئا يرفض الإفصاح عنه ، كلما ظهر فى مكان صاح عليه العامة ، ضربوه على موضع عورته ، ضحكوا وسخروا منه ، بينما تدور عيناه ، تبحثان عن الأمر العزيز المفتقد ، وسمعت ممن أثق به ، أن الشيخ العطار هذا لم يقرب امرأة فى حياته قبل البنت ، لم يتزوج ، طوال حياته ، يعول أمه وأخوته ، وعندما تزوجت صغرى شقيقاته أصبح وحيدا ، بدأ يقتصد ثمن الجارية لمدة أعوام عديدة ، جارية معينة رسم صورتها وهيئتها فى ذهنه بعناية ، بيضاء كطبق الفضة ، نهداها كرتان من اللبن ، لهما ملمس الحرير ، حلم بها سنوات حتى عثر عليها ، لم تطل فرحته بها أخذوها منه ، انتزعوها انتزاعا ، فيا فرحة ما تمت كما يقول عامة مصر ، اختلف الناس حول تصرف الزينى بركات ، أكد جمع منهم صحة ما قام به، خاصة أن البنت أرسلت تستغيث به لاقترابها من الهلاك ، ورأى فريق آخر ، أنه تدخل فى أخص أمور الناس ، وأن أحدا من الخلق لا يأمن على بيته ، أو عياله بعد الآن ، خاصة بعد تردد إشاعة كبيرة تنفى استغاثة البنت بالزينى بركات، إنما استطاع الزينى معرفة الأمر بفضل طرق عجيبة تمكنه من الاطلاع على أدق ما يجرى فى البيوت والزوايا ، قيل أيضا إن

العطار مظلوم وليس عنيفا ، وتساءل الرجال هل توجد امرأة تكره هيئة رجل كهيئة العطار ، البنت فعلا لعوب وكرهته ، استغاثت بالزينى بركات لتهرب منه لسبب خفى عندها ، وبقى شعور خفى بالرهبة فى أعماق الناس، تعجبوا لمهارة المحتسب ، قدرته على النفاذ إلى أدق الأمور التى تخص البيوت ، وهذا ما لم يتفق لغيره قط ، قيل بوجود فرقة خاصة من أشداء البصاصين تتبعه شخصيا ، لا يعرف من رجالها مخلوق ، أين يعيشون ، كيف يعملون، هذا أمر خفى لا يدرى به إنسان ، وهذه لا علاقة لها بفرقة بصاصى السلطنة التى يرأسها رجل عتى معروف ، المهم ، سمعت حادثة العطار بعد وقوعها بسنة ، رأيته بعينى وهو يلف الحوارى ، يقف بين الحين والحين ، يزعق فى الفراغ منهالاً بالسباب والشتائم على شخص لا يذكر اسمه أبدا، وقيل إنه يصنع تماثيل صغيرة من الورق يحرقها يوميا قبل نومه ، ويتلو عليها تعاويذ خاصة ، وظل على حاله حتى كان من أمره ما كان ، وما سنذكره فى حينه ، أعود إلى الرجال فى دكان الشاى ، تساءلوا فعلا عن السر فى اختفاء الزينى؟؟ تعجب كل منهم كيف فاته الأمر ، اختفاء الزينى حدث غير عادى ، انها الأيام المضطربة التى ينسى فيها الإنسان نفسه ، ألم يذكر أحد المشايخ الصالحين فى خطبة الجمعة الماضية، أن أوان الريح التى تهب قبل القيامة ستكنس كل شىء ، ريح يرسلها الله عز وجل ، يمانية ألين من الحرير وأطيب من نفحة المسك فلا تدع أحدا فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان بوجود الخالق ، أو الحق أو العدل تبعد الأب عن بنيه ، والأخ عن أخيه ، ويبقى الناس مائة عام لا يعرفون دينا أو ديانة ، وهم شرار خلق الله ، وعلى هؤلاء تقوم الساعة ، تباكى الرجال فى المسجد، وصار كل منهم يعانق صاحبه ، وعندما خرج البعض إلى الخلاء ، خيل إليهم أنهم يشمون رائحة طيبة ، فيها نفحة المسك، جهروا وأعلنوا ، زمن الهلاك آت لا ريب فيه ، فزعوا ، هلعوا ، وهكذا ، فمثل هذه الأيام ، ينسى فيها المرء أمورا جساما لا يتكرر حدوثها، كأن يمضى يوم بأكمله ، لا يظهر الزينى بركات بن موسى فى طرقات القاهرة ، ولا ينتبه أحد ، قال الطالب الأزهرى ـ كما ظننت :

ـ أعرف أن الزينى اختفى فى مكان لا يعلمه إلا القلائل جدا ..

سكت ليوحى ، أو ليبدو واحدا من هؤلاء القلة . قال الحضور :

ـ أين يا سعيد ؟

ـ إنه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى القاهرة ..

اتسعت آذانهم ، رأيت الزينى بعينى عقلى ، يجلس فى مكان خفى ، تنبئه الأيام بأحداث جسام ، نواب يدخلون ويخرجون ، يرسلهم إلى شتى البلاد ، والمعاقل البعيدة للعربان فى الصحراء ..

تساءل أحدهم :

ـ كيف تبقى البلاد بلا محتسب والدنيا فى حرب ؟؟

ـ عندما كان الزينى يسافر لمدة أسبوع ، بمجرد أن يخطو خارج القاهرة ترتفع الأسعار يفعل كل إنسان ما يحلو له ، فما بالك وقد اختفى الآن ؟

قال سعيد :

ـ أبدا .. عين الزينى ترقب الناس كلهم رغم ابتعاده .. ولا تنسوا الشهاب زكريا ..

صمتوا ، فى العيون رجاء أخرس ، خوف موغل فى الأعماق ، فى الطريق على مهل أليم مضى طابور من سجناء الفلاحين مربوطين من أعناقهم بسلاسل حديدية ، يبدو أنهم متجهون إلى سجن من السجون ، أخرج طفل لسانه مرات عديدة ، دق طبل بعيد ، ربما يغادر الفلاحون عالمنا بعد قليل ، مشيت قريبهم ، عيونهم زائغة ، يتمنون لو احتووا كل ما يمر بهم، نفس ما رأيته فى طنجة ، طابور رجال يعبرون أسوار المدينة البيضاء

مشدودين إلى بعضهم برباط الهلاك الأبدى ، فى العيون نفس النظرة ، هذا الرجل المسوق إلى الإعدام فى تلك الجزيرة الصغيرة بالمحيط الهندى ، يرجو من الناس إعادة النظر فى أمره ، أن يلحقه طائر رخ فيطير به ، العينان تقولان المعنى نفسه ، ان يعلم الناس أنه بعد خطوات ، بعد مسافة زمنية معينة ، لن يفتح عينيه أبدا ، تضيع منه المعالم والأشياء ، ربما أموت بعد لحظة ، أجهل هذا ، لكن ان أعرف تماما ، أعلم بمفارقتى الدنيا فى لحظة معينة ، هذا ما يطبع الوجوه بنفس ما رأيته ، نظرة الخروج إلى عالم آخر نجهله ، ما من منقذ ، مامن منج ، مامن معجزة مأمولة ، أرى الرجال الماضين إلى الموت ، أذكر خروجي من بلد إلى بلد ، رحيلى الدائم ، اذكر من سبقونى ، ورجال خرجوا من البندقية ، مبتدئين رحلة ربما امتدت ثلاثين عاما ، ربما مات الإنسان فى بلد يبعد الاف الفراسخ ، مشيت وفى نفسى خوف ، كل ما أراه يجسد رعبا ، القاهرة مسوقة إلى مصير لا يفصح عن نفسه ، القاهرة منفية عن بيوتها ، مشيت حذرا ، بالأمس نزل المماليك من القلعة ، توجهوا إلى خان الخليلى وكادوا يحرقونه عن آخره ، ضبطوا تاجرا روميا ـ وروِمى تعنى التركى العثمانلى ـ يجمع الأخبار، يراسل ابن عثمان بأحوال الخلق ، عندما أمسكوه كاد العامة يمزقونه ، غير أن بعض البصاصين التابعين لزكريا بن راضى كبيرهم ونائب الزينى ، تحفظوا عليه، وأبقوا على روحه حتى يتم استجوابه ويظهر زملاؤه الآخرون وسمعت من يقول بإعدام الوالى كرتباى فى جب القلعة سرا ، ولم يتأيد هذا. وارتج الناس عندما سرت أقاويل بوصول رسول إلى القاهرة قادم من الشام ، جاء عبر دروب التيه فى الصحراء ، طلع إلى القلعة واجتمع بنائب الغيبة ، ونقل إليه أخبارا مفزعة ، مؤداها أن جيش السلطان هزم فى مكان قرب حلب ، ولم تعرف التفاصيل ، يقولون : أمتع اللحظات التى يذكرها الرحالة فيما بعد ، لحظات تتغير فيها الأمور والأحوال ، معاينة وقوع الأحداث الكبيرة ، رصد آثارها على الوجوه والبيوت والمدن، أقول بعد سنوات ، ، بعد مشاهدتى بداية حرب ، وقوع طاعون ، شهدت

بعينى ما جرى ، ما حدث ، عند الغروب تابعت الطرق ، أيد ضخمة قوية تسحب الناس وتلقيهم داخل البيوت ، أشم هواء لم أعرفه إلا فى « حيدر أباد » بالهند عندما فاجأها وباء عفى أفنى وأهلك ، بقيت محاصرا بطاعون جلف سنة كاملة ، أولد فى كل يوم مرات عدة ، أرى القاهرة الآن رجلا معصوب العينين ، مطروحا فوق ظهره ، ينتظر قدرا خفيا ، أشعر بأنفاس الرجال داخل البيوت ، تتقارب رءوسهم الآن ، يتهامسون الآن ، يتهامسون بما سمعوه من أخبار ، النداءات مجهولة ، الوقت يمضى ولا يمضى ، لا يمكننى الطلوع إلى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم ، ربما يقترب الفجر ، غير أننى حتى الآن لم أسمع ديكا واحدا يصيح .

السرادق الأول

ما جرى لعلى بن أبى الجود وبداية ظهور الزينى بركات بن موسى

(شوال ٩١٢ هـ)

أول النهار :

وفيه تغرق البيوت فى نعاس طرى ، تتأخر الشمس فى الوصول إلى حوارى الحسينية ، الباطنية ، الجمالية ، والعطوف ، بيما ترى واضحة من فوق أسوار وأبراج قلعة الجبل ، جماعة المماليك التى تخترق شارع حدرة البقرة لم يخرجوا من القلعة ، خرجوا من بيت الأمير قانى باى الرماح أمير الخيل السلطانية ، عبروا الخليج ، نزلوا على مهل إلى باب اللوق ، أشرعوا سيوفهم فى وجه النهار المقبل ، السقاءون الذين قابلوهم قرب باب اللوق ، أول من يستيقظ فى المدينة ، يحملون الماء من النيل إلى البيوت ، يجهلون مقصد الفرسان ، تنثر حوافر خيولهم دوامات ترابية صغيرة ، تسرع خطوات الجمال مثقلة بقرب المياة البنية اللون ، يخفت همس السقائين ، يبقى فى أذهانهم انطباع خفيف كأثر المجداف فى مياة ترعة هادئة ، ينسل المماليك أول النهار ، تبدو البيوت ، أيام ما بعد عيد الفطر ، دائما يركب الخمول هذه الأيام التى تعقب الأعياد .

* * *

على بن أبى الجود ، لا يصحو إلا بعد مضى ثلاث ساعات من النهار ، دائما ينام متأخرا ، بعد عودته كل ليلة من القلعة ، يجىء نوابه ، يراجع

معهم ما تم من أعمال خلال اليوم المنقضى ، قرب الفجر يصرفهم ، يخلو إلى نفسه مقدار ساعة ، ثم يمضى إلى إحدى زوجاته الأربع ، أو جواريه السبع والستين ، منذ شهر اكتمل عددهن سبعا وستين ، بعد مجيء واحدة حبشية ، وأخرى رومية ، على بن أبى الجود لا يخطىء طريقه إلى من اختارها لقضاء آخر ليلته ، يخطرها قبل مجيئه بساعات وعندما يدخل إليها ينفذ إلى أنفه عطر ، رائحة ثياب ممتزجة بعبير أنثى ، كل درجة يعلوها فوق السلالم القصيرة ، التى تنتهى بها هذه الطرقات ، فجأة تبعده شيئا فشيئا عن ضجيج النهار الراحل ، ما استمع إليه ، ما أضافه إلى سجلاته ودفاتره ، ما بلغه من شائعات ، أحاديث تتردد عنه هو بالذات ، ما يردده الأمراء والعوام على السواء ، الليلة عندما دخل إلى حجرة « سالمة » امرأته الثالثة ، بدأت تخلع عنه ثيابه ، عباءة زركش سوداء حفت بالقصب والذهب ، عمامته الصفراء الكبيرة الملتفة بشاش لونه أبيض ، مثلها لا يرتديها إلا الأمراء مقدمو الألوف ، سمح لعلى بن أبى الجود بارتدائها منذ سنة ، ينحنى بها أمام السلطان ، يجالس الأعيان ، يشق بها فى المواكب . ومعروف « لم تخلق العمائم الكبار لأى إنسان » لا يجرؤ أى شخص على لبسها فى حضرة من له المقام ورفعة الشأن ، منظر العمامة فوق رأسه يوغر قلوب الحساد ، يوقظ النميمة ، يحرك الدسيسة ، على بن أبى الجود لا يبالى ، يتعمد التجول بها ، وتحسسها ، وإبرازها ، وإمالتها إلى الخلف، وإلى قدام ، بالذات فى أوقات حديثه إلى الأمراء الكبار ، حذره بعض الأصحاب ، ألا يزهو أو يختال بعمامته فى حضرتهم ، لكنه لا يعنيه أمرهم، يحرص جدا على معرفة كلامهم عنه ، تعليقاتهم عليه ، وإذا ما وجد فيها ما يستحق نقله إلى السلطان طلع لفوره إلى القلعة ، يضيف ويبدل فى الكلام، بحيث يغير خاطر السلطان على قائله ، ولا يخفى ما فعل ، بل يتجاهر به ، ويفيض فى الحديث ، كيف اصغى السلطان إليه ، كيف ربت كتفه وعطف عليه ، الليلة ، فيما يبدو أخطأ نواب على بن أبى الجود ، لم يذكروا له وقوع أى حدث غير عادى ، فيما بعد ، زعم البعض أنهم عرفوا

مـا دار ، بالذات فى بيت الأمـيـر قـانى باى أمـيـر الخـيل السلطانية ، ولمح العـامة ، بل أوضـحـوا وصـرحـوا إلى زكـريا بن راضى أحد نـواب على بن أبى الجـود ، وكـبـيـر بصـاصـى السلطنة ، انـه لم ينقل ما يعلمـه إلى على بن ابى الجود ، هذا ما جعله ينام راضيا ملتصقا بزوجته الثالثة سالمة ، سالمة أيقظتـهـا حـركـة غـيـر مـعـهـودة ، أقدام تسـرع ، أبواب تفتـح صـيـحـات بعض الحـريم الخـافتة ، الأصـوات تصل إلى هنا متسـلخة ، غير واضـحـة ، تخـتلط وتضـيـع مـعـالمـهـا ، سـاقـيـة ترفـع مياهـا ، تدور وتصـرأخشابها القديمة ، أمطار تلمس أرضـا جـافـة ، قـارب يتـأرجـح ، حـوافـر تعـدو ، تعـدو ، مـاذا يجـرى بالضـبط ، إيقـاظه قبل الأوان صـعب ، «سـيدى علـى » «سـيدى علـى » يتقلب ، اوانٍ تسـقـط ، يصـرخ طفل ، تسـقط كـتلـة خـشـب ، تتـسـابق دقـات قلبـهـا ، تصـغى ، وقع أمر، ما هو ؟ لا تدرى ، فجأة ، يتدفق دمها مذعورا فى عروق أرجفـهـا رعب ، لم تشـعر باستيقـاظه المفاجىء ، إصـغـائه ، جفـاف ريقـه ، أما الباب فـدفـعتـه قـدم مـحـاطة بحـذاء فرسـان المـالـيك الجلدى الاسـود ، الذى يغطى قصبة الساق ويلم السروال .

* * *

من بوابة الأمير قانى باى الرماح أمير الخيل السلطانية ، خرج مناد غليظ الصوت ، يعرفه الناس ، فى اللحظة نفسها خرج مناد آخر من بيته القريب من قصر الأمير قوصون الدوادار ، قرب حارة بيرجوان ، يتجه إلى العطوف ، إلى الحـسـينية ، إلى حـارة الروم الجـوانيـة ، هـواء خـفيف عذب يحمل إلى الآذان دقات طبل وأصـوات منادين آخرين ، نداءات توقظ النيام، تفك تـلامس الجـفـون ، عـمـال الحـمـامـات يخـرجـون ، عـمـال المستـوقـدات المجـاورة ، باعـة لبن ، باعـة فـول ، يتـوقـفـون ، تصـغى الآذان ، النسـاء يصـحن مناديات بعضـهن البعض ، بائعة بليلة تزعق فى حارة الميضة التى فـتـحت بوابتـهـا منذ قليل ، فـجـأة لا تنادى المرأة على البليلة ، إنما تنقل الخبر بصوتها المرتفع ، الرءوس تطل من الأبواب الصغيرة فى الحجرات

الصغيرة داخل الربوع الضخمة ، أطفال صغار ، أطراف جلاليبهم بين أسنانهم ، يسرعون إلى أين بالضبط ؟ لا أحد يدرى ، تلوت زغرودة فى الهواء أطلقتها امرأة من إحدى الطيقان المرتفعة جدا ، جاوبتها أخرى ، ثم زغاريد ، نساء حافيات خرجن من العطوف ، الجودية ، السكرية ، يحملن أطفالهن فوق أكتافهن ، يصفقن ، يواجهن النهار الجديد بفرحة وليدة .

* * *

سعيد الجهينى :

من داخل رواق الصعايدة فى جامع الأزهر ، يصغى سعيد الجهينى إلى ضجة الخلق ، نافذة الرواق العلوية تطل على مدخل الباطنية ، تتدافع الأصوات إليه ، أخيرا .. أمسكوا على بن أبى الجود ، رسموا عليه ، بالأمس قبيل المغيب رأت الجموع موكبه ، هل جرؤ واحد على الظن وقتها ان نفس الطرقات ستشهده مشهراً مجرسا فوق حمار ازعر ، لا ذيل له ، أناس تسد الشارع كالجراد المنتشر ، فى القلوب غل رأى الفرصة فانفجر، سعيد يراه الآن بعينى عقله ، ها هو ذا يمتطى حصانا عليه كنبوش مذهب ، يمر أمام بيوت المشايخ أو الأمراء ، تتقدمه طبول قوية تفوق فى ضجتها طبلخاناه تدق أمام أى أمير ، ها هو ذا يمشى فى الطرقات مترجلا ، يحفه حرسه الأشداء ، عندما أقنع السلطان بفرض ضريبة على الملح ، الحق الضرر بالمسلمين ، ملح الطعام عز وجوده ، على بن أبى الجود يمشى لا يجرؤ إنسان على رفع عينيه فى وجهه ، عمامته تذهل الأبصار ، لم تمض ساعات ، ها هو ذا يركب حمارا بالمقلوب مبهدل اخر بهدلة ، يلطمه الصغير والكبير ، النساء يبصقن عليه ، الرواق خال تماما ، كلهم خرجوا ، فى الهواء رائحة رطوبة ، وخبز جاف مكوم فى أركان الحجرة المستطيلة الطويلة قاتمة الجدران ، أدخل قدميه فى النعل القديم . لابد من طلوعه إلى مولاه الشيخ أبى السعود ، يمضى إليه فى كوم الجارح ، يتبادل معه الحديث ، يصغى إلى رأيه فيما جرى وما حدث ، صحن الجامع الكبير

يشـغى بالمجـاورين وطلبـة الـعلم ، فـعـلا ، لابد من مـضـيـه إلى مـولاه أبى السعود ، لكنه الآن يجلس بجوار العمود الرخامى الكبير القريب من باب زاوية العميان ، يمس الأرض الصلبة بعود قش ، سعيد يرقب ما تجىء به الأيام بحذر لا يخفى أبدا فرحته بزوال هذا الظل الثقيل ، لكن ماذا تأتى به الأيام ؟؟ بل مـاذا يـخـبىء اليوم نفـســه ؟ ربما انتـهى الأمـر بفـتنة بين الأمراء تروح فيها رقاب ، تسيل دماء أبرياء لا حول لهم ولا شأن ، تغلق أبواب وطيقـان ، تشـعل حـرائق فى البـيـوت ، تهـدم مـسـاجـد وزوايا ، من يدرى؟ ربما جاء من هو أعتى وأقسى ؟ هنا ضـرب سـعـيـد عـود القش فانقصم ، نفض يديه ، عزل على بن أبى الجود فيه رحمـة بالعباد ، ضج الناس وهاجوا ، سـعيد يسمع الآن ما قاله أحد المجاورين هنا منذ ثلاثة شـهور ، مال عليه عمرو بن العدوى ، أخبره بما يضمره ، ضاق بما يأتيه على بن أبى الجود فى حق الخلق ، المظالم المسـتجـدة فى كل يوم ، عـمرو يعلم تماما ما يفعله الظالم ، يخلو إلى نفسه ساعتين فى كل ليلة ، يفكر فى طرق جديدة للمـظالم ، يختلق فنونا جديدة لتعذيب ضـحـاياه ، بل قيل بين الناس انه أوصى زكريا بن راضى ـ عليه سخط الله وغضبه ـ بالبحث عن طرق جديدة لإنطاق الضحايا والمساجين ، أساليب لا يحلم بها إنسان ، قال عمرو إنه قبض على امرأة حامل ، فقيرة لا ظهر لها ، فضربها بين يديه بالمقارع ، أحرق أطرافها بالقطران حتى رمت ما فى رحمها ولدا ذكرا فى ستة شهور ، لم يكتف على بن أبى الجود بهذا بل شنقها عند باب زويلة ، لماذا ، هل تدرى يا سعيد لماذا ؟ لأن رجال زكريا ضبطوها تبيع قفة بها ثمارالعجور ، وكما تعلم فهو يحتكر بيع العجور ، مال عمرو هامسا ، نويت قتله ، ارتجف سعيد ، نظر فى عتمة المغيب إلى عينى صاحبه البراقتين ، جف ريقه ، أطرق وعاود النظر إلى صاحبه ، كرر عمرو « سأقتله لأريح الخلق منه » فى تلك الليلة عينها بصق الشيخ أبو السعود ومضمض فمه بماء عذب ، أصغى سعيد إلى صمت وديع يترقرق كماء الورد فى أنحاء الزاوية ، حمد الشيخ ربه لإصغاء سعيد إلى عمرو بن العدوى صامتا .

« هل أتجنبه يا مولانا ؟ » .

« لا ، لم أقصد هذا ، إنما الحذر واجب ، من يريد قتل إنسان كعلى بن أبى الجود لا يعلن نيته .. » .

فى الرواق راح سعيد يرقب صاحبه ، ساعة الدرس ينظر إليه خلسة ، يحاول العثور فى تصرفاته على ما يؤكد تلميحات الشيخ أبى السعود ، إذ يتحدث إليه ينتقى ألفاظه لا يتطرق إلى نقد أمير أو كبير ، يراه سعيد متجها إلى البيت القائم قرب المقطم ، يخلو إلى زكريا بن راضى ، لا ، ليس زكريا نفسه ، إنما أحد نوابه ، طالب علم فقير مثله لا يجالس زكريا الذى ترتعد لذكره النفوس، عمرو ينقل ما قيل، تجىء الأيام التالية برجال غرباء ، يسألون خفية عن سعيد ، يتبعه بعض المستصنعين لزكريا ، يجهلهم لكنهم يعرفونه، يرصدون خطوات قدميه ، الحارات التى يطؤها ، ضحكاته ، لحظات شقائه الخفى ، فرحه وبهجته ، فى لحظة معينة ، لحظة يجيئون فيها كمصيبة ، رعد أول الشتاء يفاجىء أهل مدينة آمنة ، يمد أحدهم يده ، يلمس كتفه ، يلفظ لفظا واحدا ، يساق إلى سجن زكريا بن راضى ، ينوعون له العذاب تنويعا، يلقونه فى سجن كبير ، العرقانة ، الجب المقشرة ، تنسل أيامه ، ينسى خبره ، يفنى ذكره ، يضيع أثره ، سعيد يبدو مهموما يسمع بشنق عبد ، قطع يد سارق ، إشهار امرأة ضبطت تسرق رغيفا ، تقطع يدها اليسرى ، أو اليمنى إذا وجدوا اليسرى مقطوعة من قبل ، يضطرب قلبه كفرخ صغير ابتل ريشه ، لماذا يحدث هذا كله ، لماذا ؟؟ تعلو الأسئلة وتنزل كعصا نقرزان ، حلقات غليظة فى سلسلة حديدية ساخنة تلهب منه العصب ، تسل النخاع ، تجفف ماء الحياة ، يود لو يزعق من فوق مئذنة الأشرف قايتباى بالأزهر ، يوقظ بيوت العامة الفقراء ، منازل الأمراء ، توخز عينيه أسوار قلعة الجبل ، يرفع يديه ، يطلق أذانا طويلا لا رجعة فيه ، يسب كل ظالم أثيم ، يرى بعينيه زكريا بن راضى مخوزقا بجوار باب الوزير ، سعيد لا يود أن يمضى بين الناس إلا

زاعقا ، راجفا محذرا من أمور تأتى ، فى كوم الجارح يهدئه الشيخ أبو السعود ، الصالح ، الطيب ، المنجب ، النجيب ، العارف بالأصول والفروع، دار ولف الدنيا ، أقام زمنا بالحجاز واليمن ، عرف لغة الهند ، ولهجة الأحباش ، عالج أمور المسلمين فى فارس، وناقش علماء الأناضول ، رأى بعينه مياه المحيط الأعظم عند حدود الدنيا الغربية ، يصغى سعيد إليه ، تغيب عنه لحظة دائما يتوهمها ، لحظة يضع فيها أحد المستصنعين البصاصين يده فوق كتفه ، يضحك كاشفا صفين من أسنان صفراء .

« تسمح معانا »

الآن ، على بن أبى الجود نفسه مشكوك فى الحديد : لا تعرف البهجة طريقها إليه ، بعد ذهابه إلى مولاه سيمضى إلى الشيخ ريحان ، يبادله الحديث ، حتما سيقول الشيخ ريحان ، انه علم الخبر قبل أيام ، ربما تمادى ومال على أذنه هامسا : قوصون وقانى باى لم يتحركا إلا بعد استشارته ، سعيد سيدارى ابتسامة ، وينتظر ، ربما تبدو سماح ابنة الشيخ ريحان ، عسى أن يسمع ضحكتها ، حفيف ثوبها ، ربما تدخل على أبيها فتدارى وجهها ، لكن الشيخ ريحان يدعوها ، سعيد ليس غريبا ، وهو ابن جهينة ، ولو تأخر ميلاده سنوات لأمضيا وقتا فى اللهو ، فى اللعب ، ربما أسعده الحظ بقدرمعقول ، يشم رائحة طعام هى طاهيته ، يأكل منه ، يرتعش قلبه ، ترفرف روحه ، يعود إلى الرواق ، يخلو إلى نفسه طوال الليل، يقتات اللحظة ، يعيشها ألف مرة ، الآن تثور ضجة بين المجاورين ، يؤكد أحدهم استحالة مجىء إنسان يشغل وظائف على بن أبى الجود كلها، وكالة بيت المال ، التحدث عن جهات الشرقية ، ثم الحسبة وهى أجل وظائفه ، إلى جانب مهمته الأصلية التى لم يعد يمارسها تقريبا فى أعوامه الأخيرة ، بشمقدار السلطان ، كان يحمل نعل السلطان فى أوقات الصلاة، وظيفة ليست غريبة عليه ، من قبل عمل بشمقدار صغيرا للأمير طومانباى، وعندما علا نجمه وبرق ، سطع فأله ، وبلغ سعده ، تبرأ من البشمقدارية مع أنها الأصل « من إذن ؟؟ » .

الأسماء كثيرة .. لكنها لن تخرج عمن نعرفهم .. الأمير ملماى .. طغلق .. ططق .. قشتمر ..

« آه .. عد غنماتك يا جحا .. »

« لكن .. مستحيل أن يشغل أمير واحد كل الوظائف .. »

« من مدة والتدبير عمال لإزالة على .. فهل يطرده السلطان ليأتى آخر يستبد بالأمر كله ؟؟ »

من إذن .. من القادم ؟؟

كل يحاول النفاذ إلى ما يجىء به الغيب ، تدبر أمور ، فى القلعة يدور همس فوق الحشايا ، فى الحجرات المغلقة داخل بيوت الأمراء ، والقضاة ، على بن أبى الجود ينتظر مكبلا فى قبو مظلم نتن الرائحة ، يرى أيامه وهما، حلما ضاع ، اندثر .

« ربما جاءنا من لا يخطر ببالنا قط . »

« عد أغنامك يا جحا .. قلت لك .. يا جحا عد أغنامك .»

الدروس معطلة . لن يطول الأمر ، ليس معقولا بقاء هذه الوظائف شاغرة ، أشعة الشمس الراحلة تفرش صحن الجامع ، خبز الجراية مرصوص منذ الصباح يجف ليحفظ زمنا ، طنين الحديث لا ينتهى ، سعيد يرى عمرو بن العدوى ، نحلة حائمة ضلت طريقها إلى جحرها ، من حلقة إلى أخرى يتنقل ، يصغى ، يشارك فى الأحاديث ، يغضب وقت الغضب ، يفرح لحظات الفرح ، يلقى رأيا يبدو عارضا ، قيل صدفة ، لكنه يدفع الحديث فى اتجاه تشتهيه سفن زكريا ، لا يقترب من الشوام والطلبة الأفغان ، أو المغاربة ، لا يهمه أمرهم ، دائما بعيدون عما يجرى ، فى المساء ينقل عمرو ما يراه وما يسمعه ، لكن هذا المساء بالذات ، إلى من يمضى ؟؟ من يصغى إليه ، يبتسم سعيد إذ يجول السؤال بذهنه ، هل تبقى آذان زكريا وعيونه مفتوحة كالعادة ؟؟ هل يجد الوقت ليصغى ؟؟ هو أو نوابه ؟؟ ربما يفكر الآن فيما يجب عمله بعد ذهاب ولى نعمته على بن أبى الجود ،

على هو الذى أقره كبيرا لبصاصى السلطنة ونائبا له ، لمن يمضى الليلة عمرو بن العدوى ؟؟ سعيد يقرض شفته السفلى ، كيف يعذب عمرو يوم القيامة ؟؟ ربما أطاح رقبته بكلمة ، يسفك حياة أسرة بوريقة ، يقطع الأمل من قلب أب عجوز ينتظر عودة ابنه الفقيه ليؤم المصلين فى القرية ، آه لو يمضى سعيد الآن ، يمسكه من عنقه ، ينفذ إلى أعماقه المكنونة ، بنظرة حادة كسكين تغوص بين لوحى كتف ، صمت فى صحن المسجد ، سعيد الآن حذر ، كلماته تخرج بحساب ، فراش عمرو وكيس جرايته لا يبعدان عنه إلا بمقدار ثلاثة مجاورين يتمددون فيما بينهما ، لو تقلب فى الليل ، لو خرج يتوضأ قبيل الفجر ، عيناه تقعان عليه لا محالة ، ربما يخطىء مولاه ، لكن معاذ الله ، لا يظن السوء بإنسان ، يستدير متمهلا ، رائحة الحصير القديم ، الرحبة خارج المسجد ، تفيض بالمارة ، حمير مربوطة إلى جدار قريب ، صوت المنادى لا يمل تكرار الخبر ، إمساك الظالم الطاغى المستجبر ، علىّ بن أبى الجود ، الحوطة على موجوده ، على حواصله وأمواله ، على حريمه وجواريه ، ترسيمه فى جب القلعة حتى يتكشف أمره، امرأه تلقى درهما إلى المنادى ، حلاوة البشارة والنقوط ، بهجة تمتد إلى روح سعيد ، بطيئة كسريان ماء فى شقوق ضيقة ، يرى سماح ، آه لو تصحبه الآن ، ترقب الناس معه ، يسمع وقع أقدامها ، لا يعرف صاحب الخطى ، لكنه يثق عند جلوسه إلى الشيخ ريحان أنها هى ، وهى بالذات ، فرحة الناس تدفئه ، لو فاض درهم عن حاجته لأعطاه للمنادى ، ينحل خيط مر انعقد فى لعابه من قبل ، يذوب متلاشيا ، من داخل الباطنية خرج صبيان يعملون فى مصبغة خضر شيخ الصباغين ، صبغوا وجوههم بأحمر وأخضر ، يرقصون ، يغنون .؟

احزن . احزن . يا حسود ..

شالوا على بن أبى الجود .

* * *

مرسوم شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر)

(وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)

أما بعد :

الحمد لله الذى هدانا إلى كشف أشرارنا ، والاهتداء إلى خيارنا ، لما فيه راحة العباد واستقرار الأمن والنظام فى البلاد ، فمن بعد ترسيمنا على الباغى بن أبى الجود ، وإقامتنا دونه الحدود ، رأينا ملء وظائفه ومراتبه ، وحتى نحفظ العدل ، ونطلب منه المزيد ، فكل منا عليه رقيب عتيد ، رأينا توزيع هذه الوظائف على أرباب المعرفة والعلوم ، والأمر بهذا حمل إن لم تتوزعه الأكف ثقل على الرقاب ، وبدأنا بوظيفة الحسبة لأنها تمس أحوال الناس ومعاشهم ، ولا يمكن تركها شاغرة ، وبعد الاطلاع على أحوال الناس ، ومعرفة أى الخلق منهم يريحهم ويجنبهم الصعاب .

وبعد قراءة التواريخ الماضية ، واستيحاء العبر ، والوصول إلى حقيقة المبتدأ والخبر . وبعد طول تفكير وتدبير ..

قررنا

يتولى بركات بن موسى ، حسبة القاهرة ، لما تبين لنا بعد ما قدمناه ، ما فيه من فضل وعفة ، وأمانة وعلو همة ، وقوة وصرامة ، ووفور هيبة ، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه ، ومراعاة الدين ، كما أنه لا يفرق فى الحق بين الرفيع والحقير ، لهذا أنعمنا عليه بلقب « الزينى » يقرن باسمه بقية عمره . وقد أوصيناه بالنظر فى المكاييل والموازين ، والتحذير من الغش فى طعام أو شراب ، وأن يتعرف الأسعار ، وأن يستعلم ويستقصى الأخبار ، ما يتردد على أفواه الناس ، فى كل درب أو حارة ، كل بيت أو سوق ، بدون علم أهله ، وأن يعين له نوابا ينظرون أمور

المسلمين ، بشرط أن يكونوا أمناء مؤمنين ، وألا يمكن أحدا من العطارين ، من بيع غرائب العقاقير ، وأن يمنع المتحيلين على أكل أموال الناس بالباطل، وأن يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمنع عن الفسق ، والنظر فى أمر فقراء المكاتب ، والعالمات والمغنيات من النساء ، ولا يمكن منهم أحدا ، ولا يستتيب عليهم إلا من عرفت أمانته ، وأثرت صيانته ، وأن يكونوا من أهل العفة والأمانة والنزاهة ممن بعدوا عن المطامع ، ونأوا عن السوء ، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، فلا يبالى باحتسابه بغض الناس له ، وسخطهم عليه ، أو رضاءهم عنه ، وأن يكون مواظبا على سنن الرسول ، من قص الشارب ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وتقليم الأظافر ، ونظافة الثياب والتعطر بالمسك ، هذا ما رأيناه ، وبه أمرنا ، وسلام على أشرف الخلق ، سيد المرسلين ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم .

« قلعة الجبل »

ثامن شوال

* * *

زكريا بن راضى :

فى أى وقت أو مكان ، هل حال أمر بينه وبين فهم ما يجرى ، النفاذ إلى الأحداث ، الصغير منها والكبير، الآن بالذات يحاول تلمس الأسباب ، ما يجرى الآن يحيره ، أول الليل ، نزل إلى السجن الصغير المدفون تحت البيت ، تقدمه المشاعلى مبروك ، لا يذهبان إلى السجن إلا نادرا ، مرات قليلة خطا فوق الممر المعتم الضيق ، فى نهاية تجاويف صغيرة فى الجدران الرطبة المبللة اللزجة ، تضيق الفجوة بقامة الإنسان ، السجين يضطر إلى إحناء ظهره عند الوقوف حتى لا يصطدم رأسه بالسقف غير المستوى ، لا يمكنه تلفت أو تقلب ، أو قعود ، أو نوم متمددا لضيق المكان ، وبسبب

المياه التى يرشها مبروك الأخرس عدة مرات كل نهار ، يحافظ على منسوب ارتفاعها فوق الأرضية اللزجة المبللة ، زكريا لا يلقى المحابيس هنا ، يبقى فى الطرف الآخر للبيت ، يجيء مبروك ، يفك قيود المحبوس المطلوب ، يعصب عينيه بمنديل ، يدفعه بحربة قصيرة فى ضلوعه ، فى النهاية يقف أمام زكريا ، يبقى السكون بلا خدش فيتزايد رعب السجين ، لا يدرى من أين تجيئه الضربة ، وبعد لحظات تطول أو تقصر يمد زكريا فجأة يده ، يلمس كتف السجين ، غالبا ما يلمسها برفق ، على مهل ، بتأن ، كثيرون لم يحتملوا المفاجأة والمباغتة الخفية اللينة كبطن الأفعى ، يسقطون مغشيا عليهم ، ترفع العصابة عن العينين ، فى البداية تترقرق ابتسامة هادئة ، نار قرب انطفاؤها ، يمضى وقت ، ترتفع صرخات زعيق وآلام ، تصر عجلات الساقية التى تبدأ فى رفع المياه من البئر العميقة ، أحيانا يأمر زكريا بقرع الطبلخاناه ، خاصة فى الليل ، فى السكون الغويط ، يسمع من بعيد ، يدرك القلائل جدا ، أشد المقربين إلى زكريا والعاملون معه ، يدركون ما يحويه قرع الطبلخاناه الآتى من سفح المقطم ، الليلة يمر ، زكريا بنفسه فى السجن المعتم الرطب ، قبل ذهاب النهار طلب من مبروك إخلاء التجاويف من كافة السجناء ، جمعهم لا يدرى أحد بوجودهم ، لم يصدر مرسوم بإمساكهم ، زكريا لا يدرى ما تحمله الساعات الآتية ، لا يأمن أبدا مهما استقرت الأحوال ، عندما يرى الكل رسوخ الأمن وعمق جذوره فى جوف الزمن ، لا يخطىء زكريا تقدير أضيق الثغرات ، وأتفه الاحتمالات ، من يرى؟؟ ربما أرسل أمير إلى السلطان يخبره بأمرالمحابيس هنا ، منهم من نسيه زكريا لطول المدة ، ربما جاء مماليك الغورى ، الجلبان أو القرانصة ، تسلقوا الأسوار ، نفذوا من الأبواب ، الممرات والحجب ، أمسكوه ، بهدلوه، ثم يفتشون السجن ، سوف يبحثون عن شعبان ، شعبان بعينه ، من شهور اختفى لم يدر به مخلوق ، شعبان غلام السلطان المقرب ، المفضل على غيره، جليسه فى خلواته ، أنيسه فى سهراته ، يقعد إلى يمينه دائما فى نفس مكان الأمير الدوادار ، وأمير السلاح وأمير آخور وكبار رجال

السيف والكتاب ، شعبان فلقة قمر ، هلال فضة مولود ، شفتاه حبتا ياقوت ، عينا هر ، فمه مسك وطيب ، خده ألين من حرير ، يده فى طراوة العجين ، لا يتجاوز العشرين ، عندما قرر زكريا اختطافه لم يأمره أحد بذلك ، لم يوزه أمير ، لم يدفعه وزير ، أى مخلوق ، قررأن يصل إلى جوهر الصلة بين شعبان والغورى ، سؤال محير الهب مرقده ، أحرق ما بين جفنيه ، هل يهوى السلطان الغلمان ، هل يؤثرهم على النساء ؟؟ أمر كهذا لا يغيب عن زكريا أبدا ، إذن لابد من الوصول إلى الحقيقة ، خاصة والقرائن تؤيد ما يحوم من ظنون ، منذ توليه أمورالسلطنة لم يسمع أنه أزال بكارة أو أضاف إلى مشترياته جديدا ، فيما عدا عشر جوار وصلن إليه هدية من ملك البندقية عندما أرسل قاصده إلى القاهرة من شهور ، زكريا يعرفهن ، لديه أسماؤهن ، أوصافهن ويعلم من مصادره أن السلطان لم يقربهن ، وأنهن يتقلبن متحرقات ، ولولا أن الرجال المسموح بدخولهم إليهن طواشية لأتين من الفعال ما تتندر به أجيال وركبان ، أيضا لم يتزوج الغورى إلا اثنتين، إذن هل توجد صلة بين السلطان وشعبان ؟؟ ولن يجيب عن السؤال إلا شعبان بشخصه . راح مبروك يرقب مرات طلوعه ونزوله ثلاثة شهور كاملة، حتى الم بعاداته ، حفظ المواقع التى يتردد عليها، انحناءات طريقه، عدد البيوت على جانبيه ، مواقع الخلاء فيه ، وفى لحظة معينة خلت السماء من القمر ، من ضوء النجوم ، كمن عدد من الرجال الملثمين على جانبى المدق الرملى الموصل إلى أول طريق القلعة ، وفى الليلة نفسها وصل مقر زكريا ، تأمل شفتيه ، تعجب من خلقته ، من رقته ، مد يده وتحسس نعومة بشرته ، استرسال شعره ، دهش لنصاعة أسنانه ، طيب رائحته ، رهافة لسانه ، أمثل هذا يخلق بين جنس الرجال ، خلع ثياب الغلام قطعة قطعة ، الولد لا يدرى ، غائب عن وعيه ، صرف زكريا رجاله . مال فجأة وقبل الغالم ، قال لنفسه ، وقع القبلة بعد صحوه أحسن ، وفعلا، رأى فى الصباح تورد الوجه المليح ، ورد سقاه الندى ، ابدى كريا ، ورأى الغلام هادئا واثقا ، تحدث إليه ، لم يفصح عن غرضه مباشرة ، لم يكشف

قصده، استمع إلى وصف بلاد رآها شعبان ، تساءل بعدها ، أحقا لم يتجاوز العشرين ، شعبان رأى الصين ، زار فارس ، ورقص فى جبال الأناضول ، عالم بلغة الفرنجة ، يتقن لهجات البربر : أهالى الجبال فى بلاد المغرب ، كيف ألم بكل هذا ، متى اتسع العمر القصير ، كأن زكريا يجالس شيخا خبر الدنيا وأمسك باطن أسرارها ، الثغر العذب ينشد أرق الشعر وأعذبه ، خلاصة الحكم والمقولات ، متى استمع إلى هذا ؟؟ كيف لا يسأل عما يراد به ، لحظات عديدة أيقن فيها زكريا بوجود أسماء عديدة أخرى للغلام ، شعبان واحد منها ، ثلاثة شهور مضت كاد زكريا ينسى الهدف الأصلى ، يضل عن الوصول إلى حقيقة ما بين السلطان وبين شعبان ، فى البداية حام ودار ، أنكر شعبان ، فى ثنايا الأحاديث والكلام يلقى زكريا بخبيث السؤال ، يبدى الغلام تجاهلا ، مرت الأيام ، وصبر زكريا ينفد كحبات الرمال من بين الأصابع ، فى ليلة ضاق به الأمر ، نزل إلى القبو ، أوثق الغلام ، عراه ، قبله فى شفتيه ، رأى انسحاب الدم من الوجه المليح ، من أذنيه ، تحسس العنق الناعم الأملس ، زام شعبان وعض يد زكريا ، طرحه أرضا ، أفسد الأرض البكر ، عبر مضايق مجهولة لم ينفذ منها إنسان ، وقف عند حافة لم يطلع عليها ذكر ، لم ينظر فى وجه الغلام ، غادره كدرا متضايقا حزينا ، لماذا ؟؟ لا يدرى ، ليس السبب فشله فى الوصول إلى حقيقة العلاقة ، بعد ثلاثة أيام نزل القبو ، رأى وجها بدلته قسوة تقاس بعشرات الأعوام ، فى البدء ظن أن الغلام أبدل ، أين ملاحة الوجه ، روقان أول العمر ، ناداه ، لم يجب شعبان ، لم يفه حرفا ، زال زهاء الشباب ، انكسر غصن الوردة ، نسى الغلام بلادا زارها ، قرى رآها، ثلوجا بيضاء تفنن فى الحديث عنها ، أى لغز يحير زكريا ، غادر القبو مسرعا ، عاد إليه مرات خلسة ، روعه ما رآه وأفزعه ، نحل الغلام وكاد يفنى ، لو امتد الوقت ، لو فى الزمن فسحة ، متسع ، ربما توصل إلى سر ما حدث ، يضع يده على بدايات الأشياء ، ربما توصل إلى حقيقة الأمر بين السلطان وغلامه شعبان ، لكنه الليلة محسور ، الغيظ يهريه ،

للأسف ، يقرر خنق شعبان ودفنه حيا ، بنفسه راقب الخنق ، مبروك وحده قام بالعملية ، ضربات معوله الصماء عالقة فى أذن زكريا ، الليل وغرابة الأمر ورحيل الفتى يكسبها رنينا قاتما مخيفا ، لكن ، لابد من تنفيذ ما أمر به ، ربما جاءوا واختطفوا شعبان حيا ، يطلعون به إلى السلطان ، يا مولانا هذا غلامك الحبيب وجدناه عند زكريا بن راضى كبير البصاصين ، ونائب على بن أبى الجود ، يا مولانا خانك زكريا فاختطف أحب الناس إليك . فسق فى أقرب الخلق منك ، بدله وغيره . أنهى أوله وآخره ، كبير بصاصيك الذى جئت به يوما ، كدت تظهر ضعفك أمامه ، طلبت منه بقلب كليم ، أن يطلق رجاله ، عيونه ، بحثا عن شعبان ، حبيبه وصفيه ، زكريا هذا .. هنا لابد من هلاك عظيم ، فناء أكيد ، لن يوسط ، لن يخوزق ، الشنق وقتئذ نعمة لا ترتجى ، الموت خنقا أمنية صعبة ، أما السم الزعاف فجنة لا ينالها أمثاله ، سيأمر السلطان بشيه حيا على نار بطيئة ، من قبل شوى ثلاثة رجال على السفود ـ قيل مجرد القول إنهم شوهدوا فى صحبة الغلام مرات ـ لم ينتظر ليستقصى ، من هم ؟؟ من أى جنس ؟؟ ما الذى يجمع ثلاثة من العامة بشعبان ، زكريا نفسه لا يعلم ، لم يخبره الغلام عنهم ، سبب اجتماعهم به، عموما ، إذا مرت الأمور بسلام ، الليلة ، غدا أو بعد غد ، فسيطلق بعض الأتباع من عتاة البصاصين وأشدهم بأسا وقدرة على الاختفاء ليحاولوا الوصول إلى أصل هؤلاء الثلاثة ، جمع ما تيسر من معلومات عن الغلام ، من يدرى ؟؟ ربما عرف عنه وهو ميت ما لم يعرفه قبل موته ، ربما كشف الأمر عن أمور لا تخطر ببال عاقل ، النيران لا تهب إلا من مستصغر الشرر ، فعلا ليس من الأمان بقاء شعبان حيا ، وغيره من المساجين ، أى شخص يبقى هنا ، حتى حقير الهيئة ، مبتور الأصل فاقد النسب ، أو مجهول الهوية من صغار المنسر والحرامية ، سيعلو شأنه وقتئذ ، يطلق العامة والخاصة التشنيعات المهولة ، يحطون فى حقه كل قبيح ، زكريا يحبس خلق الله ، زكريا لديه سجن تحت بيته ، ترى كم من الأرواح أزهق؟؟ أى الطرق سلك فى تعذيب أجساد خلقها الله ، وقتها يقوم

الكارهون ، الأمراء ، أولاد الناس ، مساتيرالناس ، مشايخ الطرق ، طلبة الأزهر والمجاورن ، سيرون فى المحابيس ، كل من أمسكهم زكريا مساكين، أرواحهم بريئة ، لم تجن ذنبا ، لم يتآمر أصحابها ، لم يسرق بعضهم ، لم يقل سبابا فى طريق عام ضد أمير أو كبير ، الآن ، يفتش السجن بنفسه، يتناول المشعل من مبروك ، ينبش تجاويف السجن بعينيه ، عطن ونتن يتصاعد إلى أنفه ، العفن لزج ، لكن صبرا ، ما قام به يدفع الرضا إلى روحه ، لتخل التجاويف من الآهات والتأوهات والأنات لليالى معدودات ، لن تتردد أسئلة المتحشرجين إذ يسأل بعضهم البعض عن أسمائهم ، عن قراهم وبلادهم ، الأسباب التى جاءوا من أجلها ، زكريا عندما رأى المحابيس تعجب ، رأى وجوها لا يذكر أصحابها ، كأنهم جاءوا بدون علمه، نسيهم لتعاقب السنين وكثرة المشاغل ، الآن ، اطمأن زكريا ، يخرج إلى الهواء الطرى الآتى من أعالى المقطم ، يمكنه أن يخلو إلى نفسه ، مبروك يدرك تماما ما يريده أستاذه ، يبتعد مندمجا بالظلام ، يتحسس زكريا مقبض خنجره القصير المسموم النصل ، يقطع الفناء المتسع بخطوات ثابتة، لعباءته حفيف ، ضحكة ناعمة كخيط حرير ، كشرنقة فراشة ، تجىء من أعلى ، بعضهن يتسامرن فى الحرملك ، لن يخلو الليلة إلى أى منهن ، لن يرى ابنه يس ، يدفع جزءا فى جدار بيته ، يغلقه ، يطلع سلالم ضيقة تؤدى إلى أعلى طوابق مبنى الديوان المجاور لمبنى البيت ، الناظر من بعيد ، حاد البصر ، يمكنه رؤية نقطة ضوء تتسرب الآن من ثقوب المشربية ، لكن مهما أوتى المرء من دهاء ، مهما انكشف عنه الحجاب ، لا يمكنه أبدا تخمين ما يضمه الطابق العلوى ، زكريا لا يجىء إليه إلا أوقات الاضطراب ، تقلقل الأمور ، تغير الأحوال السريع المصحوب بارتجاف الزمان ، انهيار القوائم ، تحلل الأسباب ، قبل بداية العمل يتكىء إلى حشية لينة تحجز عن ظهره برودة الجدار المكسو برخام أحمر ملون بأسود ، يغمض عينيه ، ما معنى الذى جرى ؟؟ حيرته الآن أشد حدة من اللحظة التى جاءه فيها الخبر ، حوله تشهق الجدران تسند طوابق خشبية مقسمة

إلى مربعات وخانات ، كل منها يضم عددا من الدفاتر ، تختلف ألوانها وأحجامها ، هنا تتلخص الديار المصرية ، دائما يقول زكريا لأعوانه المقربين، عندما أود الذهاب إلى أى بلدة فى مصر لا أبتعد عن بيتى ، أجىء إلى هنا ، لكل بلدة قسم ، كل قرية ، أى كوم أو عزبة ، أى إقطاع فى بر مصر من أدناها إلى أقصاها ، كل دفتر يحوى أوصاف المكان ، ما اشتهر به ، ثم أهم الأشخاص فيه ، كافة ما يتوافر عنهم ، القسم الخاص بالقاهرة يحوى حاراتها وخططها وجوامعها ، رجالها وشيوخها ونساءها وغلمانها وجواريها وبيوت الخطأ فيها وشرطتها وعسسها وفقهاءها وحماماتها وأسواقها وخاناتها وطوائفها ومغنياتها وملاهيها ، وأسماء الأروام المقيمين والقادمين والراحلين والافرنج العابرين ، ومن يتصل بهم ويتردد عليهم من المصريين ، كل أمر كبير أو صغير هنا ، أما الأمراء وأعيان الناس ومشاهير الخلق فكل ما يتعلق بهم ، أمزجتهم وعاداتهم ، مشاربهم وأهواؤهم ، ما مر بهم من أفراح وأتراح كله هنا ، يقول زكريا متباهيا ، هذا القسم فى الديوان مفخرة للسلطان وغرة فى جبين السلطنة المصرية ، لم يحدث قط أن أعد شىء كهذا فى تاريخ أى بصاص مصرى أو افرنجى ، وبإذن الله العليم القريب سيجىء يوم يصبح لكل إنسان قسم خاص به ، يلخصه منذ آهة الميلاد حتى رعشة الموت ، الآن ، يبحث بين الدفاتر ، بالضبط هذا ما يريده ، دفتر أحمر مجلد بقماش ، هنا يرقد المباشرون وأرباب الوظائف أصحاب الطوائف الصغيرة ، وفى آخره ملحق يتضمن من يظن وصولهم إلى مناصب يوما ، نوعيتها ، لا يذكر ما دون عن بركات بن موسى ، شهاب الحلبى ناظر الديوان أضاف اسمه منذ عامين تقريبا ، لم يطلب زكريا صفحته للاطلاع عليها ، لا يدرى هل أضاف شهاب الحلبى معلومات جديدة عنه ؟؟ الآن يتأخر الوقت ، الليل يوغل حتى العظام ، لولا سرية الأمر لأرسل فى طلب شهاب الحلبى ليجمع كل ما تناثر من معلومات حول الزينى ، لكن لكى يرسل إليه ، لابد من اجتياز حارات مسكوكة ودروب مغلقة ويتجنب عسس وعيون زكريا نفسه ، ربما يثير استدعاء

شهاب الآن ظنون البعض ، لا داعى لحضوره ، لا داعى ، زكريا يضيق ، بوغت بإعلان الخبر ، لم يستبق كافة رجالة فى الديوان ، ولم ينفذ ما اقترحه منذ فترة بخصوص تيسير سبل الاتصال بينه وبين نوابه ورجاله وأعوانه ، لابد من مراعاة هذا بسرعة وتنفيذه من الغد ، لولا حرصه على معرفة كل ما يضمه الديوان ، طريقة ترتيب الدفاتر والتقارير والأوراق لتاه الآن ، لا يدع أحدا من نوابه يستأثر بأمر ما حتى لو كان صغيرا تافه الشأن ، لابد من إلمامه بكل ظروف العمل ، طرقه ومصاعبه ، حتى لا يلعب به أحد رجاله ، يخدعه ، لكن ما أحوجه الآن إلى شهاب الحلبى بالذات ، شهاب الحلبى لا يكلف روحه عناء البحث ، لديه ذاكرة عجيبة ، يعرف آلاف الأشخاص ، ما يخصهم ، لا ينسى أمرا ولو مرت سنون ، يذكر ما تبودل من أوراق وتقارير ، ما أضيف من معلومات وسطور ، فى أى سنة من السنين ، الآن يقلب الدفتر ، يمسك بالشريط الملون الذى يفصل الصفحات عن بعضها ، حرف الألف لا يعنيه ، غير مهم ، ربما مات بعض أصحاب هذه الأسماء ، بعضهم يجب نقله إلى دفاتر طبقات أخرى لتغير أوضاعهم ، أو اختلالها ، آه مثلا هذا ، أحمد بن عمر خادم مسجد سيدى سويدان ، أصبح إماما للمسجد يقرأ فيه الحديث والقرآن ويؤم المصلين ، تزوج امرأة حبشية ، يشاع عنه هواه بالحبشيات ، مع هذا ما زال لقبه واسمه فى طائفة الخدام ، كل حريمه هنا . واحدة فلاحة من أوسيم ، أم أولاده ، منهم طالب أزهرى ، لا يجب تنبيه شهاب الحلبى ، ربما قيل وما أهمية هذا ؟؟ أبدا ، أبدا ، كل شاردة وواردة يجب تقييدها ، رصدها ربما جاء منها ما لا يدرى مخلوق ، ها هى . الباء ، حرف الباء ، بالضبط بركات ، بن موسى ، أعلى الصفحة ، اقصى الركن الأيسر كلمة واحدة ، حروف خمسة لا غير، المداد أسود ، الخط رفيع .

* * *

بـــركــــــات :

لو نظر جاهل إلى الورقة لظن خلوها من أى حرف عدا الاسم ، وما الذى يعنيه لفظ واحد فى صفحة بيضاء ، ناصعة تلمع تحت ضوء الشموع

المعلقة إلى الجدران المبطنة بالخشب والرخام والرفوف المزدحمة بالدفاتر ، زكريا يمسح الورقة بقالب صغير شفاف لا يعرف تركيبه إلا قلة ، شيئا فشيئا تبدو ملامح الحروف ، تنكشف الكلمات ، يد خفية تخطها ، زكريا يمر بالقالب مرات ، نفخ الهواء حوله ، فقط أربعة سطور ، أربعة سطور فقط، يستعيذ بالله العلى القدير ، ملهم البشر ، كاشف الأسرار ، عالم الغيوب ما لهذا الرجل لا يأتى من ناحيته إلا الحيرة ؟؟ كل ما خطه شهاب الحلبى أربعة سطور . (بركات بن موسى ، له مقدرة الاطلاع على النجوم ، أمه اسمها عنقا) .

زكريا يطبق الدفتر ، أى شخص من سِفْلَةِ الخلق ، من طلبة الأزهر المشاغبين ، أى غانية ، أى بائع جبن مقلى ، أو سنبوسك ، لا يقل المكتوب بخصوصه عن نصف ورقة ، وهذا الإنسان يساوى سطورا أربعة يتيمة ، يغمض عينيه ، ليل ساكت لا يكشف سرا ولا خبرا ، يعرف أن القوم يسهرون الآن ، يهمسون ، يحطون آراءهم فى المحتسب الجديد ، وما ينتظرونه منه ، آه لو يجىء يوم يدرك فيه البصاص ما قيل على بعد آلاف القرى والبلاد ، لا يبعد أمر على الله . لولا ثقة زكريا فيما نقل إليه بعد الغروب ما صدقه الآن ، أكثر من مصدر ، أكثر من بصاص ، كل بصاص يجهل الآخر ، نقلوا إليه أخبار سعى بركات بن موسى لحصوله على منصب الحسبة ، ذهابه اليومى إلى الأمير قانى باى ، طلوعه إليه ، بقاءه عنده ، حديثه إليه ، ثم ثلاثة آلاف دينار كاملة سلمها إلى الأمير قانى باى ليلة الثامن والعشرين من رمضان المعظم بعد العشاء . ثلاثة آلاف دينار يشترى بها بركات منصب الحسبة ، زكريا ينفخ الآن من فمه هواء ساخنا ، ظن وأيقن وصول الحسبة حتما إلى الأمير طغاز ، أصابعه تقبض على حافتى الدفتر ، ها هو أول الليل يسمع ما يحيره ، ما يجعله ينطق لفظا يكرهه « لماذا ؟؟ لكن هل يعقل هذا ؟ من أى طينة خلق بركات هذا ، هل

جاء المسيح الدجال متنكرا، هل نفذ إلى العالم ولم يدر به زكريا ، كيف ، كيف ؟ . بعد إصدار المرسوم السلطانى الشريف ، بعد الثناء على بركات بن موسى ، بعد الإنعام عليه بلقب الزينى مدى الحياة ، بعد دفع بركات ثلاثة آلاف دينار ليشترى المنصب ، بعد طواف المنادى نهارا بأكمله ، بعد هذا كله يطلع من بيته فى بركة الرطلى ، يشق دروبا جانبية ، لا طبلخاناه تتقدمه ، لا دق كوسات ، بلا ضجيج ، أول ركوب له ، يطلع متخفيا إلى القلعة ، ينبطح أمام الأمراء جميعا ، يبكى ، دموع حقيقية ، لاشك فى ملوحة طعمها ، ينطق ما يجعل زكريا يروح ويجيء حتى الآن ، لا يمضى لرؤية ابنه الوحيد ، أى من حريمه ، يثقل الليل فوقه ، لا يعنيه إعدام على بن أبى الجود ، لا يهمه الآن استمرار الغورى أو خلعه وتولية أسفل الخلق مكانه ، كل همه الوصول إلى تفسيرا لما جرى من الزينى بركات بن موسى، فى القلعة ، وأمام من ؟ أمام الدولة كلها ، ما لو سمعه إنسان لضرب الأكف عجبا ودهشة . فى ساقه خدر ، طابور نمل رفيع يسرى تحت جلده ، يعقد يديه وراء ظهره ، ربما لم يدفع ثلاثة آلاف . لكن أبدا ، لا أحد برفقة زكريا الآن ، يهز رأسه بقوة ، أبدا ، أبدا ، يثق من صحة عيون بصاصيه المتخصصين فى أمور قانى باى ، يعلم تماما دخول ألف دينار إلى خزائن الأمير قانى باى يوم استلامه البرطيل من بركات بن موسى ، لم تصله إيرادات من أى جهة أخرى ، أما الألفان المتبقيان من الثلاثة آلاف فطلعا إلى القلعة ، آه لو يتخذ السلطان رأيا الليلة لاستقر زكريا ، لكنه أمر الزينى بالانصراف حتى يرى من أمره ما يكون ، زكريا يمسك الدفتر ، يفتح الصفحة من جديد :

بركات :

من الليلة سيتولى زكريا بنفسه أمر بركات بن موسى ، ليضيف شهاب الحلبى ما يروق له من معلومات إلى سطوره الأربعة التى لا تبل

ريقا، لا تشفي غليلا ، يميل زكريا إلى دولاب صغير يتناول منه دفترا مجلدا بحرير أخضر ، الليل حوله أخرس معصوب العينين ، يخرج من جيبه لفافة أوراق، ما وصله من القلعة ، كل ما دار فى قاعة البيسارية ، بركات بن موسى قبل رخامها ، بلله بدمعه ، لم يحدث هذا فى تاريخ سلطان من السلاطين ، منذ الآن .. كل ما يمس هذا الزينى من قريب أو بعيد سيقرؤه بنفسه ، ينقله هو، عيناه ستتوليان أمره كلما جاءت الفرصة وسنحت ، من تجويف ضيق مغطى بستارة صغيرة ، يتناول وعاء من فخار، يغمس فيه قلما خشبيا رفيع السن فى إناء ملون :

« الصفحة الأولى » :

عاشر من شوال ٩١٢ هـ

على مرأى من الأمراء ، فى حضور جمع عظيم ، طلب الزينى بركات بصوت خدشه التأثر ، أن يعفيه مولاه من وظيفة الحسبة ، قال بصوت مرتجف « الحسبة يا مولاى ولاية يؤتمن صاحبها على أحوال العباد ، وحاشا لله أن أجد فى نفسى القدرة على هذا ، أنا عبد فقير لا أطيق وصايتى على إنسان ، أتمنى انقضاء عمرى فى أمن وسلام ، بعيدا عن أمور الحكم والحكام ، ما أريده رقدة آمنة ، لا يقلقنى فيها سب إنسان ، أو سخط مظلوم غفلت عنه ولم أنصفه من ظالمه ؟ » .

* * *

كوم الجارح :

عددهم كثير ، غير أن هدوء البيت لم يخدشه صوت عال ، فوق حشية قديمة مغطاة ببقايا سجادة لم يفن الزمن زهاء ألوانها ، يجلس مولانا الشيخ أبو السعود ، يطيل الإصغاء ، يعرفهم كلهم ، بعضهم حفظ القرآن على يديه عندما قضى من عمره زمنا مجاورا لعمود رخامى فى مسجد سيدى سويدان ، أو مسجد سيدى إسماعيل الإمبابى ، يدرس الفقه والأصول ، يفسر المتن ، يشرح الأحاديث والآيات البينات ، يقص التواريخ، ها هم يوغلون فى سنى العمر الأخيرة ، يعرف الإنسان عند مروره بها أنه لن يعيش أكثر مما عاش ، أكبر شيوخ الطوائف سنا ومقاما ، الحدادون ، القصابون ، المرخمون ، البناءون ، الشعراء ، مشايخ حارات ، أعيان وأولاد ناس ، يجىء سعيد بطبق كبير ملىء بالبلح المجفف المغسول ، يسنده أمامهم ، يميل الشيخ رضوان كبير الفحامين وأكثر الموجودين تقدما فى العمر .

« لن يقنعه .. لن يقنعه إلا أنت .. »

تبقى الكلمات معلقة فى فراغ البيت ، ينسل هدوء عذب رقراق كسرب عصافير يطير على علو شاهق ، فى اللحظات نفسها تختنق طرقات الحارة بزحام كبير ، تموت الأصوات كلها خارج جدران البيت ، تنفذ رائحة لا تنتمى إلى جنس نبات أو عطر معروف ، ائتلاف الريحان بماء الورد المحفوف بروح السوسن ، يتمهل كل منهم فى تفكيره ، يغمق الهواء ، يميل إلى لون الرماد ، يملأ الصدور خشوعا ورهبة ، تتدحرج حبات المسبحة ، اصطدامها يسمع بوضوح ، إيقاع تفكير الشيخ أبو السعود ، يقلب ما يسمعه ، ما يراه فوق الوجوه .

« لم نسمع برجل مثله .. ونحن ما نرضى إلا به .. »

ابتسامة خفيفة ، ذرات نور تنفذ من ثقوب مشربية ضيقة العيون ، خاطفة كبرق بين غمام .

٤٠« أعرفتموه ؟؟ » :

يقول الشيخ القصبى شيخ حارة زويلة ..

« رفضه للمنصب خير تعريف به يا مولانا .. »

سعيد لا يقول لفظا ، ليدع الضيوف يتحدثون ، أول الليل فى مجيئه المعتاد إلى الشيخ ، تحدث إليه بألفاظ أكثر عددا مما قاله جميع هؤلاء ، آخر النهار لا يزوره إلا سعيد بعد انتهاء دروس الأزهر ، يجىء المريدون فى الصباح ، يقرأون القرآن والأحاديث ، بعضهم ينظف أركان البيت ، يقدم إلى الشيخ غذاءه من اللبن الرائب والخبز الساخن الطرى ، أقصى آمالهم كلمة من الشيخ إلى واحد منهم فيها رضا ، سعيد لا يتحرج أمام مولاه من إبداء ضيق أو غضب ، ما يخشى التصريح أو التلميح به بين الجموع فى الأسواق أو أروقة الأزهر ، يقوله هنا ، حتى لو رأى فيه جرأة ، ينظر إليه مولانا ، عيناه تنفذان بسرعة عبر أسوار روحه ، لا يمكن لسعيد أو أى إنسان من الحاضرين تحديد عمر الشيخ ، فى التجاعيد آثار عشرات السنين ،ربما تجاوز المائة ، الصوت والقامة يحويان صلابة جذوع النخيل ، يكره الانطواء ، يعرف سعيد أى وجد يبهجه إذ يسمع صوت الرعد ، يقول، هذا حس الدنيا ، صوت الكون ، لا يفهمه ويفسره إلا العليم الرحيم ، لم يره إنسان لحظات إصغائه إلى صوت الرعد ، فرحته بنزول النقطة ، أول دمعة تنزل من السماء كل شتاء ، سعيد كل سنة يسمع الرعد فى الرواق ، فى المقهى ، فى الطريق ، فى لحظات تساؤله الغامض عما تفعله سماح فى لحظة بعينها ؟ يتوقف ، يعلم تماما أن الشيخ يصغى ، يقف فى منتصف الفناء تماما ، تبرق عيناه بفرحة لا تمت إلى هذا الزمن ، تمرح روحه فى كون آخر ، يناجى الأولياء ، يذكر بالأسى ما جرى من أحوال فى كربلاء ، يترحم على آل البيت الذين لا يتسرب إليهم البلى والفناء ، أول همسات المطر يتلقاها عارى الرأس بلا عمامة ، ممدود الكفين ، الآن .. توغل برودة، ينفذ الليل إلى السماء واثقا أسود الجبين ، يميل الشيخ البهجورى كبير المرخمين :

« لم يحدث يا مولانا أن رجلا متعمما أو غير متعمم أيا كان مقامه أو رتبته ، عرض عليه منصب ورفض ، الناس كلهم ، المجاورون وأصحاب الطوائف ، منذ سماعهم الخبر ولا اسم على لسانهم إلا اسم الزينى بركات .. الزينى بركات » .

« ومن نشر الخبر يا ولدى ؟ » .

الشتاء ساهى الوجه ، بارد النظرات ، عفى البرودة ، حقيقة ، لا إجابة جاهزة عند أى واحد من الحاضرين ، لا يدرى سعيد كيف تسرب الخبر من البيسارية فى القلعة ، ربما خدم القلعة . ربما بعض المماليك ، كل واحد من المتحلقين حول الشيخ سمع الخبر بصيغة تختلف ، العامة فى الحسينية يؤكدون ، لم يخفض الزينى رأسا ، لم يحن هامة أمام السلطان ، لم يرتجف أو يهب ، قال أمام الأمراء أجمعين ، لا أقبل الحسبة لأننى لا أريد رؤية الظلم وأسكت عنه ، أما الناس فى الجودرية وحارة الروم الجوانية والباطنية فنفوا طلوعه إلى القلعة نفيا تاما ، قالوا إنه أرسل إلى السلطان مكتوبا يعتذر فيه بأدب وحسم عن ولاية الحسبة ، لأن الزمن دب فيه الفساد وكثر ظلم العباد ، وصار الخير والعدل فى أبعد واد ، هذا يخالف طبيعته ، ينافى شخصيته ، المسئولية كبيرة ولن يساعده مخلوق ، بل سيطلب منه السلطان فرض مكوس جديدة على المسلمين ، الزينى بركات بن موسى لن يقبل هذا أبدا ، وقيل فى بولاق ، والحمامات العامة ، خاصة حمامات النساء ، إنه وقف أمام السلطان كزينة الرجال ، وأشجع ما يكون عليه الفرسان ، دفعه فى صدره دفعا هينا حازما ، وهذا لم يقع من قبل ، ولم يفعله أى إنسان ، قال ستأمرنى بظلم الرعية وأنا لن أنفذ هذا لأنى أخاف نسبة الظلم إلى ، كيف أقابل خالقى يوم الحساب ؟؟ .

ـ « الحق يا مولانا ، لا ندرى كيف تسرب الخبر لكن مثل هذه الأمور لا يطول احتجابها ، » . عينا الشيخ نبعا صفاء ، من يصلح إذن للمنصب غيره ؟ من ينشر العدل بين الناس إلا رجل مثله ؟ يخشى الله ليس تصنعا

أو زيفا ، إنما يجهر بهذا أمام السلطان نفسه ، وعلى مرأى ومسمع من أعتى الأمراء وأشدهم بأسا ، وأقواهم شوكة ، قال البعض انهم رأوه يدخل قصر الأمير قانى باى ولم يطلع حتى الآن ، السلطان نفسه لم يصل إلى حل قاطع ، سعيد يرى الآن الجامع الأزهر ، عمرو بن العدوى يتنقل بين الطلبة والمجاورين ، يخرج إلى المقاهى القريبة ، دكاكين الحلوى والمشبك ، يتسمع رأى الناس ، ما يدور بينهم ، آه لو اقترب سعيد من هذا الزينى ، لم يره قط فى حياته ، كلما ظن خلو الزمن من الجرأة ، تنفى الأيام انعدام المروءة ، دائما يصغى الشيخ أبو السعود إليه ، رواياته لما يجرى فى المدينة من فظائع ، ما من رجل شنق وراح على نفسه ظلما إلا وسعيد يحفظ اسمه، يخوزق فلاح لسرقته ثمرة خيار ، توسط امرأة لعنت مملوكا فاسقا اختطف ابنتها البكر، فى اليوم نفسه يجىء سعيد إلى مولاه ، يذكر الضحية ، يتساءل ملوما مقهورا ، كيف يجرى هذا ؟ كيف يمضى الإنسان بأرخص الأثمان لا دية له ، لا قوم يطلبون أثره ، تترقرق الشفتان الرقيقتان بطيف ابتسامة كعبير النعناع ، أحيانا يهمس ، الطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير .. حدقتا عينيه انطبع فيهما المهول من الأمور ، الطواف عبر بلاد الله ، وصوله أطراف الدنيا ، عبوره صحارى لا حرث فيها ولا نسل ، اعتلاؤه جبالا تضرب قممها فى شاهق السماء ، نزوله إلى قرى فقيرة فى ربوع الشام ، صحراء الحجاز ، نجد ، حضرموت ، وديان اليمن ، سعيد لم ير فى حياته الجليد ، أحيانا يتساقط البرد من سماء القاهرة ، لا يحدث هذا إلا نادرا ، يطرقع كالحجارة لكنه غير الجليد ، فى الساحات البيضاء الشاسعة التى تشع دخانا يتجمد فى الفراغ ، يمتد صمت يرعش الخوف فى قرارة النفوس ، الفراغ والزمن بلا بداية ، بلا نهاية ، يقول مولانا ، عندما يبدو العالم بلا آخر ، بلا آفاق ، لا نهائى ، غير محسوس ، لا يفنى ، عندما رأى بحارا يعلو موجها كالجبال ، حيث اليابسة حلم ما زال بعيدا ووهما ضنينا ، هنا تتجمع قوى غريبة فى أعماقه ، يطلق صيحة فى وجه اللانهائى ، اللامحدود ، زعقة تبلغ جبال قاف ، تحدث الزلزلة ، تجمد المحيط ..

« حى .. الله حى .. موجود » .

أصحابه كثيرون ، يطلقون الصيحة فى أماكن عدة ، يلقاهم مرة واحدة فى كل عام إذ يصل إلى البيت الحرام ، يتبادلون الوجد ، يتناقلون ما رأوه ، ما قاموا به من أجل نشر راية الإسلام ، التذكير بأهل البيت ، بطراوة دم الحسين الذى لم تجففه أزمنة وعصور ، فى الكعبة يرثون من لم يجىء ، من ذهب إلى أبد لا يدركه حى ، بعد الحج ، انتهاء الطواف واللقاء، يولى كل منهم مقصده ناحية جهة من جهات الأرض ، لا يتمدد الجسد ليلتين متعاقبتين فوق مكان واحد ، « الله موجود » ممدودة تعبر الزمن ، تلين اليابسة ، منذ أعوام جاء الشيخ أبو السعود ، رجع إلى بلدته التى لامس رأسه أرضها ، إلى مصر ، من وقتها لا يروح ، لا يجىء ، يعيش فى كوم الجارح ، يفد إليه الدراويش الطوافون ، أرباب الطرق ، فى أى ساعة من ليل أو نهار ، لا يرجع طارق أو قاصد إلا بعد رؤيته الشيخ والإفضاء إليه بمن جاء من أجله ، أوقات الصلاة حائل وحيد يمنع الحديث إليه ، أحيانا يقطع تأملاته ، عبوره أزمانا سحيقه البعد ، يصغى إلى صاحب حاجة ، يشير عليه إما تلميحا وإما تصريحا ، مرة يود سعيد لو يشارك المشايخ أحاديثهم ، لو جاءه الليلة عمرو بن العدوى ، يسأله عن رأيه ، يحاول التحرش بفكره ، هنا يزعق سعيد ، لن يرهب عينا ، لن يخشى أذنا تتسمع ، أو تقريرا يرفع عنه ، لن يخشى زكريا بن راضى نفسه الذى يكفى اسمه وصيته لبث الرعب فى أوصال البلاد كلها ..

يقول الشيخ القصبى :

« والله يا مولانا إن لم يولوا علينا الزينى فلا خير فينا .. »

يقول شيخ الفحامين : « أنا والله لم أسمع به فى حياتى .. لا أعرفه يا إخوان ولم أره .. »

يميل مولانا إلى الأمام ، يكف الشيخ القصبى ..

وكيف اختاره السلطان وهو لا ينتمى إلى أصحاب الوظائف الكبيرة ..

مجهول للناس ؟؟

يلقى الشيخ سؤالا يثير به أسئلة .

« ما أدرانا يا مولانا .. ربما غفل عمن يعرفهم من أشرار وفجرة .. وهداه اللّه إلى الزينى بركات .. »

« لن يقنعه بولاية الحسبة إلا أنت .. أنت يا مولانا والبركة فيك .. »

يميل الشيخ أبو السعود هامسا ..

« اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا » .

* * *

الأربعاء .. عاشر شوال :

عندما سمعت بذهاب الزينى بركات إلى الجامع الأزهر ، ليخطب فى الخلق ، قلت واللّه لا تفوتنى رؤية وجهه أبدا ، ظننت أننى الوحيد ، وعندما ذهبت لم أجد لقدمى مكانا وكأنه يوم الحشر ..

قلت لنفسى .. من أين جاء هؤلاء ؟؟

يميل الصفدى بائع العطور فى الحمزاوى ، أحسن من يستقطر الزيت من السوسن ، يلخص ويركز روح السوسن ، يبسط يده فوق صدره .

أنا شفته ..

إليه ينظرون ..

« يا سلام على التقوى .. يا سلام على الصلاح .. كل ما قاله لا يصدر إلا عن رجل ابن رجل ، مثله لم يخلق لينحنى أمام جبروت أو سلطان .. »

محمود اللبان يسأل :

« أهو أسمر قصير .. سمعتهم يقولون إنه أسمر اللون ، كبير اللحية؟؟ »

« أبدا وجهه كأى وجه منا .. » يضحك المعلم مرشدى : « فال الله ولا فالك .. اقصد أنه يشبه خلقتك أنت .. خلقتك العكرة .. »

يعود جادا :

« رأيته يركب بغلة المحتسب فى الطريق فلم أحكم .. أهو قصير أم طويل ؟ لم أره فوق منبر الأزهر .. »

هنا يقول عمرو بن العدوى .. وحبات مسبحته تتدافع بسرعة ..

« قلت إن الروح لا تكرهه يا معلم .. »

« أى والله يا شيخ عمرو .. »

جاء صبى المعلم الصفدى يحمل صينية مثقلة بأكواب الخروب ، يمسك عمرو كوز الفخار بأصابعه ، تتسرب رائحة المشروب إلى برودة الهواء ، من عادات الصفدى شرب التمر هندى ، والخروب والليمون فى قرارة أيام الشتاء ، يقول : هذا يفتح دروب القلب ، يشرح الصدر ، شفتا عمرو تتمتمان بأدعية قبيل شربه ، تظل نظراته فوق الوجوه لحظات ، تتراجع بسرعة منطوية تحت جفنيه المسدلين ، لا يتكلم كثيرا إنما يصغى ، مع أمثالهم لا يخشى هفوة تشى به ، كل آرائهم تجىء على ألسنتهم بدون حرج ، لا يضطر إلى إلقاء جملة تبدو عارضة ، مستترة ، الغرض منها توجيه الحديث فى طريق بعينه ، برودة الخروب تنفذ إلى أطراف جسمه ، مر النهار صعبا ، ليلة أمس لم ينم الخلق ، الدكاكين لم تغلق لحظة ، أصحابها يجلسون أمامها ، الامراء أغلقوا بيوتهم ، دقوا الطبلخاناه وقتاً أطول من المعتاد بعد العشاء حتى ارتجت المدينة بينما تجىء الاخبار وتروح كموج البحر الكبير يلمس صخر اليابسة ثم يرتد عنه ، «الزينى نزل من القلعة» «الزينى يطلع الآن إلى قاعة الدهيشة بالقلعة» ، «أبدا .. الزينى لم يغادر بيت الأمير قانى باى» ، فى الفجر طارت الأخبار ، أرسل الشيخ أبو السعود فى طلب الزينى بركات ، مجاور أزهرى من مجاورى الأزهر

الشبان سعى إليه ، صحبه إلى كوم الجارح ، حيث اختلى الزينى بركات بالشيخ أبو السعود ، عمرو لم يهدأ ، لن تفوته شاردة أو واردة ، لا تمر عليه نظرة ذات معنى إلا يدركها ، ضحكة غريبة الإيقاع لابد أن يرصدها ، أى نكتة يقولها واحد من الخبثاء ، هؤلاء الذين لا هم لهم ولا شاغل فى مثل هذه الأحوال إلا القعاد على أرضية الأسبلة ، وأمام دكاكين المشبك ، والسنبوسك ، يضحكون ، يسخرون ، عمرو يعلم أنه ليس بمفرده ، هناك من يرقب الخلق معه ، يرقبه هو أيضا ، يرفع عنه التقارير إلى مقدم بصاصى القاهرة ، عندما أخبره المقدم نفسه بهذا تقلب على جمر ، تساءل كثيرا .. من هم ؟؟ حاول الاستدلال على واحد منهم ، ظن الظنون لم يستطع فآثر صرف الفكرة ، لكنها تغيب ، تحوم دوما ، لو رفع أحدهم حادثة وقعت على مرأى من عمرو ، ولم يبلغ عنها ، هنا يتعرض للمساءلة ، يتهم بالغفلة ، مجاملته البعض على حساب الآخر ، ليس أمينا فيما ينقله ، ما يسمعه ، يزعق مقدم البصاصين ، يستدعيه ، يقابله بنفسه « أنتم لا تعرفون ما الاقيه بسبب غفلتكم ، السلطان ينزعج انزعاجا شديدا ، لا ينام ليلة بأكملها لمجرد واقعة مرت على واحد من رجاله ، ألستم عيونه ، ألستم آذانه ؟؟ إذا عميت عين طرشت أذن ، كيف يعرف أحوال الخلق إذن ؟؟ كيف يعدل فى الرعية ، حادثة صغيرة تمر عليك تبدو لعينى المهمل غير ذات أهمية ، لكنك لا تدرى ، لا تعلم ما يتسبب من ورائها ؟ فى زمن سالف الذكر ، السلطان الأشرف قايتباى تآمر عليه بعض الكبار ، هل تدرى كيف تآمروا كأنما يخافون عيون السلطان ، كبير البصاصين وقتئذ بلغ حدا من الدقة والقدرة على استبصار الأمور ماجعله يكشف كل مخامرة أو مؤامرة على السلطان ، كيف استمر السلطان ، قايتباى ، كيف عاش زمنا طويلا فوق عرشه ، ثلاثون سنة كاملة ، بمهارة بصاصية ، يقظتهم ، همتهم ، لجأ الأمراء إلى حيلة جديدة ، يخرج الواحد منهم إلى خارج القاهرة ، كأنه يتمشى ، يستنشق الهواء عند بركة الرطلى ، فى بولاق ، بين أشجار الأزبكية ، فى نفس الوقت ، وقت متفق عليه من قبل ، يبدأ الأمير المشى من

اتجاه الطريق المقابل ، يلمح الواحد منهما صاحبه ، يزعق عليه ، يصيحان كانهما لم يريا بعضهما البعض منذ زمن طويل ، ويتبادلان حديثاً موجزا مختصرا سريعا جدا يتفقان فيه على عظائم الأمور ، ثم يفترقان ، من يخامره الظن ، من يشك هنا ؟؟ من تراود عقله أدنى فكرة أو شك ؟؟ ولكن الأمر لم يمر عند الشهاب جعفر بن عبد الجواد أذكى من تولى منصب كبير البصاصين فى تاريخ الملوك والسلاطين ، لا يفوقه إلا الشهاب زكريا بن راضى ، أدرك المرحوم جعفر بواسطة عجوز تبلغ الثمانين .. هكذا ظاهرها، لكنها فى الحقيقة امرأة لم تتجاوز الأربعين ، جعفر أول من استحدث ضم العجائز إلى البصاصين وتعليمهن الشحاذة ثم جلوسهن فى الطرقات العامة ، بجوار الأسبلة ، بجوار المقابر ، أمام البيوت يطلبن حسنة أو صدقة ، لكنهن يرصدن الشاردة والواردة ، المهم .. أدركت هذه البصاصة ما يتم كل يومين أمامها ، طريقة اللقاء بين الأميرين ، كل منهما يلقى الآخر فيصيح عليه : «لم أرك منذ زمن ..» قيل وعلم هذا عند ربى كاشف الغيوب، إن المراة البصاصة كانت عمياء ، أدركت الأمور كلها عن طريق أذنيها ، ومن هذه الواقعة الصغيرة كشف المتآمرون ، كبسهم الشهاب جعفر فى الليلة السابقة على شروعهم فى الركوب على الأشرف قايتباى ، رحمة الله، اقرأوا التواريخ يا ناس ، أنتم عيون العدل ، أنتم العدل نفسه ، كيف تهملون، كيف تدعون أمرا يفوتكم .. كيف ؟؟»

قام المعلم الصفدى ..

« نحمدك يا رب .. جرت الأمور كما نشتهى .. »

يبحث الشيخ القصبى عن عصاه ..

الليلة فى الحمام إن شاء الله .. نغطس فى الماء الساخن ، نتطهر حتى نلقى المحتسب الجديد أطهارا أبرارا .. عند مروره علينا ..

محمود اللبان :

« أنت تبغى استرداد عافيتك .. وطرد الرطوبة »

تترقرق الضحكات ، تهتز اللحى ، يميل الليل بسواده ، يحوى النهار المولى ، يودعون بعضهم بعضا ..

« ربما جئت .. عندى شوق إلى المغطس .. »

« المغطس .. والمكبساتى يا شيخ عمرو ..»

يضحك عمرو ضحكا سريعا ، ترتعش أصابع يديه مرة واحدة ، أصغى إلى مقدم بصاصى القاهرة ، تحدث إليه معنفا عندما فاته نقل حوار دار بين ثلاثة من مهاجرى الشوام ، من لحظتها أدرك أنه تحت رقيب عنيد ، أحد هؤلاء المعلم الصفدى ، اللبان ، ربما الشيخ القصبى نفسه ، ما عليه ، لن يشغل عقله بهم ، لماذا يتساءل أيهم يراقبه ؟؟ سيدعوه المقدم ، يسأله ، لماذا فكر فى الوقت الفلانى بمن يراقبه ؟؟ لن يشغل نفسه بهذا ، يا سلام ، تتغير الأحوال دائما ، وتتغير معاملة المقدم ، عندما أرسلوا إليه أول مرة ، مشى بعدها فى الطرقات والارتياح يغزوه ، أطرى المقدم صلاحه ، كم من أزهريين فسدوا ، أخبره أنه يعرف حاله كله ، يعرف أنه لا يعيش إلا على جراية الأزهر ، لا يصله درهم من بلدته ، بل هو فى أشد الحاجة إلى دراهم يرسلها إلى أمه العجوز ، يومها أخبره المقدم باسم أمه وهو أمر ينساه عمرو أحيانا ولم يذكره مخلوق ، ليس هذا فقط ، بل أخبره المقدم عن عمرها ، هى نفسها لا تدرى فى أى عام جاءت إلى الدنيا ، ارتج على عمرو، أصغى ، كيف يضربها زوجها الذى اقترنت به بعد وفاة والد عمرو؟؟ تعيش الآن فى تكعيبة بوص ، لو جرفتها مياه النيل أو الأمطار لماتت غرقا ، ربما تموت عريا وبردا ، عمرو تغيب عنه أخبار أمه بالشهور ، قال المقدم إنه سيوافيه بأحوالها كل أسبوع مرة ، ليطمئن ، يمكن موافاته بأدق أخبارها يوميا ، لكنه لا يرغب أن يشغل باله ، أخبره المقدم بعدد المرات التى قرأ فيها القرآن ، كل صباح ، فى عز البرد ، يذهب إلى بيت كبير من التجار ، يتلو الآيات البينات ، يرسل إليه طبقا به قطعة جبن حالوم وفول مدمس ملء قبضة اليد ، وكوز من لبن الماعز ، ونصف درهم .

« تلاوة القرآن يا عمرو فى بيوت الأعيان لا تليق بمجاور أزهرى ، إنها صناعة الفقهاء العمى ، أنا شخصيا لا أرضاها لك ، لا أرتاح إلى هذا ، يقلقنى جدا .. صدقنى يا عمرو يضايقنى وأنت طالب أزهرى ، ربما أصبحت في يوم ما ، وهذا يصح بإذن الواحد الأحد الفرد الصمد .. ربما صرت قاضيا كبيرا ، تفصل فى أمور هؤلاء الذين يرسلون لك لبن الماعز والفول المدمس لتفطر ، لتسد جوعك ، بإذن اللّه سوف نساعدك نحن فى أن تصبح قاضيا .. رئيس ديوان .. شخصا له هيبة ومكانة ، إنما دعنا فى حالك الآن.. هل ترتاح إلى هذا .. لا .. لا أظنك ترضى .. لا .. لا لا ياعمرو اعتبرنى أنا شقيقا لك . لا تخف عنى أمرا .. حتى مشاكلك الخاصة ، الخاصة جدا .. بح لى بها وأنا .. أنا وحدى أساعدك فى حلها .. ثق بى .. ثق بى أرجوك ..

بجوار عمود الرخام الثالث من يمين الجدار القديم فى الأزهر ، يقول الأزهريون إن ثمة طلسما مدفونا تحته يمنع العصافير والثعابين والعفاريت من الجامع ، قعد أوقاتا طويلة يناجى أمه العجوز ، أمه تقلع جذور الفجل والبطاطا من غيطان بنها ، والبلاد المجاورة ، توقد الأفران ، تنقل الحطب ، تحزم البوص ، تحش النجيل ، لم تعرف راحة ، لم تغمض عينيها ليلة على هناء شحيح ، من مدة عرف بسفر شيخ زاوية العميان إلى بنها ، جهز زوادته وبغلته وعزم أمره ، عمرو وقتها لا يملك درهما ، الشيخ سيمضى إلى البلدة التى تعيش فيها أمه ، سيعرف الناس ، وتعلم أمه بمجيء رجل من مصر ، من الأزهر بالذات ، ابنها لم يرسل معه حتى حفنة سكر أو قماشا أسود تلف فيه جسمها عاما كاملا ، ربما تظنه ميتا ، دهسته خيل المماليك ، راح فى وباء ، ليلة بطولها لم ينم عمرو ، يضيق به الحال ، حجر هائل كجبل المقطم يزحف إليه وئيدا . دار على أصحابه فى الرواق ، يجلس إلى الواحد منهم ، يخوض فى أحاديث قريبة وبعيدة ، يضحك مع الضاحكين ، إذ يهم بالسؤال ، ينعقد لسانه ، يرتج صوته ، تخونه الحروف والألفاظ ، يقول هذا لا يصح ، سأمضى إلى آخر ، يعبر صحن المسجد ،

لن يدور لن يلف ، لكنه يجلس فينعقد العرق فوق جبهته ، يختلط عليه الأمر، تخونه الألفاظ ، تشنق المعانى على لسانه ، يدهمه الخجل ، هذا الوقت ، يذكره الآن بمرارة وحزن كعفار يهب من الجبل يعكر يوما صافيا ، لم يعرف وقتئذ واحدا من المعلمين أو أصحاب المتاجر أو رواد الحمامات الذين يجلس إليهم الآن ، يتسمع ما يقولون وينقله ، وقتها كان خجولا ، حييا ، لم يجرؤ على اقتراض دراهم يرسل بها حاجة أمه ، حمل جرايته من الخبزالجاف ، فى النهار ، يقف المجاورون أمام الأزهر يبيعون جراياتهم ، أو يستبدلون بها الغموس ، خرج إلى الطرقات بعيدا عن الجامع ، بادله أحد المارة رغيفين بقطعة جبن قديمة ، فى المغربلين والصنادقية ، والعطارين، والفحامين ، وأهالى الجودرية وسوق الشرابشيين والمارة فى شارع الصليبة ، والمتسكعين عند باب الوزير ، كلهم هزوا رءوسهم ، قالوا «على الله » ، وكلما اقترب الليل يزحف سواده إلى القلب ، يرى جبل الحجر أكثر قربا منه ، تعثر الهواء فى صدره وكبا ، فوق حجر قديم قرب جامع الحاكم عقد ساقيه ، رفع يده ، انساب صوته عاليا بالآيات البينات ، نزل البرد ونفذ إلى حشاه ، يرى عينى أمه فتوشك عظامه أن تضىء بما يشتعل فيهما من هم ، اقترب النهار ، سمع صريرا ، أبواب الحارات تفتح، طلعت الشمس وفى يديه أحد عشر درهما ، ألقاها إليه مارة مجهولون ، لم يروا وجهه ، لم يعرفهم هو ، اشترى سكرا ، وحلاوة معقودة، وفى زاوية العميان شق فؤاده نصل ثقيل ..

« الشيخ سافر فى الفجر يا عمرو .. »

ها هو مقدم البصاصين فى القاهرة :

« عمرو .. لا أقبل هذا لك .. لا أرضاه لك .. »

فى البدء بدا رقيقا ، آه : يهز عمرو رأسه لكل أول آخر ، خجله من مخالفة الخلق ، أين هو ؟؟ ابتعاده عن الناس ، أين ذوى ؟؟ ما يخشاه الآن، غضب المقدم ، بعد الهفوة الأولى عفا عنه ، الثانية من يدرى ماذا يجرى ؟؟

ينفصل الرأس عن الجسم ، ما أسهل الأمر ، ربما قتلوه بقية عمره حيا ، يصيرفضيحة متحركة ، تشير إليه الأصابع ، يطرده المشايخ ، الحمد لله فحتى الآن لم توجه إليه نظرة ، لم يقل له أحد كلمة ذات معنى ، ها هو ذا النهار يولى ، لحظات نزول الليل يحلو الكلام ، تكثر الفضفضة ، أمام دكاكين باعة الحلوى ، الترزية ، فى زاوية سيدى الحلوجى جماعة من قصر الشوق يسهرون بعد صلاة العشاء ، يفسرون الآيات ، الأحلام التى طالعتهم فى المنام ، لا ينفذ غريب إليهم ، لكن مجيء عمرو المتكرر إلى الزاوية ، أداؤه الصلاة ، تأدبه عند إصغائه إليهم ، طول صمته ، هزة رأسه لا تنقطع بالموافقة على ما يقولونه من آراء ، يطالعهم بمظهر تلميذ يحرص على الاستفادة من رجال خبروا الحياة ، ألموا بالعلوم ، الأيام قربته منهم، لو تغيب ليلة يسألون عنه ، المقدم يثنى عليه دائما ، يشيد به لنجاحه فى النفاذ إلى هؤلاء ، حديثهم خافت على غير عادتهم ، توشك أذناه على سماع جديد ، يخرج عن مألوف ما يرفعه ، ربما يبلغ السلطان ، يقترب عمرو من المقدم أكثر يبدى رضاءه ، يثنى عليه ، منذ فترة لم يره عمرو ، يضن عليه بلقائه ، تقاريره يتسلمها نائبه الحبشى ، يتساءل عمرو ، هل غضب عليه ، هل يدبر له أمرا ؟؟ ها هو ذا المعلم حليم الدين يمط شفتيه :

« والله يا مشايخ فرحة الناس لا تأخذنى .. »

يتمتم عمرو :

« أى والله .. أى والله .. »

« الأيام علمتنى الحذر ، لم نر ما يسر أو يضر ، فلم هذه البهجة كلها، ثم تنظر إليه العيون ...

« ما أتاه اليوم لا يعجبنى ... »

بسرعة تخرج كلمات عمرو :

« لماذا يا شيخ حليم الدين ؟؟ »

آه : لماذا التسرع ؟؟ هل بدا فى سؤاله ما يريب ، أحدهم على وشك أن يسأل نفس السؤال ، المفروض ألا يوجهه هو ، مازالت عنده خفة ، لو الجمع كبير لسجلت عليه زلة من أحد الذين يعرفونه ولا يعرفهم هو ، لكن ، من أدراه ؟؟ ربما تتصنت الجدران ، ربما يرقبه أحد ، يقرأ ما تنطقه شفتاه بدون الحاجة إلى سماع حسه ، يعلم بوجود هؤلاء البصاصين : ألم يقل مقدم البصاصين : « لدينا طرق لا تخطر على بال إنسىّ أو جنىّ نعرف بها الحقيقة ، حتى لو همس بها المرء وراء جبل قاف » . آه : لابد من التزام الحذر ، بهدوء ليرقب رد الفعل بينهم ..

* * *

أول الليل : الأربعاء عاشر شوال :

أخيرا ها هو ذا مبروك ، يحمل لفافة أوراق ، طال ترقب زكريا لوصولها ، فى الصباح سلمه مبروك تقريرا عاجلا ، أعده مقدم بصاصى القاهرة ، يحوى حركة الزينى بركات ، كيف انتقل من بيته أول الفجر بصحبة طالب ازهرى إلى كوم الجارح ، قضى مع الشيخ ابو السعود زمنا خرج بعده من البيت ، ومع أول مجىء الشمس إلى الحوارى والدروب ، طاف مناد جديد لم يسمعه الناس من قبل ، قيل إنه أحد خدم الزينى ، نقل إلى أهل المدينة ما عزم عليه الزينى بركات ، من ذهاب إلى الأزهر الشريف، عنده كلام سيعلنه على الخلق ، مناد جديد لا علم لزكريا به ، صحيح من حق المحتسب إطلاق مناد خاص من عنده ، ينقل إلى الناس رغباته وأحكامه ، هذا ما تنص عليه الأصول ، لكن الواقع يكذب هذا ، يلغيه ، جرت العادة منذ عصر الشهاب جعفر كبير بصاصى الأشرف قايتباى أن يتبع جميع المنادين لكبير البصاصين ، ترسل إليه نصوص النداءات ، طريقة نشر الحادثة أو الخبر قد ينتج عنها أمور جسام ، بل إن كبير البصاصين ينبه بضرورة تحمس المنادين عند نقل خبر بعينه أو تصنع الحزن والفتور لحظات نشره ، كلها عوامل تؤثر فى الخلق ، هناك مناطق وخطط فى المدينة يجب الا يطوف بها المنادون ، كيف يظهر مناد لا يعرفه زكريا ؟؟ كيف لا يراجع نص ما يقوله ؟؟ ثم إن الزينى بركات لم يحتسب بعد ، كيف يعطى لنفسه الحق فى مخاطبة الناس بلا رقيب ، بلا وسيط ؟؟ هكذا يبدأ أيامه بإخلال الأمور ،يعبث بالنظام ، فى بداية النهار كان زكريا مرهقا، الليلة السابقة قضاها بعيدا عن حريمه ، عن وسيلة الجارية الصغيرة ، لم يمض عليها أكثر من أربعة أيام فى بيته ، حاول النفاذ عبر الأيام ، أى أحداث مقبلة ؟؟ هذا الزينى لا يثير اطمئنانا ، منذ سماعه باسمه، ولا يجىء من ناحيته إلا عجائب الأمور ، قبيل الفجر أرسل إلى مقدم بصاصى القاهرة يأمره بإعداد ثلاثة مطالب مفصلة ، جمع أقصى ما يمكن من معلومات وبيانات عن الزينى بركات وإرسالها إليه أولا بأول ،

ثانيا ، و استنفار كافة بصاصى القاهرة ، لتلتفت عيونهم إلى كل صغيرة وكبيرة خلال تجمع الناس ، إصغاؤهم إلى ما يقوله الزينى ، المطلب الثالث، أن يرتفع عدد التقارير التى إليه فى مقره إلى أربعة وعشرين تقريرا ، بواقع تقرير كل ساعة ، على غير المعتاد ، وهو إرسال تقرير فى أوقات الصلاة الخمس ، ثم تقرير مفصل بعد العشاء يتضمن أحوال القرى والبلاد ، إن ما طرد بقايا النوم من عينى زكريا ، ما جعله يأكل بسرعة ، لا يفكر فى وسيلة الشامية ابنة الستة عشر ربيعا ، ما جعله يهمل تهذيب لحيته ، لا يشرب الحليب الطازج المحلى بالسكر ، تساؤله الملح ، ما الذى ينويه الزينى بركات ؟؟ ما الذى سيقوله للعامة ، بأى لسان يتحدث ؟؟ هل هناك سابقة لما سيفعله ؟؟ أبدا ، زكريا يعرف الأحداث والتواريخ القريبة ، والبعيدة لم يتحدث فى جمع من الناس قط ، بل لم يسبقه أى أمير ، كبيرا أو صغيرا فى هذه الفعْلة ، تحدث العظيم إلى العامة مباشرة يفقده هيبته ، يضيع مهابة الحكم والحكام ، يتطاول العامة على الكبار ، إذا كان ناظر الحسبة يتكلم إليهم ، فلماذا لا يفعل مثله الأمراء ؟؟ ألم ينبهه أحد إلى هذا ؟؟ أول النهار دخل زكريا إلى قاعة الثياب البديلة ، غرفة طويلة ، ضيقة، تحوى كل ما يخطر على بال من ثياب ، عمائم سلطانية ، وأخرى لا يرتديها إلا مقدم الألوف ، سلاريات ، معاطف فرو ، سراويل شامية ، جلاليب بدوية ، فرجيات لمشايخ الأزهر ، قفاطين ، جلاليب رخيصة لبائعى حلوى ، وجزارين ، وتجار فاكهة ، زكريا يعرف مقصده هنا ، انتقى جبة بيضاء متسخة ، عمامة خضراء صغيرة ملفوفة بشال أحمر ، أمسك عصا من سعف النخيل، خرج من الباب الخلفى للبيت درويشا من أتباع سيدى مرزوق ، تلميذ سيدى أحمد البدوى ، مشى متمهلا ، يتوقف بين الحين والحين ، يطلق صيحة قوية ، الله حى .. الله حى مدد .. مشى على مهل يتبعه جبران الأخرس ، أحد رجاله الأشداء ، دائما يسافر معه ، يحميه من غوائل الطريق ، ما تخبئه النفوس من حقد ، ربما تجسد فى خنجر ينسل محاولا إيجاد الطريق إلى قلبه ، برغم همه وحيرته ، ابتهج كعادته إذ يلقى

نفسه بين الناس ، لا يعرفه أحد ، حتى لو التقى به أقرب المقربين ، مقدم البصاصين نفسه ، لن يتبينه ، أى واحد من هؤلاء فى متناول يده ، أليس هو عيون السلطان وآذانه ؟؟ آلاف الرجال والنساء والأطفال يتبعونه ، لا يعرف بعضهم البعض ، ينقلون الهمسات والحركات من البيوت والربوع ، من كل شبر فى المدينة ، إذا شذ شهيق إنسان عن البقية عرفه ، نمى إليه بواسطتهم ، لكنه عندما دخل الأزهر ارتاع فعلا ، لم يحدث أن رأى مثل هذه الجموع ، انتابه غم ، كيف يسكت السلطان ، أيدرون العاقبة من تجمع كل هؤلاء ؟؟ ما يجرى خطأ فظيع . لابد من تنبيه الكبار و السلطان نفسه ، السكوت على الأمر ربما أدى إلى استفحاله ، انتشاره ، هذا ما لا يسمح به أبدا ، هذه سابقة تنذر بعواقب لا يعرفها الجهلاء ، ها هو ذا زكريا الآن يفرد اللفافة التى أتاه بها مبروك .. تقارير مقدم بصاصى القاهرة ، جمع فيها وأوجز وأوضح خلاصة ما تلقاه من عيون وأرصاد طوال اليوم ..

« فوق منبر الأزهر وقف ، المسجد يفيض بالخلق من كل لون وصنف زعقوا فارتجت الأعمدة ، وكادت المآذن تميل ، بدا وكأن كل قوة ستعجز عن إسكاتهم ، لكن الزينى رفع يده اليمنى ، مفرودة الأصابع (يده عالية ، أصابعه خمس) وكأن قوة سحرية تسيل منه ، طاف الصمت مغلقا أفواه الناس ، قيل فيما بعد إنه أوتى مقدرة على جعل الخلق يصمتون ، ولو أراد أن يذرفوا الدموع لفعل ، سرى صوته بين الناس هادئا ، قال ما معناه :

« أولا » : أنه لم يكن يقبل الحسبة قط ، لولا إطلاعه الأمراء على ما ترتضيه روحه لراحة العباد ، ولولا الشيخ العارف بالأصول والفروع ، الزاهد الناسك ولى الله أبو السعود ، لما قبل أبدا ..

(هنا علا زعيق الناس، رددوا « ما نريد إلا أنت » « ما ينفع إلا أنت»، إلى غير هذا من النداءات التى تؤدى المعنى نفسه ، وإن اختلفت الجمل والألفاظ ، عادت يده تهتز بتؤدة فاستكان العامة وأصغوا) .

« ثانيا » : أنه لا يخشى إلا الله ، كيف يلقى ربه إذا ظلم مخلوق من قبل أحد نوابه وهو لا يدرى ؟ هذا ما لا يطيقه ولا يمكنه سماعه أبدا ، من

هنا ، لو وقع ظلم على إنسان ، فقير أو غنى ، ناء أو دان ، فعليه بالتوجه إلى نائبه إن لم يقتص من ظالمه بعد شرح قضيته وظهور العدل فيها .

« ثالثا » : لن يمكث فى القاهرة ، إنما سيلف الوجهين ، فقد أضيفت إليه اليوم فقط نظارة حسبة الجيزة ، سيدور ظاهرا أحيانا ومتخفيا حينا آخر ، يطلع على أحوال الناس ، أما بيته فى القاهرة ، فمفتوح أطراف الليل وآناء النهار لكل ذى حاجة ، لا حاجب بينه وبين الناس ، صغيرهم أو كبيرهم ، على اختلاف مراتبهم ، لو ظلم أحد من البشر فليقتص منه على مرأى من الجميع ..

« رابعا ، وهذا خطير » :

« فى كل حارة ، ودرب وقرية ، وبلدة وإقطاع ، ستكون له عيون يرصدون ويتعسسون المظالم أينما تقع ، يبلغونه بها » .

(بعد خروجه من الأزهر ، شق طريقه راكبا بغلة عالية بسرج متواضع ، وكنبوش عادى (أثار هذا رضاء الناس عنه ، قالوا ، انظروا ، كيف العدل والحكام ؟) ، استمر موكبه حتى وصل سوق الشرابشيين ، قابلته المغنيات بالرقص ودق الشبابة والدفوف ، وانطلقت له الزغاريد من الطيقان ، بين يديه مشى ثلاثة من نوابه الجدد الذين لم يطلع على وجوههم إنسان (جار البحث عن أصولهم) ، أحدهم يحمل سيفا ، وآخر يحمل ميزانا ، وصنجا ، والثالث يلوح بمصحف كبير يلثمه بين الحين والحين ، خلف الموكب مشى عبد العظيم الصيرفى ، أما الزينى فراح يهز رأسه هزا خفيفا وعلى وجهه خشوع وتقوى ..

لفتة أولى :

أجمع رجالنا على وجود طالب أزهرى ، بقى طوال الركب على مقربة من الزينى بركات ، بدا متحمسا ، بالكشف عنه ، اتضح أنه هو الذى صحبه من بيته إلى زاوية الشيخ أبو السعود فى كوم الجارح ، واسمه «سعيد الجهينى » .

لفتة ثانية :

عند اقتراب الموكب من جامع الحاكم ، قبيل عبوره باب الفتوح حيث يمكن لعينى العابر رؤية أسوار سجن المقشرة ، ومدخله العلوى ، ظهرت امرأة سمينة ، متقدمة فى العمر ، ترتدى السواد ، تتشح بطرحة قديمة ، شقت لنفسها طريقا حتى وقفت أمام بغلة الزينى ، زعقت زعقة عظيمة ، حتى حظيت بانتباه الخلق ، طلع عليها طلوع لا يهتف إلا بكلمة واحدة .. يا لئيم يابن اللئيمة . وعندما تنبه العامة هجموا عليها ، ذابت كفص الملح ، وجار الكشف عنها ، وتحرى حقيقتها ، من هى وما أصلها ؟ .

لفتة ثالثة :

أطلقنا أحد البصاصين المهرة فى أثر الزينى لرسم صورة دقيقة وافية لملامحه ، سننقلها إليكم فور إتمامها لإطلاعكم عليها ، وإجراء اللازم من فحوص .

الآن يطل زكريا من طاقة المشربية ، الشتاء يتدثر بليل أسود بارد ، نور يلمع فى الناحية المقابلة ، تسهر وسيلة ، تخشى مجيئه فجأة ، الليلة لن يحتوى نهديها لم ير مثلهما طوال عمره ، صلابة وليونة ، رقة وقسوة ، خوف ونشوة ، إقبال وانفلات ، اقتراب وابتعاد ، كرتا عجين أملس طوع راحتى يديه ، يهوى نهودا لم تمسها يد بشر ، هكذا يشترط على عارف شيخ دكة الرقيق ، عارف أحد عيونه وأخلصها ، عندما جاءته وسيلة فرح بها فرحا عظيما ، استوثق أولا أنها قدمت فعلا من بلاد الروم ، ربما دسها عليه أمير ابتغاء غرض خفى ، قضى ليلته الأولى معها مبحرا فى محيطات لم يطأها إنس ولا جان ، يرقب الألم الأول اللذيذ ، رعشة تترقرق فى عينين واسعتين ، فكر فى تجنب العمل أياما ليرقبها ، يرتشف رحيق العمر الأول، جاء هذا الزينى فجأة ، أقصاه عن الآهة . وحلاوة الرعشة ، ها هو ذا يواجه سابقة لم يطلع على مثيلها ، عليه بالحذر ، والثبات ، سيذكر فيما بعد أنه تصرف بعقل ، بحزم ، ما يقوم به الآن سيراه الخلفاء فيستنيرون

ويهتدون ، منذ قليل أرسل فى طلب شهاب الحلبى ، سيحضر القلم والحبر الذى يجف بعد مدة بعينها ، مدة تكفى لوصول الرسالة إلى مقصدها ، وقراءتها ، ثم يجف المداد ، يتلاشى ، تعود الورقة بيضاء بعد يومين تضيع الورقة نفسها ، تطير كبخار صباح أضاعته شمس قوية ، حدث فى زمن السلطان فرج بن برقوق ، أن أطاحت رسالة برأس كبير البصاصين ، الآن لا يمكن لمناد أن يواجه زكريا بكلمة واحدة مدونة ، تناقش فى هذا الأمر طويلا مع كبير بصاصى دولة الشاه إسماعيل الصوفى ، قال الرجل وهو من عتاة البصاصين يحسن بالبصاص الذهاب بنفسه إلى الأمراء ونقل الموضوع شفاهة ، خالفه زكريا ، الحديث لا يروح من الذهن ، ربما شهد عليك جمع من الناس فأطاحوا بك ، لكن ما الرأى لو وجد نوع من المداد يختفى ويتلاشى بعد بلوغ المراد من الرسالة ، لم يقل لكبير بصاصى الشاه أنه حصل فعلا على هذا المداد ، هذه وسيلة ينفرد بها ولا يفرط فيها بسهولة ، كبير بصاصى الشاه أنكر وجود مثل هذه الطرق ، الزمن الذى يجىء بمثل هذا المداد ما زال نائيا ، لكن الليلة ستصل رسائل منه ، إلى الأمير قنبك ، وقانى بك ، وقوصون ، وطومانباى ، وكافة كبار الدولة ، سيشير إلى ما أتاه الزينى من أمور منكرة تخالف أصول الحسبة ، تتعدى على وظائفه هو خاصة بعد إشارة الزينى إلى إطلاق عيونه وأتباعه ، هل سيستحدث نظاما آخر للبصاصين ، الدم يتدفق مغتاظا فى أوردة زكريا وشرايينه ، ربما يعلم اللئيم ما يتبعه أحد المهراجات فى الهند لا يكتفى بنظام واحد للبصاصين بل لديه ثلاثة نواب . يتبع كلا منهم فرقة خاصة من البصاصين . وهكذا يضمن استقرار الوضع . ألا ينفرد بصاص واحد بالأمور ، وهذا الترتيب يعجب زكريا فيه دهاء من المهراجا ، فكر فى السفر إلى الهند ليطلع عليه ، أو يرسل أحد نوابه المقربين لنقل تفاصيله ، لكن مجرد سفر نائبه سيثير الشكوك ، ربما ترامى إلى السلطان خبر الترتيب المتبع ، ينقله إلى السلطنة، هنا يضيع زكريا ، لا ينفرد بالرأى، بالمشورة ، لكن كيف يحصل الزينى على هذه المعلومات ؟؟ زكريا يملؤه

غيظ، حتى الآن لم تصله معلومات كافية عن الزيني ، ربما يلاقي مقدم البصاصين صعوبة في جمع ما يلزم ، ربما يغفل الغبي عن أهمية الطلب ، لابد من معرفة عادات الزيني، ساعات نومه ، نسائه ، إلى أي البلاد سافر ، كم لغة يجيد ، عاداته في الفراش ، لابد من استقصاء أمر المرأة البدينة والقبض عليها مهما كلفه الأمر ، وأيضا الشاب الأزهري ، يبدو أنه مقرب إلى أبي السعود ، هذا يلزم له شأن آخر ، سيوليه عناية ، الآن ، يقف في منتصف الغرفة تماما ، يمسك وعاءً مملوءا بالحليب الساخن المحلى بالسكر ، يحب شربه كثيرا ، بعد صحوه ، أول الليل ، يقول ، أواجه نهاري بالحليب الدسم وليكن ما يكون ثم اختمه به ، إنه ليس شرها كالآخرين ، الأمير قنبك يجرع على الريق سطلا مترعا بخلاصة مخاصي الديوك ، تنبيء التقاريرأن باستطاعته أن يضاجع نساءه الأربع في ليلة واحدة ، يشبع كلا منهن ويرويها ، ولا يمل ولا يكل ، مع تجاوزه الأربعين ، من يدري، ربما يفضل الكوب الصباحي الآن . تبرق في ذهنه خاطرة ، سيخاطب الزيني بركات رأسا ، صحيح ، المفروض أن يبدأ المحتسب الصلة معه ، باعتبار أن كبير البصاصين نائبه ، لكن زكريا سيبادر بجس النبض ، الليونة مطلوبة الآن ، على ورق عادي ، بمداد عادي ، سيأمر شهاب الحلبي بكتابة رسالة إليه الليلة ، في نفس الوقت تمضي الخطابات الأخرى إلى الأمراء .

« اللهم اجعل هذا البلد آمنا »

إلى الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة

نبدأ بأن نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة نقيمها فى كل حكم ، وتحاور سيوفنا جاحديها فتنهض بالحجة عليهم وهم بُكْمٌ ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من ائتمر بالعدل والإحسان ، وأعدل مَنْ أمر أمته بالوزن بالقسط ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الذين احتسبوا فى سبيل الله جل عنائهم ، وسلم تسليما كثيرا .. وبعد ..

أعلم أننا بدأنا إليك بالمراسلة ، وأردنا إطلاعك على ما تحويه المكاتبة ، ابتغاء أمن العباد ، فى سائر النواحى والبلاد ، لأنكم لن تطلعوا على خافى الأمور ، إلا بما نطلقه بين المسلمين من عيون ، ولن تصغوا إلى ما يدور من تافه الهمسات ذات الغرض الخطير ، بين الأمير والحقير ، إلا باستنادكم إلى جهتنا ، والاستعانة بنا ، فهذا ما سار عليه نظام السلطنة منذ أن وعينا وأدركنا ، وجرت العادة ألا يتولى هذه الأمور التى تدرأ الصغائر والكبائر من الشرور ، إلا نيابتنا التى يخدمها آلاف الخلائق ممن لا حصر لهم ولا عد ، وهم فى خدمة السلطان ورجاله لا ينامون ، وحفاظا على راحة الرعية يسعون ، يكدون ويشقون ، من هنا رأينا الإشارة عليكم ، وإعلامكم بما يجب أن يتم من جانبكم ، وهو ضرورة إرسال مطلب مفصل إلينا ، كل ليلة، نطلع منه على ما تم من مُخالفات ضبطتموها ، حتى نعرف من ارتكبوها ، فندرجهم فى زمرة الأشقياء ، ونحمى الأتقياء والأولياء ، كما نرجو الاستعانة بمن يتبعوننا من منادين ، لمراجعتنا ما يقولون ، ما يوجهونه إلى العامة وينقلون ، فهذا الأمر الذى يبدو لكم تافها حقيرا تترتب عليه عواقب منها الضار والخطير ، يمكننا شرحها لكم عند أول لقاء بيننا لأننا نهدف إلى ما فيه سلامنا ، وللعلم ، فهذا ما درجت عليه النظم

والرسوم ، منذ وقت غير معلوم ، وما نقوم به من زمن ، وما سنؤديه إذا امتدت بنا فسحة الأجل ، وليست هذه نظما من اختراعنا إنما أصول درج عليها أجدادنا .

ولكم سلامنا

عاشر شوال ٩١٢ هجرية

كبير بصاصي السلطنة

الشهاب الأعظم

زكريا بن راضي

بعض مما وجهه كبير البصاصين

« الشهاب الأعظم »

زكريا بن راضى إلى السلطان والأمراء

« ... وإذا أوضحت هذه المخالفات ، سأعدد ، غير أننى على سبيل الاختصار أوجز فأقول :

أولا : لأول مرة ، وليس لها صلة سابقة أبدا ، يحدث أن كبيرا يجمع عامة مصر كلهم ، أسافلهم وأعاليهم ، يخطب فيهم ، مهيجا جوارحهم ، ولا يعلم إلا الله أى جمرة نار كان ممكن أن تنطلق فى البلد ، فتقيد ولا تنطفىء ، لولا استنفار رجالى ، ومحافظتهم على الأمن والأرواح ..

ثانيا : إطلاقه منادين لا يعرفهم أحد ، لم أراجع النداءات ، لم أرتبها ولم أطلقها الوجهة المقصودة ، ولست بحاجة إلى سرد دلالات هذا الأمر الخطير ..

ثالثا : إذعانه ، تلويحه بقرب قيامه بانشاء فرقة خاصة من البصاصين تتبعه ، يشرف عليها بنفسه ، وتأكد لى هذا بعد اطلاعى على مكاتبات نوابى التى لا تخطىء ، والتى ترصد حياة الزينى منذ نشأته حتى الآن ، كل ما يدور عنه ، وقصدى من هذا سلامة الأحوال ، ولا يسعنى إلا التنبيه بما يصبح عليه الحال لو أن كل موظف ، كبيرا كان أو صغيرا ، أنشأ له فرقة من البصاصين ، يوجهها كيفما شاء بلا رقيب أو سلطان ، وأنا لن أسمح أبدا بهذا ، وسأحول دونه .. فأنا ورجالى فقط عينا السلطان وأذناه .

رابعا : تفيد التقارير أن العامة بدأت عيونهم تتفتح على الأمراء ، كل منهم يقول لماذا لا ينزلون أو يخطبون فينا ، أم هم أقل شأنا من الرجل الطيب الزينى بركات ؟؟

وبعد ، فلا أطلب منكم إلا تبصر الأمور ، وإلا سارت بعكس ما نهدف وما نبتغى ، واضطرب النظام وضاع الأمن ، وراح السلام .

واشهد اللّه ربى ، كاشفا الغيوب ، على صحة ما أقول .

« عاشر شوال ٩١٢ هجرية »

« كبير بصاصى السلطنة »

الشهاب

زكريا بن راضى

السرادق الثاني

شروق نجم الزيني بركات ، وثبات أمره ، وطلوع سعده ، واتساع حظه

نـــــــداء

يا أهالى القاهرة

أمر مولانا السلطان

بتسليم المجرم ابن المجرم

على بن أبى الجود

إلى ناظر الحسبة الشريفة

الزينى بركات بن موسى

ليتولى أمره

ويأخذ حقوق الناس منه

ويذيقه ما أذاق لعباد اللّه الفقراء

المساكين الأولياء

يا أهــالى مصــر

يا أهــالى مصــر

كل من وقعت عليه مظلمة

كل من سلبت منه حاجة

كل من راح ماله بالباطل
بسبب على بن أبى الجود
عليه التوجه إلى باب
الزينى بركات بن موسى
ناظر حسبة القاهرة ، والوجه القبلى
ليرد عليه حقه وماله
ياأهـالى مصـر ..
يا أهـالى مصـر ..

سعيد الجهينى :

طال به حب هذا البيت وأهله ، حجارته ، أخشاب مشربياته ، نقوش جدرانه ، الضوء فى فراغه ، قاعة تلاوة القرآن فى رمضان ، عالية السقف، قرب منتصف الجدران نوافذ ضيقة ، يطل من ورائها الحريم ، يستمعن إلى الآيات البينات ، آمنات عيون الغرباء ، من إحدى النوافذ تطل ، ترقبه ، تتأمله ، عيناه تحتويان قطع الرخام الصغيرة الملونة ترصع أرضية النافورة التى تتوسط حديقة البيت الصغيرة ، الحشايا الوثيرة التى تحول بين صلابة الجدران ورقة بدنها ، سماح تطأ الممرات بقدميها عندما يخلو البيت من الزوار ، راحة خفيفة فى صدر سعيد ، لا يعد هنا من الغرباء ، لحظات إصغائه إلى الشيخ ريحان ، يراها بعينى قلبه ، تروح وتجىء فى إحدى الغرف ، تنظر من نافذة ، تضطجع إلى حشية ، وسادة ، منذ سبعة شهور، ثالث أيام عيد الفطر جاءت ، مال رأسه ، مثقل بحيرة ، بخجل ، باضطراب، احتوى راحة يدها الصغيرة الدقيقة ، رعشات الأمل فى قلوب المنتظرين ليلة السابع والعشرين من رمضان ، همسات نهار وليد ، آه من ذوبان الوجد ، لا يراها جسدا ونهدين ، ونحرا وجيدا وعنقا ، هى إلى الروح أقرب ، طيف خيال ، وشوشة لا تمس ، سوسنة لا تقطف ، عينا ملاح فيهما حيرة ، فى الطريق يرى الحريم ، متشحات ، سافرات بلا براقع يجردهن فى عقله من ثيابهن ، قطعة قطعة ، تستند أمامه بظهرها إلى حشية ليست مكسوة بحرير، كلما جرد الواحدة منهن ، عاد يكسوها ، برفق ، بأناة ، بأصابع ترعشها نار الرغبة يسحبها ، يبدو لحم الذراعين ، تكور النهدين ، ثم انبساط لحم البطن ، يتوه عندئذ بنظراته فى الفراغ ، يروح بخياله إلى بيت « أنس » ، يقصده أصحابه المجاورون الذين يجرى المال ميسورا بين أصابعهم ، يقال إنه يحوى قاعة فسيحة تمتلىء على آخرها بحبشيات وروميات ، قيل إنه توجد هنديات ، فى العام الماضى جاءه مال بعد نسخه كتابا فى المنطق لأحد مشايخ الصعيد ، ألح أصحابه فى الذهاب إلى بيت «أنس » ، عصر أصابعه ، هز رأسه مرات ، رفض ، لا يدرى ما الذى دفعه

إلى الرفض ؟؟ يعرفه الطلبة المجاورون ، أهالى الربوع والحارات فى الباطنية طيبا ، رقيقا، متدينا ، يسرع إلى نجدة من تضيق به الأحوال ، يسعى لتخليص امرأة من يدى مملوك يبغى اختطافها ، يزعق مناديا الطلبة، الأزهريين ، مهيجا الرجال ، يلتفون حول المملوك ، يقول عامة الناس، لو أوتى سعيد قوة قرقماس المصارع لما جرؤ مملوك على اختطاف قشرة حبة فول من سلة تحملها طفلة ، لكن الله خلقه ضئيل الحجم ، كثير الأمراض ، إذ يرقد فوق حشيته القديمة بالرواق ، يتوافد إليه الناس على اختلاف أصنافهم يسألون عنه ، ماذا لو عرفوا ارتياده بيت « أنس » ، دفعه دراهم ليمتلك امرأة بعض الوقت ..

« لا يتعارض هذا مع ذاك يا سعيد .. »

ينفى الخاطر والفكرة ، تحوم سماح من بعيد فى عقله ، سره الدفين الذى أقام عليه أرصادا دونها أرصاد ، لا يمكنه رؤيتها بعينى عقله عارية ، أو تقف فى حمام ، كل ما ترتديه قبقاب خشبى عال يمنع عن باطن قدميها الماء القذر ، سماح خلاصة نساء الأرض أجمعين ، منها تفرعن ، عنها أخذن ، إليها يعدن ، فى المستقبل البعيد لا يراها إلا معه ، ينظران معا من طاقة مشربية ، يمشيان فى حديقة ، يسافران بلدا ، منذ أيام يشتد البرد ، فى البرد يرى سماح موطنا ينبع دفئا وسلاما .

قال الشيخ ريحان :

« هيا بنا إلى الغرفة العلوية .. »

طلع سلم البيت الداخلى ، كأن لأنفاسها أثرا تعلق فى الهواء ، تجسد إلى أبد ، خاف أن يسمع الشيخ ريحان دقات قلبه ، يرى ارتجاج أمره واضطراب لونه ، يتربع الشيخ فوق وسادة خضراء كبيرة ، ينفث الدخان هادئا ، تقرقر النرجيلة ، قام نصف قومة ، مال عليه سعيد ..

« شتاء العام لم نر منه بردا بعد .. »

« ليس باردا كالسنين الماضية .. لكنه فى الرواق لا يطاق .. »

تتوهج الحجرات ، يسقط شيء ما فى البيت ، ربما وعاء ، علبة تمسكها ، الليل هنا ناعم فيه هدوء البيت ، وأمن عائلى ..

كاد مماليك طشتمر يطفشون فى الناس اليوم .. لولا خروجنا من الأزهر والوقوف بينهم وبين الناس ..

« ياه .. لم أسمع بهذا فأنا لم أخرج طوال النهار .. تقول مماليك من ؟؟ » طشتمر ..

« غريب .. كان هادئاً ومماليكه لا بأس بهم .. ما الذى غيره ؟؟ »

« أبدا .. كان الأمير خاير بك حط فى حقه كلاما عند السلطان .. وأشيع أن السلطان ينوى اعتقاله .. »

« يا سلام .. طول عمره طشتمر متهور .. متهور .. لا يسمع الكلام أبدا .. »

هنا يصمت سعيد ، يبدو الأمر مسليا ، لكنه يبرره ، يبحث فيه عن فضيلة ما لأنه صادر عن والد سماح ، دائما لا يجيء اسم أمير ، موظف عظيم إلا يسارع قائلا ومؤكدا بوجود رابطة قوية بينهما ، أحيانا يؤكد سعيد ما يقوله الرجل بسؤال أو استفسار ، كأن يقول منذ متى تعرف طشتمر يا عمى ؟؟ هنا يتراجع الشيخ ريحان إلى الوراء ، يزعق مناديا الخادم ليحضر جمرات للنرجيلة « ياسلام .. طشتمر ربيته أنا على يدى .. كان يجيء هنا عندى وقت أن كان مملوكا ضعيفا ، عرفته قبل زواجه بخوند زينب امرأته الأولى » ، سعيد لا يعرف أحقا تدعى امرأة طشتمر خوند زينب ، أو لا ؟؟ إنما يقول : « أظن طشتمر والأمير ملكتمر الساقى من .. » لا يدعه الشيخ يتمم كلامه ، يسارع قائلا ، « ملكتمر هو الذى أنصفنى على موسى بن أسحق عند اختلافى معه فى بعض أمور بيت المال.. استدعانى ملكتمر فى منتصف الليل تماما ، أى والله منتصف الليل،

طلعت إليه فى القلعة نفسها ، أنا ذهبت إلى القلعة مرات ومرات هذا لم يتفق لأحد غيرى ، المهم أنه قبّل يدى ، أى والله ملكتمر قبّل يدى فأنا أكبر منه سنا قال .. إنه يعرفنى صالحا تقيا ، لهذا سيلغى أمر موسى بن اسحق تماما ، وأذكر انه ربت بيده على كتفى .. فأمسكت ذراعه .. بالضبط يا سعيد يا ولدى أمسكت بذراعه .. »

« وعندما جاء الزينى بركات بنفسه تفرق مماليك طشتمر .. بل قبض على أربعة منهم وأرسلهم إلى المقشرة » .

« الزينى .. بركات .. آه .. كان المفروض أن أزوره منذ يومين ..»

« الزينى بركات أرسل إليك ياعمى ؟؟ »

ياه ، تسرع سعيد بالسؤال ، فى كل مرة يسكت ، لماذا الآن لماذا الآن بالذات ؟؟

« الزينى صاحبى .. كان المفروض أن أزوره لولا صحتى التى لا تساعدنى » .

« قواك الله .. »

« أى زينى يا ولدى .. أمثاله كانوا لا يدخلون على إلا بصعوبة ، يسعون فى ركابى .. ألا قل لى .. هل الناس راضية عنه ؟؟ »

« جدا »

« أعرفه .. فهو عادل وأهم ما فيه أنه عاقل .. عاقل جدا ، ما آخر أخباره ؟؟ »

« لم نعد نرى المنادين التابعين لزكريا .. »

« زكريا بن راضى .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. أخفض حسك يا ولدى .. ربما سمعنا .. »

الآن ، تنسال مرارة فى حلق سعيد ، أى طالب مجاور لا يجرؤ على لعنه ، سعيد يلعنه فى سره ، يعرف امتداد ظله بين الأروقة والحجرات ، إلى محراب المسجد ، تحت حصير الجوامع ، غرف النوم فى البيوت ، يقول عنه الشيخ أبو السعود ، هذا من علامات الساعة ، لابد من بقائه فوق الدنيا ممثلا لإبليس حتى يتعذب الخلق أضعافا مضاعفة ، وقتها تضايق سعيد من كلام الشيخ أبو السعود ، ربما يقول هذا لعجزه عن الإمساك بزكريا بن راضى ، باستطاعة الشيخ أن يفعل ، لا يحاجه إنسان ، لكن أين زكريا ليمسكه ، لم يره أحد ، يقال إنه يقيم فى أكثر من مكان ، لا يدرى أحد عمره الحقيقى ، يعرف الناس مقره الأصلى ، بعيدا تحت جبل المقطم حيث يتهامس البعض بسماعهم صرخات بشر يجلدون ، تحرق أطرافهم ، يخوزقون ، لكن هل يقيم زكريا هناك فعلا ، يقول إنه ينام كل ليلة فى مكان مغاير ، إن وجهه لم يره إنسان ، حتى الشيخ أبو السعود ، مرة ضاق سعيد بنفسه حتى بعد اختفاء ثلاثة مجاورين نوبيين ، دائما يعيشون معا ، يقرأون فى مصحف واحد ، يأكلون فى قصعة واحدة ، ينامون ملتصقين ببعضهم حتى تراهم فتظنهم شخصا بعينه ، هكذا تعودوا ، بين الحين والآخر ، يختفى مجاور أو طالب ، أحد العامة من السوق ، لا يدرى أحد عنه شيئا ، يترك ذهابه خوفا وعكارة فى النفوس ، من يدرى ، ربما جاء الدور على هذا أو ذاك غدا ، عند اقتراب الأثر الذى أحدثه الاختفاء من الزوال ، يضيع إنسان من جديد ، ترتجف القلوب ، سعيد لم يطق نفسه عند ذهاب النوبيين ، تمنى لو زعق محرضا الأرض والنجوم والكواكب ، يوقظ الأحاسيس فى الجماد ، يومها قطع الطريق جريا إلى كوم الجارح ، أصغى إليه الشيخ قال « أحقا سبوا زكريا .. هكذا سمعت » سعيد لا يدرى، دائما يتحدثون لغتهم الغريبة ، لغة لا يفهمها أحد ، كيف وصل الأمر إلى زكريا إذن ، كيف ؟ يقول العامة ، لدى الشيخ أبو السعود خاتم عليه رسم سيدنا سليمان ، يمكنه فك طلاسم الجان وتسخيرهم لأغراض

الإنسان ، يمكن للشيخ أن يحمل زكريا بن راضى إلى جبال واق الواق ، لا يرجع أبدا ، لو شرع فى العودة فسيقطع المسافة فى ألف ألف سنة ، سعيد لم يقل هذا للشيخ ، يعرف غضبه وهياجه إذ تنسب إليه الخوارق ، فى المساء خجل من روحه ، كل أمر يطلب تحقيقه من الشيخ ، تلا سعيد «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

« ابق لتأكل معنا » .

يحن إلى مذاق طعام بيتى ، مرق تشرب منه سماح فى الليلة نفسها ، ملعقة ربما لامست شفتيها ، لكن كربا يؤرقه ، لا يطيق بقاءه فى مكان واحد ، الشيخ لم يلح ، دس سعيد قدميه فى نعليه ، يعبر الممرات الصغيرة فى الحديقة بمفرده ، يهم برفع عينيه ، لو أنها تنظر الآن ، لو يراها مقدار ساعة ، يقضى والله عمره متنقلا فوق مآذن الدنيا ، زاعقا باسمها فى وجه السماء ، معلنا ما يتقلب فى صدره ، يعبر البلاد كما اجتازها مولاه ، زاده عيناها ، آه لو تصغى إليه ، آه لو يركبان فى زورق عبر النيل ، أياديهما فى التيار ، تنثر رذاذا أبيض ، يراها فى مدينة لم تعرف الطواعين لا يموت الإنسان فجأة فى عرض الطريق ، لا يتوجع امرؤ لخطف ابنته ، لا يساق الفقراء إلى الجب ، إلى المقشرة ، لا تقضى أعمار فى سجن العرقانة ، لا تنزع يد من جسم لأنها سرقت خيارة ، سماح تطل على طريق لم يجس فيه احد ، يحتضنها بذراعه . يضحكان ، تمضغ لبانا جاءها من العجم ، فى عزلته الليلية ، بعد نوم صحبه فى الرواق ، تجيئه سماح ، همسة دفء يجود بها برد ضنين ، رعشة ريح باردة فى قيظ صيف عفى يخنق الأنفاس، لا يذكر لون شعرها ، لكنها أمل النجاة من دهر بأكمله ، ها هى ذى الحوارى تثقل عليه ، جمال مثقلة بالدريس ، إلى أين ؟ أى مكان يحتويه؟ يمكن الذهاب إلى الحمزاوى ، العطارين ، يخجل من المجاملة والتحيات ، يعرفونه ، الآن لا يطيق البقاء فى الرواق حتى الصباح ، فراغ خانق لو بقى وتناول العشاء ، لكنه أكل مرتين فى أسبوع واحد ،

يجب ألا يثقل عليه ، ربما أصبح موضوع حديث بينها وبين أمها ، مجرد تخيله ما يقال يرجفه خجلا ، هل يذهب إلى دكان « حمزة » يشرب الحلبة المطحونة المخلوطة بالسمسم والحليب ، يبادل الخلق أحاديثهم ، يستقصى حديث الهموم ، دكان « حمزة » يمتلىء بعد العشاء ، بمدخنى الحشيش ، ربما قال الناس ، انظروا تلميذ أبى السعود ينسطل ليعرف كيف يصلى الفجر ، إلى أين إذن ، يجب استقراره فى مكان ، لو تكرر مروره فى نقطة معينة بالطريق يرصده البصاصون ، يصل اسمه إلى زكريا ، يوقن من وصول اسمه يوما ما ، يريد تأجيل هذا الوقت إلى حدث يستحق طلوع اسمه هناك ، من يدرى ؟ ربما مئات الصفحات عنه أمام زكريا ؟ هل يغفل رجاله عن سعيد ، عموما زكريا لا يملأ كل شىء كالعادة ، هذا ما يحسه سعيد ، لم يخبره أحد ، لم يطلعه كبير على سره ، إنما هو واقع أقرب إلى الوعى والإدراك ، لأول مرة يطوف منادون فى طرقات القاهرة لا يتبعون زكريا ، قلة فقط يعلمون بتبعية كافة المنادين لنقيب البصاصين ، بل إن الشعراء فى المقاهى وأرباب المغانى والطرب ، أصحاب فنون الرقص ، الحواة ، وعاظ المساجد ، يخضعون بشكل أو بآخر إلى نقابة البصاصين ، من هنا يعى سعيد حقيقة مرور منادين يرتدون سروالا أزرق وقميصا أخضر حوافه محلاة بالقصب ، زى جديد يعلن تبعيتهم لناظر الحسبة نفسه ، لم يكتف الزينى بهذا ، إنما رتب مرورهم ، أول النهار ، بعد الغداء قبيل المغرب ، قبيل العشاء ، ينطلقون بلا حرس ، كل ما بأيديهم عصا قصيرة ، يقرعون بها طبلة صغيرة ، ينقلون إلى الناس ما استجده الزينى من أمور ، يحرضون الناس على كشف كل غشاش لئيم ، عندما استمع سعيد إلى هذا النداء بالذات تردد فى قبوله وانتابه شك ، لو تاجر كبير، قريب لوزير أو أمير ، قريب الزينى نفسه ؟؟ هل يجرى عليه ما جرى للآخرين ،لم يحدث هذا ولو حدث لبدا أمرا عجيبا ، بعد النداء بأيام ثلاثة ، سمع سعيد ضجة، تجمع الناس حول مناد يرتدى الثياب الجديدة ، ما الأمر؟؟ ترزى من ناحية المغربلين ، ليس خياطا صغير الشأن ، يفصل الفرجيات والقفاطين للأمراء، لأرباب الدولة ، تجاوز الأربعين لكن الله ابتلاه

بداء مكين ، وأثناء مشيه فى سوق الخيامية ، أعجبه غلام صغير ، قال للغلام ما اسمك يا شاطر ؟ قال اسمى كمال ، قال تعال آخذك إلى أبيك فى الجامع لأنه ينتظرك هناك وسأشترى لك سنبوسك ، غير أن اللعين ساقه إلى خرابة قديمة وراء الجامع الأزرق ، مال عليه ، لم يحتمله الغلام فانفرز من ثلاث جهات . وذهب إلى أبيه يصيح غارقا فى دمه ، طلع الرجل إلى الزينى باكيا ، أمر الزينى بإحضار الترزى ، سأل الغلام ، أهذا هو الرجل ؟ فأومأ الطفل باكيا ، زعق الرجل ، الولد كذاب ، فضربه الزينى على وجهه ، قال : الأطفال لا يكذبون . أمر بشهره على حمار فى القاهرة كلها ، وسجنه بالعرقانة ، حتى يكون من أمره ما يكون ، طلع على الزينى بعض المشايخ قالوا ، ما جرى يحدث كل يوم ، مالوا فى كلامهم . لم يصرحوا ، إنما لمحوا ، الرجل يعرف بعض الأمراء ممن يترددون عليه ، وهؤلاء ربما .. يعنى .. ربما ، قيل إن الزينى قام واقفاً ، نتر فيهم ، أمر بإخراجهم ، قال لن تحدث فاحشة فى زمنى أبدا ، أنا ما أخشى إلا هو ، أشار بإصبعه إلى السماء ، قيل بين العامة ، إنه يضربهم على أكتافهم بمقرعة مقبضها عاجى، مزخرف ، بذهب ، زعق كيف تلقون ربكم يوم القيامة ؟ سعيد خشى على الزينى ، خاصة أن على بن أبى الجود الذى تسلمه منذ عشرين يوما ، لم يعلن المنادى خبرا عن اكتشافه المال المخبأ ، ما يهم السلطان المال ، ربما وجد زكريا الفرصة ليوغر صدر السلطان ، عندئذ يقيل الزينى من الحسبة ، الوقيعة الدائرة الآن بين طشتمر وخاير بك ربما غطت بعض الوقت ، لكن .. ما هذا ؟ أيقلق سعيد من أجل الزينى ؟ أيتمنى سعيد وقوع العذاب بعلى بن أبى الجود ؟ ليفشى سر المخبأ من ثرواته ، أيرجو العذاب لإنسان ما ؟ حتى على بن أبى الجود ، طبعا ، وكم إنسانا عانى ما عانى منه ؟ كم ؟ ثم ألن يوقع به الله عذابا أشد وأنكى يوم القيامة ؟ لا ينكر سعيد قرب الزينى من روحه ، عندما اقترب لإبلاغه طلب الشيخ أبو السعود، كان الوقت ليلا ، خرج إليه الزينى ملثما . عمامته صغيرة ، ثيابه عادية شأن فقراء المتصوفة . مشيا صامتين . ينظر إليه

سعيد من طرف خفى . رائحة ثيابه تدفع إليه ذكرى بعيدة لخاله فى قرية نزة ، الصوف الممتزج بعرق الرجولة ، رغبة راودته . لو يراه بعض أصحابه يمشى مع رجل يذكره كل لسان فى القاهرة اليوم كله . فى أى الملامح يكمن الإباء ؟ القدرة على رفض منصب كبير ؟ كل من صدر مرسوم بتوليه وظيفة من وظائف على بن أبى الجود انتابته فرحة . بقوا فى بيوتهم يتلقون المهنئين ، أما بركات بن موسى المرشح لأخطر وظيفة . رفض. يندر الرفض فى زمن بخيل بكل ما يحلم به المرء ، بعد سكوت قال سعيد « أمرنى ألا أرجع إلا معك » . لفتة منه وهزة رأس . خجل سعيد . ربما يفكر فى أمور خطيرة . فجأة قال « مولانا لا يمكننى أن أعصى له أمرا » وتتابعت أسئلة الزينى . أخبره سعيد بأمره كيف جاء من البلدة . كيف التقى بمولاه ، تردده عليه ، رفقته له ، أخذه العلم عنه ، بقاؤه عنده طوال وقته ، الآن يذكر أسئلة الزينى، ثم صمته المفاجىء لا يدرى سعيد ما يجرى بينهما . أمره الشيخ بالعودة إلى الأزهر . من يومها لم يقترب سعيد من الزينى . فيما عدا موكب عودته من الأزهر . لكنه مشى منفردا بين الخلق . لا يدرى الزينى بوجوده ، لا يصغى إليه . آخر المنادين طاف منذ ساعتين ، لا يدرى ما قاله للناس . فى الأسبوعين الأولين يتجمع الناس بقصد الفرجة والاستماع إلى ما يقولون . بمرور الأيام خف زحامهم ، أما الأطفال فلا يفارقونهم . الآن . يقف سعيد فجأة يبدو أنه اقترب من حارة قصر الشوق . رجل يمضى مسرعا . أليس هو ؟ لماذا توقف . تجمد . أى حيرة انتابته . لايذكر طول القامة . يذكره ممتلئا ونحيلا . معتدلا وذا حدبة. لا تثبت صورته فى الذهن . إنما هذا الماشى هناك . هو هو بعينه . اجتاز حارة بيت المال . يمضى طريق إلى حارة بيت القاضى . آخر إلى مسجد الشهيد الحسين . اختفى . لكن أين الحرس . كيف يأمن على روحه ؟ وإذا كان هو الزينى بنفسه . هل رآه .. هل عرفه ؟

* * *

نـــداء

يا أهالى مصــر
نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر
اليوم ..
خرج السلطان إلى الريدانية
بدأ لعب الكرة ، وكله عافية
أمده اللّه بالصحة والقوة
يا أهــالى مصــر
ما زالت الوحشة والقطيعة مستمرة
بين الأمير طشتمر والأمير خاير بك
وكل منهم مترصد للآخر .. فانتبهوا ..
يا أهــالى مصــر ..
العطار صابر بن الحمزاوى غش فى الميزان
وباع الحلبة مخلوطة بالتراب الناعم
غش المغات ، ودس السقنقور الهندى
وعنده منه الكثير ، حتى يغلو ثمنه
لأنه الوحيد تاجر السقنقور
رأى الزينى بركات بن موسى ..
ناظر حسبة القاهرة ، والوجه القبلى
منفذ تعاليم الشريعة ، وحافظ حقوق الناس
وخادم السلطان
بتغريمه مائة دينار
والحوطة على مخزونه من السقنقور

وتوزيعه على سائر العطارين

لينتفع به المخاليق ، وتسعيره بثلاثة دراهم للواحد

والله منتقم من كل غشاش لئيم

اتعظوا

ياأهـالى مصـر

يا أهـالى مصـر

* * *

زكريا بن راضى :

صباح الثلاثاء سابع ذى القعدة ٩١٢ هجرية

يخلو إلى نفسه تماما إذ يتأمل طفلا ، يداعبه ، رقة العمر الأول ، ريش العصافير وسخونة جلدها الرهيف ، لو يبقى الإنسان طفلا إلى الأبد ، يحرك اليدين كما يشاء ، يضحك فى كل اتجاه ، يحبو ، يعبث ، يبكى فتهرع نفس حانية تجفف الدمعات ، الأوهام والمخاوف لا تتخذ من قلبه الصغير خانا أبديا ، يرى الدنيا بعينى الدهشة والتساؤل ، محال هجرة زكريا عبر الأزمان قاصدا بداية سنينه . أحيانا يوقن أنه لن يمر بمثله أبدا. لا يذكر يدا ملست عليه . أصعب الظروف لم تمنعه من رؤية ابنه الأول والأخير حتى الآن . يس . يجيئه ملفوفا فى قماط قطيفة سوداء مطرز بذهب، يحمله، أمه زينب ترقبهما ، تحكى أخبار يس . كم مرة أرضعته . ابتسامته الهادئة عندما راح فى نومه . إذ يستيقظ كأن عينيه تبحثان عن الغالى أبيه . تعثره فى الحروف . تطيل الحديث . يس هو ما يقربها إلى الرجل . تتباهى وتعلو على بقية حريمه وجواريه . لم ينجب منهن . أما هى فولدت له يس . تتجاهل أحمد الذى جاء منذ أربع سنوات . ذهب بعد شهور . أمه الحبشية لا تزال تقيم فى البيت . مجهولة لا يعرفها أحد ، لسعة حزن حارقة تغشى قلب زكريا بين الحين والحين ، لم تطفئها السنون. تخفف حدتها . أشد الظروف فظاعة لم تعطله عن لحظات يمضى فيها إلى يس ربما يوقظه آخرالليل برغم تحذيرات أمه . يلاعبه . يناغشه . من شهور أمسكوا فى خان الخليلى تاجرا روميا قيل إنه يكاتب ابن عثمان بأخبار الدولة أمسكه رجال زكريا . راقب عقابه بنفسه . تعصير أكعابه . حرق جلد ظهره بنار هادئة .. ومبروك قائم على تعذيبه بهمة عالية ، بإخلاص وتفان . نزل الصمت كالجثة على بقية المحابيس فى حفرهم . وهم يصغون إلى صرخات الرجل التى لا تنفذ إلى الفراغ الخارجى أبدا .

يعرف زكريا أى رعب يتملكهم . ما يقع فى أرواحهم من رعب والآلام عند سماعهم أوجاع إنسان آخر يجهلون منه الاسم حتى ، أكثر مما انتزعت أسنان الواحد منهم بكماشة محماة ، خاصة حديثى العهد منهم بالحبس ، من يدرى ، ربما جرى عليهم ما يجرى على المنكوب الرومى ، طال صمته ، لم ير زكريا إلا تقلص وجهه ، جحوظ عينيه وتضخم أنفه ، تدلى فكه ، لكنه لم يفه حرفا ، ما أغاظ زكريا ، ما كاده ، تأكده من وجود شركاء للرجل ، بعد مرور نهار بأكمله ، أمسك زكريا بسيخ رفيع طويل كالإبرة محمى ببطء، على مهل راح يدفعه فى بطن الرومى ، حول سرته ، زكريا يختنق بدخان اللحم المحترق ، خرج ، نفذ الهواء من أنفه كما يتجرع الماء ، عبر الفناء إلى جناح حريمه ، طلع السلم المؤدى إلى غرفة زينب ، سأل : هل نام ؟ أومأت .. نعم ، قال : أريد رؤيته ، بالتأكيد غمرتها خيبة أمل ، تأمل قضاء الليل معه ، بقاءه عندها حتى الصباح ، لن يكتمل تظاهرها على بقية الحريم إلا بنجاحها فى استبقائه الليلة كلها ، طلب رؤية يس مرة أخرى ، قالت .. نائم منذ فترة يا سيدى ، قال بصوت أجوف أرعشها خوفا أنا لم أقل صحيه .. مشيت أمامه ، بين الحشايا رق وجه الطفل مستديرا مغمض العينين ، قمر بين غمام ، بشرة تفاحة ملساء ، قماش حريرى يشف عن ملامحه ، قرب الشمعدان منه ، تمايل الضوء ، بقى مقدارا من الزمان ، يرحل وجه الرومى مبتعدا ، قالت المرأة : هل أخلع القفطان يا سيدى ؟ اعتدل فجأة ، لم ينظر إليها إنما مضى إلى الباب ، تقارير اليوم لم يراجعها ، ثمة ما يجب رفعه إلى السلطان بخصوص الرومى ، أسرعت خلفه ، خيبة أمل لا تخجل من التوارى فى صوتها .

الآن ، ينزل زكريا السلم الطويل إلى حوش البيت ، ينفذ الريحان إلى صدره ، وشيش سعف النخل ، أشجار غريبة أرسلها إليه كبار البصاصين فى الهند ، فى اليمن ، فى الحبشة ، فى ركن الحديقة الأيمن ، زهور صفراء قليلة ، لا ينسى إحداها ، همسة تجسدت زهرة ، رقيقة صفراء ، حوافها بنفسجية ، قلبها أحمر قان ، به ثلاث ذرات من لون أخضر قاتم ،

رآها تتفتح أمامه ، شهد إطلالها على العالم أمام عينيه ، يذكر المنظر متعجبا ، في الحديقة أقفاص صغيرة تضم عصافير غريبة الخلقة ، صياح بعضها غريب ، الآن لا همس لها ، في الشتاء يرى عصافير طليقة ، أخبره علماء الطير أنها تجيء من بعيد ، من بلاد ليلها ستة شهور ونهارها ستة شهور ، تذهب مع الشتاء يجيء الصيف منها ، زكريا يؤرخ اليوم الذى فيه أول العصافير في حديقته ، يتساءل ، أهذه العصفورة بعينها هي التي جاءت في العام المنقضي ، كم تعيش إذا لم تغتلها يد صياد ؟ تموت موتا طبيعيا ، أمثل هذه المخلوقات يموت ؟ فكر في إطلاق المنادين ليأمروا الناس بالكف عن صيد العصافير لكنه تراجع ، ربما ظن بعض الأمراء الظنون ، ربما قوبل أمره باستخفاف ، هل خلت دنيا زكريا من المشاغل تماما حتى يأمر بالكف عن صيد الطيور ، في الأيام الأخيرة يكثر من تأمل عصافيره حبيسة الأقفاص ، مداعبة يس ، لكن ضيقا وقلقا يزحم صدره ، يضيق عليه ، لولا الطيور ويس ، الخروج بين الحين والحين متخفيا ، سفره إلى إقطاعه في سرياقوس ربما طق له عرق من الغضب ، لكن صبرا ، مثل هذه الظروف تتطلب ليونة وباسا ، لم يصله رد الزيني ، حتى شك في وصول الخطاب ، لكنه استوثق من وصوله بين يدى الزيني نفسه ، تعب جدا حتى تأكد من وصول الرسالة ، ما من بصاص واحد يتبعه يعمل في بيت الزيني ، ومقدم بصاصي القاهرة لم يهتم بدفع بصاص إلى بيت الزيني من قبل ، فلم يكن به شأن يذكر ولا حس يسمع ، وعد بإدخال عين إلى البيت ، حتى خدم الزيني لم يعرف واحدا منهم . كأنه أحضرهم من بلد غير البلد ، بينما واصل المقدم إطلاق عيونه في إثر هذه المرأة التي طلعت يوم موكب الزيني ، زعقت في وجهه .. يا لئيم .. إذن هي تعرفه ، ربما أدى الإيقاع بها إلى كشف المستور من سيرة الزيني ، قال المقدم في أول تقاريره ، هي امرأة بلا أهل ، سكان بين السيارج وشارع أمير الجيوش وباب الشعرية ، يعرفونها ، يرونها أحيانا منذ صغرهم ، لا يعرف بيت لها ، قيل انها تنام في أحواش الموتى خارج باب النصر ، واسمها أم

سهير ، وقال آخرون بل اسمها « مسكة » وليس لها بنت اسمها سهير ، وحدث أن شتمت الزيني في شارع الصليبة مرتين ، وفي شارع المعز ولكنها لم تظهر كأن الأرض انشقت ، ابتلعتها وقيل في تقرير بصاص موثوق به مكين ، إن رجلا عجوزا يجلس بجوار سبيل بشتاك دائما، معصوب العينين ، حدث فقال : هذه المرأة تذهب إلى الزيني بركات بن موسى ، تعانقه ، يتبادلان البكاء ، تحتضن رأسه بين يديها ، تناجيه بأرق الألفاظ ، ثم تخبره بالأمور المقبلة القادمة وكل ما حدث له وما يدبر ضده ، قال العجوز إنها تخاوى عددا من الجان يخدمونها ، ويأتونها بصادق النبوءات ، أما من هى ، فلا يعرف العجوز ، متى تخلو إلى الزيني، لا يعلم، لماذا زعقت في وجهه أمام الخلق ، فهذا ما لن يطلع عليه مخلوق ، وألمح العجوز إلى احتمال قيام صلات خفية بين الزيني وعالم الجن ، الزيني تجاهل الخطاب ، كأنه لم يقرأه ، لم يطلع عليه ، شهاب الحلبي سأل منذ أيام ، هل وصل رد من الزيني ، زعق زكريا في وجهه ، ثار، منذ متى تسأل عن رد خطاب كلفتك بكتابته ؟ أهذا ما علمته لكم ؟ أتعرفون ما عاقبة الثرثرة الكاذبة ؟ عاقبة الفضول ، الكلمة التي تخطها يجب أن تنساها ، ارتعب شهاب الحلبي ، أشد ما يخشاه غضب زكريا ، الأدهى من ذلك ، لو ظن شيئا من وراء السؤال ، ربما ارتاب ، هنا لا يدري شهاب الحلبي ما قد يفعل به ، عمله الطويل لا يغفر له أي زلة مقصودة أو غير مقصودة ، دائما يردد زكريا على مسمعه قصة نائب كبير البصاصين العثماني الذي وصل إلى أعلى مراتب دولة البصاصة في دولة ابن عثمان ثم اكتشف أمره بعد العديد من السنين ، لم يكن إلا بصاصا وثيق الصلة بدولة الشاه إسماعيل الصوفي ، ألد أعداء الخنكار ، شهاب الحلبي حريص دائما على حركاته وسكناته ، ليس هو فقط إنما أي إنسان يعمل في ديوان البصاصين ، زكريا تعجب لحدة غضبه ، لكن تأخر الزيني يضايقه ، سؤال شهاب الحلبي نغزه ، كل يوم يقول ، ربما أجاب الليلة ، غدا ، لكن الزيني تمادى في غيه ، الأمير الجمدار هز رأسه ، قال ، السلطان يوافق الزيني على كل

كبيرة وصغيرة ، الزينى يطلع إلى السلطان كل ليلة ، يخلو به مقدار ساعة، لا يطلع إنسان على ما يدور بينهما ، زكريا يواجه ظروفا لم يعرفها أحد أسلافه ، ربما يرد اسمه فى هذه الخلوات ، ربما تدبر له الملاعيب ، عاوده انزعاج لیلة وصول تقرير يؤكد استمرار الزينى فى إقامة فرقة بصاصين خاصة به ، الأمير منكلى بغا - وهو قريب الصلة من زكريا - ألح فى لقائه مع الزينى إلى أن الأصول تقضى بوجود فرقة بصاصين واحدة فى السلطنة كلها ، وأن يتبع زكريا بن راضى المحتسب كما هو متبع ، لكن الزينى هز رأسه ، قال لا أطمئن إلا لرجالى ، أن توجد فرقة بصاصين أخرى، فهذا ما يقلق زكريا ، ربما تسرب أحد إلى بيته ، إلى ديوان السر، أصدر أوامر مشددة إلى مقدم بصاصى القاهرة ، إلى مقدم بصاصى الوجه القبلى ، الوجه البحرى ، مقدم البصاصين ببلاد النوبة ، أن يرصدوا ما يقيمه الزينى ، أن يتعقبوا أفراد الفرقة الجديدة ، من هم ، أين ، كيف يعملون ؟ لا تزال التقارير بخصوص هذا الموضوع باهتة، عموما لابد من العمل فى تأن ، لكن بلا توان ، لابد من حسم أمر الزينى بركات وإلا أصبح تاريخ البصاصين كله مهددا ، استدعى كبير الشعراء والمغنين فى مصر ، إبراهيم بن السكر والليمون ، إبراهيم من أخلص مستصنعيه ، يشرف على الشعراء فى المقاهى ، وأصحاب الربابة ، المنشدين فى الموالد والأذكار ، كافة ما يقولونه من المواليا والدوبيت والأرجوزات والسير ، كل ما ينشد لابد أن يقره إبراهيم بن السكر والليمون ، يحذف منه ما قد يراه مخلا بأصول الديانة والأخلاق ، ما فيه من تعريض بوجيه كبير أو أمير من أمراء الدولة ، إبراهيم يجىء إلى زكريا يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، يحكى له أخبار المغنين والمنشدين ، أحوالهم وما يدور بينهم ، وما ينتويه كل منهم . ما يشرع فيه من أمور تخصه هو أو تتعلق بالمغنى والطرب . يسخر زكريا فى سره . لا يخطر هذا ببال الزينى . يستمع الناس إلى الشعراء فى المقاهى . يرون سيف بن ذى يزن ينبش الأرض بحثا عن كتاب النيل . ترتعش القلوب حبا لذات الهمة . يتابعون أخبار البرامكة مع بنى عباس .

أبو زيد ودياب والزناتى خليفة . سليمان وكيف تحكم فى الجان . استشهاد الحبيب النجيب فى كربلاء . لا يدرى إنسان أن ثمة خيطا يربط كل أرباب المغانى والمنشدين والقصاصين فى مصر بعضهم إلى بعض . خلا زكريا إلى إبراهيم بن السكر والليمون . طلب منه إعداد حكاية تروى على الربابة. عن رجل لا أصل له ولا فصل نزل عليه الجاه فجأة ، فادعى أنه سينشر العدل بين الناس وطلب أن ينشدها الليلة أربعة منشدين فى دكان « لانضى » ، « دكان البهجوى » بالحسينية ، ودكان « يونس » بالفسطاط ، ودكان « أبو الغيط » فى بولاق ، الدكان الأول والثانى من أكبر دكاكين الحلبة والجنزبيل والنراجيل فى مصر وروادهما من ميسورى الحال ، ويبدأ شرب الكيف فيهما بعد العشاء ، أما الثالث والرابع فشأنهما ضئيل وروادهما من أسافل القوم ، جلهم من الفعلة ، بعد يومين تنتشر الحكاية فى عشرة دكاكين ، فى أحياء مختلفة من القاهرة ، نعم بعد أسبوع لتصبح حديث الناس ويمكن الاستعانة بالبصاصين المندسين بين البشر لشرح وتفسير ما تتضمنه الحكاية لو تاه مغزاها عن البلهاء ، ، غادر إبراهيم بن السكر والليمون بيت زكريا ، قام ، نزل إلى الحديقة . إنه الآن أكثر نشاطا، يفكر بسرعة و تتدافع إلى ذهنه الخواطر ، يذكر عشرات الأسماء ، المواضيع ، يضرب راحته بقبضة يده ، يميل ليشرب جرعة من ماء الورد المخفف ، يفاجأ بخواطر لم يحلم بورودها قط ، ينسى روحه تماما ، تولد مشاريع لا يمضى وقت طويل حتى تتحقق ، إنه لا يغفل التفاصيل ، أدنى ما يخص المشروع ، كافة ظروفه وأحواله ، بعد انصراف إبراهيم بلحظات ، فى غمرة نشاطه طلع إلى غرفة امرأته زينب ، احتضن يس ، رفعه ، حمله فوق كتفه ، حبا أمامه على أربع ، قلد أصوات الشاه والحمار ، كاد يرمى روحه فى الفراغ مرحا ونشوة عندما علت ضحكات يس ، ضحكات صغيرة كأنها قرقرة نرجيلة نشوى ، دخانها نعناع ، وريحان وبلسان ، فجأة أسنده إلى يدى أمه ، نزل مسرعا ، فارق ولده ، لم تندهش زينب ، تعودت منه كل غريب ، أرسل فى طلب المعلم عوض المعروف

بين العامة «بابن كيفه » لإدمانه الحشيش وطول لسانه وحبه الشديد للنكاح، جاء ، وقف صامتا ، ينتظر ما يقوله زكريا ، فهو من مستصنعيه ، زكريا سروره زائد عن الحد ، هل يدرك الزينى أن رجالا كهؤلاء رهن إشارتى ، يتبعوننى؟ ربما بدوا فى نظره تافهين لا شأن لهم ، لكن ما أعظم خدماتهم ، جاء المعلم « ابن كيفه » ضخما عريضا ، صوته كالنعير ، مع هذا بدا مرتجفا ، عندما رآه زكريا هجم عليه ، احتضنه مقبلا ، حار الرجل، أيرد القبلة أم يقف ساكتا فى حضرة كبير بصاصى السلطنة ، تردد لحظات أدرك بعدها أنه لو رد التحية الآن لبدت باردة ، أخذه زكريا ، مشيا إلى مقعد رخامى تحت نخلة عالية كسى أسفل جذوعها بألواح رقيقة من نحاس أصفر براق ، سأل زكريا عن أولاد المعلم ، وحال حريمه ، هل تصالح على امرأته الثانية التى أغضبها منذ اربعة أيام وهجرته إلى بيت أمها أم ما زالت الفرقة بينهما ، قال بسرعة ، إنه سمع بعزم المعلم على طلاقها ، هدأ صوته ، تراجع براسه، الا يوجد عندك حل غير الطلاق يا معلم ؟ أنت تعرف ، أبغض الحلال عند الله الطلاق ، لكنك لو أصررت فلا يمكننى الإشارة عليك بأمر آخر . لم يخف المعلم دهشته وخوفه أيضا . زكريا يعلم كل كبيرة وصغيرة. غرق فى خجل عندما مال عليه زكريا ضاحكا . بينى وبينك الحق عليك أنت . يا معلم أنت لا تعطيها حقها كما يجب . زوجتك الصغيرة الأخيرة أخذت وقتك كله .. لا يا معلم . لابد من العدل . العدل مطلوب هنا .. آخر مرة ذهبت إليها متى .. آه .. متى ؟ أخبرك أنا ، منذ شهرين وأسبوع ، أنت رجل تفهم الدنيا وتزنها على طرف أصبعك ، وتلقى العيب عليها ! تعاظم خجل الرجل . انقلب نعيره همسا وحشرجة . تبدو منهما كلمتان . معك حق ، معك حق ، فجأة قال زكريا : مهمة صغيرة جدا أتمنى إتمامها . غمز بعينه . فرد أصابعه ، يثنيها واحدا وراء الآخر كلما ذكر أمرا أو مطلبا ، يضيق المعلم عينيه ، يصغى ، تروح التفاتة منه هنا أو هناك ، صوت زكريا هادىء ، كأنه يطرق أى باب للحديث ، قد تهيج روحه بألف سبب وسبب ، ولكنه إذ يبدأ الحديث تصبح

لهجته منبسطة كلفظة « صباح الخير » ، حتى لو تناول أخطر الأحداث وأكثرها تعقيدا ، ما يريده الآن مجموعة أقوال وشائعات وأحاديث معينة ، تنتقل بين الناس بخفة ويسر ، أصغى المعلم ، قال « بسيطة لك على ألا أجعل حديثا على لسان الخلق إلا ما تريد» ، تضيق عينا زكريا « لو خرج ما جرى بينهما إلى مخلوق .. » يسرع المعلم جرينا فى مقاطعته .. « اشتمنى ولا تقل هذا .. » بسط زكريا يده « أعرف .. ، المهم ألا تظهر القصد فى حكايتك ورواياتك » ، ضرب المعلم صدره براحته ، « ابن كيفه يعرف شغله .. » ضحك زكريا « تعجبنى يا زينة الرجال » قال بعد لحظة « ولا تنس مراجعة نفسك فى الموضوع » تساءل المعلم ، أى موضوع ؟ ثم تدارك أمره عندما رأى الابتسامة الجانبية على شفتى زكريا ، « أى واللّه سأعمل عقلى يا شهاب .. أعرف أن أبغض الحلال عند اللّه الطلاق » .. يهز زكريا رأسه ، يقطب جبينه .. يضيق عينيه وكأن الأمر مفروغ منه « اذهب إليها بقطعة من القماش بشىء من الحلوى . النساء عقولهن كالأطفال » يؤمن المعلم على كلام زكريا . يتراجع . ينحنى محييا . يتبعه مبروك إلى خارج الحديقة . صوته العالى يجىء ملقيا بالسلام . كلما صادف بابا أو شرخا فى جدار أو نبتة زرع يلقى عليه السلام ، الآن يتضح مذاق الشتاء فى النهار ، يكسب حصى الطرقات بريقا هينا لينا خفيفا . النبات الغريب . الطيور حبيسة الأقفاص لا تكف عن أحاديثها الغامضة . فى الليل تخرس أما الآن فى النهار فتبوح . يدخل إلى غرفته فى الطابق الأول . أعدها للمقابلات . رطوبة خفية تسرى فى الحشايا الوثيرة المحشوة بريش ناعم . يحلو له أن يخلو إلى روحه هنا . تلتصق النباتات الخضراء الخصبة بالمشربية من الخارج ، حركة النبات كل ما يسمع هنا ، السقف عال منقوش بالفضة والذهب ، ونقوش أبدعها «الخسروانى الفارسى » بجواره طبق نحاس ، يقرعه بيد قصيرة من الجلد. مرة واحدة . يجيئه « مبروك » لو همس سيده باسمه يجىء فورا كأنه يقف الوقت كله منتظرا لحظات اضطجاعه إلى الوسادة عندما تدور الأسئلة

بعقله . كم عدد التقارير التى تكتب الآن لتدفع إليه ملخصة فى ورقة واحدة؟ ربما يموت إنسان فى هذه اللحظة بعينها . هذه اللحظة بالذات . آه انقضت . حلت لحظة غيرها . مات ، كم إنسان يذكر إسمه الآن ، أى أفكار فى ذهن الزينى الآن ، الآن تلد امرأة طفلا . ماذا سيصبح بعد ثلاثين عاما، بأى أرض يموت ؟ ربما يطلق ربان مركب صرخة فزع تنبىء بالمصير المحتوم فى قرارة البحر الشرقى الكبير ، أحيانا والليل مسدل . يحاول النفاذ بعينى عقله إلى أحشاء الظلام . كم رجلا يعلو امرأة فى المدينة الآن؟ أعداد لا أول لها ولا آخر . لحظات كهذه يدرك فيها أنه مهما نفذت بصيرته فسوف تظل أمور ممتنعة عليه . حتى لو يجىء زمان . يعرف فيه بصاصوه كم من الرجال يضاجعون حريمهم ، أى أطفال سيسكنون أرحام أمهاتهم . أى طفل سيولد ويكبر ، يثير فتنا وقلاقل . لو عرف هذا لمنع الرجال من إتيانهم المرأة التى ستحمل الطفل . هكذا يجتز الشر من جذوره . قبل أن تنبت له جذور . لو أوتى فرعون مصر بصاصا عظيما نفذ إلى حقيقة الطفل الذى ألقته أمه فى النهر . لما عرفت الدنيا نبى اللّه . ولنجا فرعون وجنوده من الغرق . يثق زكريا من مجىء زمان يعرف بصاصوه ما يدور فى بر الشام وهم جلوس فوق المقطم . إذا قارن أساليبه الحالية . هل تشبه ما استعان به بصاص الدولة الأيوبية . بصاص الأشرف قايتباى منذ ثلاثين عاما فقط ؟ الدنيا تتغير ؟ لا يبقى أمر على حاله . زمان بمجرد إمساكهم مذنبا يوسعونه ضربا . ربما زهقت روحه . الآن .. لا يحدث هذا.. موت المذنب آخر مطلب ، تبدل عليه الآلام وهو واع حى . لو غشى عليه فهناك من الأساليب ما تجعله يفيق . كأنه صحا من نوم عميق أكثر نشاطا. أموركهذه يجهلها الزينى . وإلا أين نتيجة تعذيبه لسلفه على بن أبى الجود؟ تسلمه منادوه منذ شهر . لم يعلن منادوه استخراج درهم واحد منه أو تقريره بأى ذنب . قيل بين الناس إن الزينى يجهل طرق تعذيب المحابيس ، تهامس بعض الأمراء عن حقيقة ما أشيع حول على بن أبى الجود ، قال الأمير يلبغا الجاشنكير ، إذا ما شنع العامة والسوقة على كبير فى الدولة فهل نصدق ما يقال ؟ لا يصح هذا أبدا . تجاهله الزينى . لم يرد على

رسالته . فليذق عاقبة مكره . تجاهل الاف البصاصين وهم أطراف جسمه . يسمع بهم ويرى . يشط الفكر بزكريا إذ يذكر أن كل إنسان يمشى حاملا ملكين ، ملكاً يرصد الحسنات فوق الكتف اليمنى ، والآخر يدون السيئات فوق اليسرى ، لا يكفى هذا ، إنما ينتظر ناكر ونكير فى القبر ، يسألان ، يستقصيان ويستفسران ، ينتزعان الحقيقة بضرب الميت بهراوات ملائكية لا يعرف أبشع من قسوتها، كم عدد الناس فى الدنيا ؟ لكل إنسان ملكان ، هل يوجد أتباع لناكر ونكير، لو دفن رجلان فى وقت واحد ، فكيف يستجوبانهما ؟ كيف يسألان في وقت واحد ، ناكر ونكير لا يمكن تواجدهما فى كل قبر ، الموجود فى الدنيا كلها هو الله سبحانه وتعالى ، يطيل زكريا التأمل ، نظام عظيم وترتيب أروع ، هكذا تمسك الدنيا كلها فلا تفلت حسنة ولا سيئة ، يوما ما سيخلو إلى نفسه ويضع مطلبا مفصلا بما يرجوه للبصاصين ، ما يتمنى مجيئه من أساليب ، وسائل سحرية تكشف ما يفكر فيه الإنسان ، أخرى تعيد زمنا انقضى برمته لمواجهة إنسان ينكر ذنبا اقترفه ، الآن يقوم زكريا ، يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، يقيس طولها بخطواته ، أربع عشرة خطوة يمشيها متمهلا مطرقاً تهاجمه الخواطر فجأة، يد خشنة تقبض قلبه ، ها هو ذا الزينى يبدأ العداء ، حتى الآن لم يخط زكريا خطوة واحدة لهدم الزينى وإيذائه ، الآن مضت فترة ظن فيها استسلام زكريا ، هنا يبدأ العمل ، ولو تمادى السلطان فى مساندة الزينى؟ هنا تضيق عينا زكريا ، تسرع خطواته ، يصبح طول الحجرة عشر خطوات ، من الذى ساند الملك المؤيد شيخ الحمى عندما جاء إلى دست المُلك من ؟ الزينى لا يعرف ، السلطان لا يدرى ، من الذى دفع به إلى كرسى السلطنة بعد سجنه زمنا طويلا فى خزانة شمائل ، فى السجن أقسم لو أنه خرج ليهدمن الخزانة البشعة ويقيم مكانها مسجدا تتحدث به الأجيال ، وفعلا خرج ، وهدم خزانة شمائل ، أقام مسجدا تفخر به القاهرة الآن ، لكن هل يعلم المصلون فيه والفقهاء من الذى ساند الملك المؤيد ؟ من السبب فى بناء المسجد ؟ كتب التاريخ لا تذكر هذا ، إنما الأمر محفوظ فى

ديوان البصاصين ، كبير البصاصين هو السبب ، كرسى السلطنة ليس بعيدا عن يدى زكريا ، من هنا يزحزحه ، لو طال العمر بشعبان حتى يقر بما بينه وبين الغورى ، لكن الضرورة أوجبت قتله ، كان قمرا ، لكن لابد للأقمار أن تغرب وتمضى ، اليوم سيرسل زكريا فى إحضار المشرف على أبراج الحمام الزاجل ، نظام دقيق استحدثه يتفاخر به على البصاصين فى أنحاء الدول والإمارات ، كل حمامة تعرف أى الطرق تسلك ، لا تطير فوق بيت فيه إنسان ، فوق قافلة فى الصحراء ، إنما تعبر الخراب إلى أهدافها ولو طال بها الزمن ، اليوم ستطير الأسراب ، ليعلم المباشرون وأصحاب الإقطاعات ومشايخ البلاد ، حتى العامة من الناس الذين خدعوا فى الزينى، أى خطأ أتاه السلطان عندما ولّىَ على أمة الإسلام فى مصر رجل لا يعرف له أصل ولا فصل ، لم يره أحد يصلى جماعة فى يوم جمعة ، يظهر العدل ، ولا يعرف أحد ما فى عقله ، أبطأ فى استخراج أموال على بن أبى الجود ، ومن يدرى ؟ ربما شاركه خفية من قبل أن يعرفه أحد فى أذية الخلق ، ستطير الأسراب إلى بيت الأمير طغلق شادى العمائر ، وبشتاك المعروف بين الناس بفول مقشر ، فتنة واحدة بين طشتمر وخاير بك لا تكفى ، سيعلم طغلق أن بشتاك فول مقشر يحط من شأن المسجد الجديد الذى بناه للسلطان فى سوق الشرابشيين ، فى نفس الوقت يعرف بشتاك أن طغلق يضحك عليه ، يقلده ويلمح إلى بشتاك فى التشبه بالأمراء المقربين جدا إلى السلطان ، يقول عنه ، هذا رجل محدث نعمة ، الآن يبتسم زكريا . خطواته تسرع . سينتفخ فم طغلق يرمى زبدا أبيض . يسلط كل منهما مماليكه على الآخر . تضطرب أحوال الناس ، ترفع البضاعة من الأسواق . يكثرالنهب . يقوم عدد من أشداء البصاصين بخطف عدة أبكار وغلمان ، الآن يتوقف زكريا عن الرواح والمجىء . يمضى النهار وادعا يكاد يسمع سريانه فى الفراغ . ما أحب الشتاء إليه . أمسك المطرقة الجلدية . خبط الطبق النحاس . مرة واحدة لها رنين .

* * *

مساء الثلاثاء سابع ذى القعدة

نـــــداء

يا أهــالى مصــر

نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر

نعبد ونسجد ونحمد

من أذل كل لئيم متجبر

يا أهــالى مصــر

البشرى لكم

يأمر مولانا السلطان

بعد اطلاعه على أوفى بيان

رفعه الزينى بركات بن موسى

ناظر حسبة القاهرة والوجه القبلى

وشرح فيه حقيقة الأحوال

وما يمس العباد من الرعية الفقيرة

تلغى الضريبة على الملح

وتطلق يد التعامل فيه

من بعد أن كان حكرا على القلة القليلة

يا أهــالى مصــر

يأمر مولانا السلطان

بعد أن أطلعه الزينى بركات على حقيقة الحال

برفع احتكار الأمير طغلق للخيار الشنبر

وسائر أنواع الخضار

وأن يبيعه الفلاحون فى الأسواق بلا وسيط

حتى تنحط الأثمان

ومن يضبط حارسا أو مملوكا

من القراصنة أو الجلبان

يتقاضى ضريبة على حمولة خيار أو خضار

عند أى باب من أبواب القاهرة

يشنق بلا معاودة ..

* * *

من نداء طاف به المشاعلية مساء نفس الثلاثاء ، سابع من ذى القعدة

يأمر مولانا السلطان

بعد أن أطلعه الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

على الأحوال

ألا يمشى مملوك بعد المغرب فى الطرقات

وألا يدخل مملوك بسلاحه الحارات

بعد العشاء

* * *

من نداء غير عادى شهره رجال الزينى مساء الثلاثاء ، سابع من ذى القعدة ، بين الناس الذين نزلوا الطرقات يسمعون بفرحة ما ينشر وما يقال :

بعد الاطلاع على رأى الشريعة

واستشارة أهالى الرأى والمشورة

والبحث فيما مضى وانقضى

يأمر الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

بإبطال عادة نعى الموتى بدق الطارات

ومن ضبطت تدق طارا على ميت

تشهر بغير معاودة

* * *

نداء أعقب السابق مباشرة :

خصص الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

بابا من أبوابه

لتلقى المظالم ..

كل من وقع عليه ظلم

من أى كبير أو صغير ..

فليتوجه إلى الزينى بركات

لاسترداد ما ضاع من حقه

(عنوان رسالة ، وصلت إلى دار زكريا بن راضى ، مع رسول خاص . من رجال الزينى) :

« و التين والزيتون . وطور سنين وهذا البلد الأمين » .

إلى كبير بصاصى مصر . ونائب الحسبة الشريفة .

الشهاب زكريا بن راضى له السلام ..

* * *

نداء فى ليلة الثلاثاء ، نفس الوقت الذى وصلت فيه الرسالة إلى زكريا :

من الآن فصاعدا

ستعلق فوانيس كبيرة تضىء بالشحم

هندسها وسواها

الأمير طغلق شادى العمائر

بعد استماعه إلى رأى الزينى بركات

متولى حسبة القاهرة والوجه القبلى

على كل باب حارة

تحت كل منزل وقصر

أمام كافة الوكالات

ستعلق الفوانيس الجديدة

وسيقوم رجال الزينى بإضاءتها كل ليلة

وبمعرفتهم

حتى تنام القاهرة آمنة

وحذار أن ينزع مصباح من مكانه

وإلا جوزى وعوقب أصحاب المكان

يا أهـالى مصـر

لن يكلفكم الأمر درهما

فتعاونوا مع ناظر الحسبة الشريفة

يا أهـالى مصـر

يا أهـالى مصـر

* * *

يأمر مولانا السلطان باستمرار زكريا بن راضى نائبا للمحتسب كما كان فى كافة وظائفه ويقرن اسمه بلقب « الشهاب » :

يا أهـالى مصـر

يا أهـالى مصـر

اهتموا . اعتنوا بالفوانيس الجديدة

ومن ضبط مخالفا لأوامر ناظر الحسبة

شنق بغير معاودة ..

* * *

من عمرو بن عـدوى
إلى مقدم بصاصى القاهرة
تقرير فى وصف ما دار وما جرى
بين العامة والناس . ليلة الثلاثاء
سابع ذى القعدة ..

أجمع العجائز . وكتبة الدواوين . والقضاة ، والمطلعون على حقيقة ما جرى خلال الأزمان الغابرة أن ما شهدته القاهرة ليلة الثلاثاء سابع ذى القعدة لم يحدث من قبل قط لم يعرف مثيله فى بلد آخر . سمعت هذا بأذنى من مجاورى الأزهر ، وعجائز زاوية الحلوجى وتجار الغورية والباطنية . والحلاقين الجالسين أمام باب المزينين . وزاوية العميان . بجامع الأزهر . إذ لم يحدث طواف المنادين من قبل . كل نصف ساعة . يتقدمهم طبل ، وفى كل مرة ينقلون أمرا أو خبرا جديدا إلى الناس . ولكثرة ما قالوه من نداءات لم يكرر نداء واحد قط مع أن العادة جرت من قبل أن يردد النداء السلطانى أسبوعا كاملا خمس مرات يوميا إلا فى حالة وقوع حدث مهول، رأيت الزحام عظيما ، خرجت الباطنية برجالها ونسائها أجمعين ، النساء يطلقن زغاريد وأيد تلوح وحناجر تزعق ، وتفاوت كلام الناس ، وحتى لا أطيل وأكرر ، أجمل ما سمعت كما يلى :

أولا : كثر الدعاء بعد النداءين الأول والرابع ، للزينى بركات ، وكثر الكلام الطيب من سائر الأفواه ، خاصة النساء ، اللواتى رحن يهتفن ويهرجن . ويصحن « أدام الله أيام الزينى » ، وأجمعن على معرفة الزينى بما يقرص أبدان الناس وأرواحهم من مواجعهم لأنه ليس متعاليا ولا متغربا ، إنما يعرف أحوال الخلق ، ويقشعر جسمه لذكر المظالم ، يأنف تعذيب الإنسان ، ويركع الصلوات فى أوقاتها ، قال الرجل (وهو بائع هريسة متجول ، اسمه شمس الرمضانى ، ويسكن أول ربع فى حارة الروم

الجوانية عمره فوق الأربعين ، لحيته بيضاء ، أعرف مكانه) انه يرى الزينى ينزل متخفيا فى النهار والليل يتسمع أحوال الناس ، يجس ما يؤلمهم ، وإن اللّه أرسله فى هذا الزمان نصيرا للفقراء ، وقال إنه يعرف خادما فى بيت الزينى بركات يقول إن سيده يبكى طويلا قبل نومه لعلمه تماما أن الليل يرخى سدوله على حزانى مظلومين ، الزينى يتعذب كثيرا بسبب هذا ، يطلب من اللّه السماح فى الدنيا والآخرة لأنه لا يمكنه إزالة كل ما يقع من مظالم ، وأشيع بعد النداء الرابع طلوع الزينى بركات إلى السلطان وخلوه به فترة طويلة ، قال فيها للسلطان « أنت مسئول عن هذه الرعية أمام اللّه تعالى يوم القيامة وسوف تحاسب أنت وأحاسب أنا على كل ذنب ارتكب علمناه أو جهلناه ، أين نروح يومها من جبروته ، أصغى السلطان طويلا إليه ، كان حديث الزينى مشفوعا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية ، ونصوص من متن لا يجيدها إلا أفقه العلماء (قال التجار إنه يحفظ القرآن كله وله شرح مخطوط لم يطلع عليه أحد) ، تحدث الزينى عن الأمير شاريك ، واحتكاره للملح فى بر مصر كله ، وأنه الوحيد الذى يتجر فيه ، إذا ضبط إنسانا غلبان يبيع بنصف درهم ملحا يعاقبه بقطع ذراعه اليمنى ، واليسرى إذا كانت اليمنى قطعت من قبل أو ساقه اليمنى إذا سبق قطع الذراعين ، واليسرى إذا سبقتها اليمنى ، أو يحضر ابن المخالف أو أخاه أو أمه أو أباه إذا وجد بلا أطراف ، احتكار شاريك للملح جعله يزيد فى سعره كما يشاء ، أحيانا يعتدل مزاجه فينزل بالثمن إلى الحضيض ، إذا شط مزاجه وغضب شهر المناداة برفع السعر ، هذا لا يضر إلا بالرعية نفسها ، قال الزينى : الناس لا يجهرون عندئذ إلا بالدعاء على السلطان نفسه وإظهار النقمة عليه والغيظ منه ، قال الزينى الأمر أدهى وأفدح خطرا بالنسبة للخيار، لأن الأمير طغلق حرج على أحد المتاجرة فيه أو بيعه أو شرائه إلا عن طريق نوابه ، وأكد التجار أن الزينى أجرى الدمع من عينى السلطان يده فيما يشاء ، بشرط ألا تنخفض مالية البلاد درهما واحدا ، السلطنة أحوج ما تكون للفلوس هذه الأيام بعد انقطاع عديد من الموارد ،

أبدى الزينى مقدرة على تحقيق هذا . بعد نشره النداءات تعالت الشتائم ضد الأمير طغلق ولو طالته الأيدى لقطعته حتتا ، كما جهر البعض بهذا ، لعن العامة أجداد الأمير شاربك وكثر الدعاء عليه ، وحدث أن رمى بعض الفقراء نقوطا للمنادين إظهارا لفرحتهم وبهجتهم ..

ثانيا : سمعت بأذني ثلاثة رجال يتحدثون فى قهوة (لانضى) « أحدهم أعرفه واسمه فتوح الاسكندرانى من سكان باب الشعرية ، عنده معصرة زيوت ، وله من العمر خمسة وخمسون عاما ، يقولون كلاما له طعم آخر ، إذ أبدى فتوح الاسكندرانى شكا وريبة فى نداءات الزينى ، قال فتوح ، الأمر لن يستمر على ما هو عليه ، السلطان لن يسمح باستمرار الأمور هكذا ، إلا .. إلا إذا احتوى غرضا يتفق مع مصالحه ، بذل جهدا فى إقناع الحضور ، أكثر من إشارة يديه ، بادرت إلى نكشه محاولا استخراج ما فى رأسه ولم يخرج حديثه مع صحبه عن هذا ، وفى مقهى آخر صاح رجل اسمه أبو غزالة فى مصبغة بحارة الميضة « حقا .. ومتى كان أحد الحكام يظهر العدل ؟ » .

ثالثا : قرب سوق التربيعة حيث يكثر تردد النساء على محلات التجار الشوام هناك ، تساءل الرجل عن مغزى منع النساء من دق الطارات حزنا على الموتى ؟ أجمعت آراوهم على حق الزينى بصفته محتسبا فى منع هذه البدعة ، لكن الأمر الأخطر من هذا ، الأكثر فداحة ، ما يخص الفوانيس، قال عبد الحميد رئيس طائفة السقائين فى القاهرة (ومجلسه دائما عند هؤلاء التجار) ، قال هذه بدعة ما يصح نشرها فى أمة الإسلام، وقال أحد المجاورين فى نفس الموضوع (اسمه جاد الله ، صعيدى يسكن رواق الصعايدة) يريد الزينى إدخال بدعة جديدة تنسب إليه ، قال آخر ربما أخذت البدعة البركة من الناس ، كثر الحديث عن تعليق المصابيح ، قال آخرون ، ربما منع هذا هجوم المنسر فى الليل ، وأجيب على هذا بسؤال ، هل يمنع الضوء هجوم المنسر ؟ يعنى إذا قصد المنسر أو المماليك

الهجوم على حارة من الحوارى فهل يمنعهم هذا ؟ سيكسرون المصابيح وينفذون ما بأغراضهم ، قال اليهود ما دمنا لن ندفع درهما لا بأس ، وقال بعض المشايخ ، لم يظهر من الزينى إلا الخير فلابد من احتواء الأمر الجديد على نفع ، وبعد انتهاء المنادين من الطواف خرج رجال الزينى طلعوا فوق سلالم خشبية يدقون المسامير الكبار فى الجدران ، يربطون إليها الفوانيس ، ثم يشعلونها وعند انبعاث الضوء منها يهلل الجميع ويزعقون «هيه» .. دامت الفوانيس ، « هيه عاشت الفوانيس » ، الفوانيس ، ولم تنم القاهرة فى هذه الليلة بسبب ذلك .

رابعاً : اثناء دخولى جامع الأزهر عند الفجر ، رأيت طالب العلم الأزهرى ، سعيد الجهينى (ذكرته مرات من قبل) يجلس بين جمع من الطلبة، كان يكثر من هز قبضته ، على وجهه غيظ ، وعدم رضاء وكمد وحقد دفين ، وكلهم مصغون إليه ، ألقيت السلام ، ورُوعت إذ وجدته يشير إلى أمر لم يتردد على ألسنة الناس قط ، لم أسمعه من مخلوق ، سعيد الجهينى يعلق على ما جاء فى النداء الخاص بالفوانيس بإقرار الشهاب الأعظم زكريا بن راضى نائبا للمحتسب ، تركز كلامه فى الآتى :

١ ـ وقوع قهر على الزينى بركات بن موسى من ناحية الشهاب وأعوانه حتى يتم إقراره نائبا للحسبة .

٢ ـ إنه عليم بالزينى بركات وتأكده عن عدم رضائه عن القرار .

٣ ـ كل ما اذيع من نداءات متتالية الغرض منه شغل الخلق عن أخطر ما فى الأمر وهو إقرار الشهاب الأعظم وإعطاء الشرعية لوظائفه .

٤ ـ قال بالحرف الواحد الجمل التالية :

«بدأت الأمور تضطرب »

«هذا فأل سيىء»

«اللهم نجنا واسترنا»

وحتى كتابتى هذا لا يكف عن التنقل بين المجاورين يجهر بنيته فى الطلوع إلى شيخه أبى السعود ، شارحا له الحال ، طالبا تدخله فى الأمر ، وهو مستمر فى سب الشهاب الأعظم بأنتن الألفاظ ، واقبحها .

خامسا : خطب بعض الوعاظ ، وحطوا فى حق الفوانيس ، من فوق منابر المساجد ، وسخر الشعراء فى المقاهى من الأمر الجديد ، وألفوا شعرا قالوا فيه :

« الحق يامتعوس ، وإلا علقوا لك فانوس » ..

نداء

الجمعة، عاشر ذى الحجة ، ٩١٢هجرية

يا أهالى مصر
نامر بالمعروف وننهى عن المنكر
اليوم ، قابل السلطان
قاصد ملك الحبشة
وقاصد ملك البنادقة
أنعم على كل منهما بخلعة
كاميلية محمل ، بفرو سمور
يا اهالى مصر
وقعت قطيعة مفاجئة
بين الأمير بشتاك فول مقشر
والأمير طغلق شادى العمائر
لأن البشتاك شنع على المئذنة
الجديدة فى جامع السلطان
قال ، بها بعض الميل

* * *

سعيد الجهيني :

هذا زمان الحيرة وسيادة الشك وفناء اليقين ، تغيب التفاصيل ، تطغى رغبة ، آه لو هج في بيداء لا أول لها ولا آخر ، لا عرض لها ولا طول، ينحل شعره ، يبلى جسمه ، ربما عرف ما غاب عنه ، ما هجره ، ما كساه السحاب ، ما تقنع بالضباب ، كيف يفنى عمره ، يذوب وجده في عشق لا أمل فيه ، زاده .. شعوره بوجودها في بيت لا يطرقه كل أسبوع إلا مرتين ، إنما يتمنى رؤيتها ، تطلع الشمس من المشرق ، تنزل الغرب ، كم تبعد السماء الأولى عن الثانية ، عن الثالثة ؟ هل تقاس المسافة بالطول أم الزمن؟ كم تبعد النجوم عن الأرض ، وأى سلاسل ضخمة تربطها ، تمنعها من السقوط ، وهذه النجوم التى تهوى أهى أرواح شريرة مطرودة من الجنة ؟ تبدو لحظات في العتمة ، تضيع فلا تصل الأرض ولا تستقر في سماء ، حتى ذيول اللهب التى تسحبها تمحى كحلم ثقيل ، كيف لا تطغى البحار على اليابسة ؟ كيف يمتلىء النيل ويفيض ثم ينحسر من جديد ؟ عندما ولد الزيني بركات هل درى بما كتب في لوحه المحفوظ ؟ يوما سيصبح محتسبا؟ سينتظره رجل اسمه زكريا ، كيف ، كيف يقبل استمرار زكريا بن راضى نائبا له ، يحيط الحسبة بأعتى البصاصين ، أكثرهم مقدرة في بث الرعب والخوف ، في حجارة المبانى ، في الطيقان ، الزوايا ، فوق وسائد النوم ، ومآذن المساجد ، في أرضية محراب الصلاة . هل ضل عندما ذهب إلى بيت الزيني ليصحبة إلى كوم الجارح ؟ لكنه ما زال يعلن ، من له مظلمة فليطلع عنده ، ويوميا يتردد على بابه كل صاحب شكوى ، الناس لا يقصدون إلا هو ، عطل أبواب الأمراء والقضاة ، حتى أشيع أن الزيني ينوى الجمع بين القضاء والحسبة ، ورد الزيني على هذا بركوبه بغلته وتوجه إلى جامع الأزهر لصلاة الجمعة ، خطب في الناس نافيا كل ما يتردد عنه ، قال إن الحسبة تقتضى منه وعيا ويقظة فهل يتحمل عبء الجمع بينها وبين مهام أخرى ؟ هلل الناس له ، كبروا ، حاولوا تقبيل عباءته ، نتر فيهم الزيني بركات وأبدى غضبا وغيظا ، لحظتها أطبق الهم

على ضلوع سعيد ، رأى الشهاب الأعظم زكريا بن راضى ، أول نواب الزينى ، يمشى وراءه ، يتشح بعباءة زركش صفراء وعمامة عادية بلا علامات ، ياقوتة حمراء فقط تتوسط رباط الشاش المحيط بها ، شكا إلى منصور صاحبه وزميله فى الرواق همه ، قلق منصور ، الأروقة تشغى من جديد برجال زكريا ، بمستصنعيه ، لابد من التزام الحذر فى الكلام ، سعيد لا يجهلهم ، يسمع خطاهم الخفية وراءه ، انسلالهم من الهواء ، تنفذ إليه نظرات عمرو بن العدوى ، عمرو اشترى عباءة جديدة ومركوبا ، أشيع أنه يذهب إلى امرأة فى بيت « أنس » يشترى لها اللحم ، والخضار والسنبوسك ، سعيد يود لو يجالسه بقلب صاف ، ما الذى يدفعه إلى رفع كل آهة وهمسة إلى زكريا ؟ لكن كيف يصل به الفكر إلى هذا ؟ صاحبه منصور لم يظهر ضيقاً بزكريا ، قال : الزينى لا يتحكم فى الأمور كلها ، هو جديد على المنصب ، ورجل مثل زكريا لا يستهان به ، ومستحيل تجاهله ومن يدرى .. ربما هذه خبطة واعية من الزينى ، حتى لو عزل زكريا فهو خطر كامن كالحفرة المموهة ، يمسك بأسرار السلطنة والأمراء فهل يصطدم به الزينى أم يضمه ويحتويه .. لم يقل سعيد حرفا ، أى الأمور أصح ، رأى كل أمر فى الدنيا يسلك طريقا لا حيدة عنه ، طريقا ملتويا ، عليه ضباب ، دخان كثيف ، منصور ينتحى ركنا فى مقهى « لانضى » يمد يده ، يسوى الدخان فوق حجر الجوزة ، يغرق فى لب الدخان ، خلاصة النجاة من الأحزان ، حبيبته النائية تدنو ، يفتح ذراعيه ، يحتويها ، تتقرب إليه ، تجثو عند قدميه ، يهاجر إلى أرض واق الواق ، يغزو جزر النساء ، يرى الزينى رسولا منزلا ، وزكريا تابعه الأمين ، يحمى الأمن ، يقصى البلاء ، يدفع الفتنة ، منصور يقول قبل هجرته إلى دنيا النسيان ، لا أمر يعنينى فلماذا أشغل نفسى ، كتبت على سنين أعيشها فى الدنيا ، والدنيا فانية ، فلأنهل من ينبوع اللذة ، أسلك طريق السلامة ، ولا أكون خفيف العقل ، فأتشنج لحظة ، وأتقلص لحظات ، يدعو سعيد إلى رفقته فهو يشعر بالوحدة لحظة هجرته إلى عالم الغيب الأزرق حيث الحور والولدان ،

يضيق سعيد ، يمضى خارج دكان « لانضى » الطرقات تضيئها الفوانيس، حتى الآن لم يحسم أمر الفوانيس ، فتنة توشك على الاندلاع بسبب الفوانيس ، أهو مع تعليق الفوانيس أم ضده ؟ لا يدرى ، لم يطلع إلى مولاه منذ اربعة أيام ، آه لو يرحل إلى الصعيد ، يرمى عن كتفيه ما ناءتا به منذ سنوات مجيئه إلى الأزهر ، آه لو يمضى إلى جامع الحسين ، يشد عمره إلى الباب الأخضر ، لا يفارق الحبيب ، يتلو الأذكار ويناجى الشهيد ، آه لو يمضى إلى سماح ، ينزع خمارها ، يضمها كنزا غالياً وطلسما وشعرا لم ينشد مثله وجنة ضائعة ، لكنها سراب ظامىء لا يدرى ما يفعل ، سماح مسخت النساء كلهن فلم يعد إلا هى ، ما عداها أرض خراب ، الأمان فى بعدها عنها ، تحرقه الرغبة ليالى ، يتقد فراشة فى الرواق بنيران هادئة لا تخبو ، يحاول معرفة ما يجرى فى بيت « أنس » دخول الرجال ، انتقاؤهم ما يريدون ، لا يعرف الرجل اسم من ينام معها ، قال منصور : فى أول مرة سألت البنت عن اسمها ، فضحكت منى ، قالت راوية وعرفت أنه ليس اسمها ، آه لو يذهب إلى بيت أنس ، ألا يستطيع ؟ سماح لا تتجرد من ثيابها فى مخيلته أبدا ، لا يجرؤ على رؤيتها مضطجعة فى وضع مثير ، أحلم هى ؟ لا يذكر لون عينيها ، مذاق نظراتها ، ملامح وجهها التى تجعلها سماح ، وليست إنسانة أخرى ، من أعوام كان سعيد صفحة بيضاء لم يجر فوقها المداد ، لم يخدشها سن قلم ، تمتلىء الدنيا أمامه بالحروف ، الآن ، علامات التعجب والاستفهام ، ألف سؤال حائر بلا هداية ، الدنيا كلها سؤال لا أول له ولا آخر ، باق مخلد فى مخطوط عتيق تهرأت أوراقه ، متآكل الحواف ، كشطت حروفه .

« قسم خاص »

به « نتف » مما قيل بشأن واقعة الفوانيس

١ ـ جزء من خطبة الجمعة التى ألقيت من فوق منابر المساجد ، أخر ذى القعدة ٩٠٩هـ ، وهذا الجزء قاله الوعاظ كلهم على اختلاف مذاهبهم .

« يا أهل مصر ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يستحى العالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم » نقول هذا لمن أحلوا تعليق الفوانيس ، أمام البيوت والدكاكين يدعون العلم بالتواريخ والأحداث التى جرت وينقصهم القول بما سيجىء ،هنا ندخلهم فى زمرة الكافرين ، قالوا سبق لعديد من الأمم أن علق حكامها الفوانيس فى شوارعها ، فهل ذكروا لنا مثلا بعينه ؟ أهل كان رسولنا يمشي على هدى الفوانيس ؟ وفى رحلتى الصيف والشتاء إلى الشام واليمن هل أضىء طريقه بفوانيس صنعها بشر، نقولها بلا حرج ورقابنا على أيدينا لهؤلاء الذين يدعون العلم بالحكم التاريخية ، والأحاديث النبوية ، والمتون الخفية ، والأصول المرعية ، وهم جهلاء يخفون جهلهم ، نقولها ولا نهاب لا نخاف ، لا نخشى ، يا أهل مصر لم يحدث تعليق الفوانيس من قبل ، لقد أمرنا رسولنا الكريم بغض البصر عن عورات الخلق ، والفوانيس تكشف عوراتنا ، خلق الله ليلا ونهارا ، ليلا مظلما ، ونهارا مضيئا ، خلق الليل ستارا ولباسا ، فهل نزيح الستار ؟ هل نكشف الغطاء الذى أمدنا الله به ؟ هل نتطاول ونبدد سواد الليل من كل شبر فى المدينة ؟ هذا كفر لا نقبله ، هذا خروج عن الحد لا نرضاه ، ولولا اقتناع الكل منا بسلامة نية الزينى بركات لقلنا إنه يقصد ما يقصد ، لكنه منذ استلامه أمور الحسبة لم يبدر منه إلا ما هو خير ، ولن تحول الفوانيس ثقتنا عنه ، لن تشككنا فيه ، ياأهل مصر توجهوا إلى بيت الزينى بركات بن موسى أفرادا وجماعات ، زرافات ووحدانا ، قوموا إليه ، إلى بيته طالبوه بمنع الفوانيس التى تهتك السر ، وتشجع النساء على

الخروج بعد العشاء ، قوموا إليه ضارعين متشددين ، راجين حازمين ، لا يرجعنكم لين حديثه عما انتويتموه ، لا تغيبوا عن مقصدكم ، الفوانيس علامات آخر الزمان ، من علامات دنيا تخرج عما رسمه البارى عز وجل ، طالبوا سلطاننا بتوسيط كل من أوحى إلى الزينى بهذا ، بحرقه ، برجمه ، هؤلاء الجهلاء دعاة العلم ، آه من يوم تسود فيه الفوانيس اللهم قنا شره ، اللهم أبعدنا عنه ، اللهم لا تمد أجلنا حتى نراه .

(وهنا تعالى بكاء الناس فى الجوامع ، وزعق بعضهم ، اللهم اهدم الفوانيس ، اللهم اسحق الفوانيس) .

* * *

فتوى قاضى قضاة مصر :

« الفوانيس تذهب بالبركة من بين الناس »

* * *

أول محرم ٩١٣ هـ

قاضى الحنفية يقول رأيا مخالفا :

الفوانيس تطرد الشياطين . وتنير المسالك فى الليل للغرباء ، وتمنع مماليك الأمراء والمنسر من الهجوم فى الليل على الخلق الأبرياء .

* * *

قاضى القضاة بالديار المصرية :

« خرج أحد كبار العلماء عن الحد ، خالف الأصول ، ونفى الفروع ، بانحيازه إلى صف الفوانيس »

* * *

« الأمراء الكبار يطلعون إلى القلعة »

« مولانا السلطان ، تسبب تعليق الفوانيس بجميع الحارات فى تشجيع حريم العامة على النزول بعد العشاء والتجول فى الطرقات ، والسهر أمام الربوع والأسواق وهذا مخالف للحشمة ، وخادش للحياء » .

« خاير بك »

* * *

« العيال الصغار لا يرجعون إلى بيوتهم الآن مبكرين .. إنما يبقون فى الشوارع ساعات ينشدون ويغنون ، وأحيانا يقلسون ويرجمون مماليكنا بالحجارة ، ويتبادلون قبيح الألفاظ » .

« قوصون »

* * *

« مثل هذا الأمر لا يبتدعه إلا إنسان يبغى نشر الفتنة .. والفجور » .

« طغلق »

* * *

« إنارة المدينة ، وسهر الأهالى على ضوء الفوانيس أمر جارح للهيئة ، ومهين للسلطنة »

« قنبك »

« الزينى يرسل رجاله أول الليل ، يطلعون فوق السلالم الخشبية لينيروا الفوانيس وينظفوها ،كما ما يقول ، لكنهم يا مولانا ويا أمراء ، لا

يقـومـون إلا بالتـجسس على الخلق ، وعلينا ، يهـتكون حـياة الناس داخل بيوتهم »

« طشتمر »

* * *

« هذا حق .. هذا تمام .. »

« كافة الأمراء »

* * *

« قاضي القضاة عبد البر » ،

« سجل قاضي الحنفية سابقة خطيرة لم تحدث من قبل ، خالف رأينا، قال .. لا .. وهذا حدث مهول »

* * *

رواق الصعايدة :

أبدى بعض المجاورين استحسانا لرأى قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، قالوا إن رجلا مثله لا يمكن أن يشغل روحه بالفوانيس إلا إذا عظمت أهمية الأمر ليس كما يتهيأ للبعض ، قال سعيد ، تبالغون فى الأمر ، أشار إلى الطرقات الكبيرة فى مدينة القاهرة ، وإضاءة دكاكينها طوال الليل ، هنا قال أحد المجاورين : كلام غير صحيح ، الدكاكين تغلق بعد العشاء ولا ينتصف الليل إلا والكل فى بيته نيام ، علا صوت سعيد ، أيكره أحدكم إضاءة الحوارى والبيوت حتى يأمن الناس على أرواحهم ؟ ما يريده الأمراء أن تبقى العتمة حتى يعبث مماليكهم كما يريدون ، علا صوت عمرو ابن العدوى .. بالضبط ما يقوله سعيد صحيح ، قال مجاور شامى « أنت ياسعيد تخالف دائما » قال مهتاجا ، لا أخالف إلا ما أراه خطأ ، تساءل مجاور نوبى ، وهل يخطىء قاضى القضاة ؟ مال منصور إلى سعيد ، يخالفه الرأى ، ما الداعى لبدعة الفوانيس ؟ ألا يوجد من أمور الناس ما هو أهم منها وأجدر بعناية الزينى واهتمامه ؟ ثم بصراحة يا سعيد ، من يدرى، ربما تضمنت بدعة الفوانيس أغراضا تغيب عن عينيه هو ، تساءل المجاور الشامى ، الناس تقيم الدنيا وتقعدها ، لكن هل جرؤ كبير أو صغير على إزالة الفانوس المعلق أمام داره ، صاح مجاور من منفلوط ، «يهابون الزينى » قال عمرو « بالضبط » سخر منصور ، أيخشاه أتابك العساكر نفسه ؟ قرص سعيد طرف شفته العليا ، آه لو يقول لهم ، بدلا من إنهاك أرواحكم ارقبوا ما يفعله زكريا ، كيف فرض نفسه على الزينى ، لكن .. أحقا فرض نفسه ، من يدرى ، ربما جاء المنصب برضاء الزينى ، قال عمرو ابن العدوى ولكن الحكاية ليست حكاية فوانيس .. أبدا .. » .

* * *

هتف الخلق فى الجوامع والطرقات ،

لعن اللّه الفوانيس

لعن اللّه الفوانيس

سعيد الجهيني :

من قبل ، سعى إليه ، بعد الفجر صحبه إلى الشيخ أبى السعود ، ها هو ذا البيت ، البوابة مفتوحة ، لم يزد الزينى فى بنائه ، من حقه كناظر للحسبة الانتقال إلى بيت أكبر ، لكنه يبقى هنا ، أمام البيت يقف رجل نوبى يرتدى القميص الأخضر ذا الياقة والأكمام الصفراء ، أمر جديد ابتدعه الزينى بركات بالنسبة لنوابه ورجاله فى الطرقات التابعين له ، لباس واحد ، فى الناحية الأخرى يقف خلق كثيرون ، يمتد الصف بهم حتى يخرج من الباب للبيت الآخر المطل على الطريق الخلفى ، تساءل النوبى : هل تبغى مقابلة الزينى بنفسه ؟ أكد سعيد ، نعم ، غاب الرجل عنده ، أصوات أصحاب المظالم خافتة برغم عددهم الكبير ، إذ يلتقى بالزينى يفتح له قلبه ، سيقول له أعانك المولى على احتمال ما تتعرض له ، عندما مشى بجواره فى هذه الليلة البعيدة ، لم يقل الزينى كلاما كثيرا ، لم يخض فى تفاصيل ، لو راه الآن ينقطع الحديث بينهما ، سعيد يقول له ما مهد الشك إلى قلبه ، الزينى يذكر كافة ما يضايقه ، ما يتطلبه منصب الحسبة ، ما يجنيه من كلام الناس . عاد الرجل النوبى « نزل الزينى من البيت أول النهار ، ربما رجع بعد العصر » وكأن سعيد توقف فجأة بعد جرى ، تساءل ألا تعرف أين ؟ قال النوبى ، للزينى جولاته التى لا يعرفها إنسان ، ليطمئن على الناس ، لكننى أعرف مهمة واحدة من مهامه اليوم .. كما تعرف هناك وقيعة بين مماليك طشتمر وخاير بك ، ناحية حارة الجوانية ، انتهزوا فرصة الخناق ونهبوا عدة دكاكين فى الخط .. والزينى قصد الحارة لإحصاء المال المنهوب وما لحق الناس من أضرار ، ورفع الأمر للسلطان ، وتساءل سعيد .. متى جرى هذا ؟ قال النوبى معجبا ، طوال الليل ، كيف حدث وما حدث وسعيد لم يصله خبر ، ربما لبقائه فى الدرس حتى الظهيرة ، لكن ألم يصبح الصلح وشيكا بين طشتمر وخاير بك ؟ هز النوبى رأسه ، أبدا ، بعد أن اتفقا على ضرورة التخلص من الفوانيس كبقية الأمراء ، قال خاير بك ، لا أتفق مع طشتمر أبدا ، وعندما بلغ طشتمر هذا .. صاح ..

أيحقرنى والله لأقلبنها فوق رأسه . فجأة علت ضجة ، فلاحون وجوههم معفرة ، عيونهم تطير هنا وهناك لا تستقر على حال ، رأى سعيد أطفالا صغارا فى قريته البعيدة ، رءوسهم ضخمة ، رقابهم نحيلة كالعيدان ، يمضغون تراب الطريق ، عيونهم أوطان للذباب ، وجد نفسه يحمد الله لأنه لم يخلق فلاحا يشقى فى الغيط ، في رفع الماء من الترعة إلى القنوات ، تفرض عليه الأتاوات ، يجلده الكشاف ، يسعى إلى المدينة ليجهر بالشكوى، لا يرجع إلى عياله أبدا ، لم يقطع ما يفكر فيه إنما تمادى حتي تساءل ، كيف حالى لو خلقت فلاحا ؟ سأله البواب النوبى بعد لحظات صمت ؟ ولكن ما الذى تقصده من مقابلة الزينى ؟ » أكد أن نائب الزينى الموجود حاليا يمكنه الإصغاء إلى ما يقوله ، قال سعيد « الزينى يعرفنى لابد من مقابلته هو » ، سعيد لا يشى بأحد لكن أمامه أدلة وقرائن تثبت أن برهان الدين بن سيد الناس ، تاجر الفول صاحب عدة مراكب فى النيل ، ومكامير فى منية ابن خصيب ، برهان منذ مدة يشترى الفول من الفلاحين ويخزنه عنده ، أنشأ من الصوامع ما يفوق الحصر والعد فى ساحل أثر النبى بمصر القديمة ، يبرطل على عدد من كبار الأمراء ليفوز فى نهاية الأمر باقرار شرعى من السلطان يقضى باحتكاره الفول ، هذا يعيد بلية قديمة يعمل الزينى على إنهائها وهى احتكار فرد بعينه أو مجموعة ناس لصنف معين من الخضار أو البقول أو البضائع ، فما بالك والأمر يهم الخلق اجمعين ، ماذا لو طلعت فى دماغ برهان الدين بن سيد الناس ؟ يمنع الفول عن الأسواق حتى يعز وجوده ، والحق إنها حادثة لم يسمع لها مثيل ، لم يحاول تاجر من قبل احتكار بيع الفول فى مصر ، لن يسكت الزينى ، تساءل سعيد : أيقلقه الأمر فعلا ؟ أم ينبغى التأكد من عدل الزينى؟ الحق أنه لا يدرى الآن ، يعبر طرق أمير الجيوش ، المطارق تنهال فوق النحاس الأحمر ، تشكله حللا وأباريق ، مكارى ربط حماره إلى وتد بالطريق قعد بجواره يمضغ رأس فجلة وخبزا ، ها هو ذا دكان حمزة بن العيد الصغير يرتاح إلى الجلوس فيه لا يعرفه مخلوق هنا ، يخلو إلى

روحه تماما ، حتى منصور صاحبه يبتعد « أهلا .. أهلا .. يا نهار الفل » ترحيب دافىء من حمزة ، يرده برفع يده ، بسط راحته فوق صدره ، طلب جوزة ، فى الأنفاس الأولى يشعر بدوار خفيف لطيف مع خلو الكرسى من الحشيشة ، يرتاح إليه ، ما أحوجه إلى تأمل ما راح وما استجد ، استعادة ما سيقوله للزينى بركات لو التقى به فى المساء ، أما رؤيته سماح بعينى عقله ، فلها مذاق آخر ، إذ يجلس هنا ..

* * *

مرسوم سلطانى

« يُقصى الشيخ سعيد بن السكيت عن منصبه كقاض لمذهب الحنفية » .

* * *

« من قاضى قضاة مصر إلى السلطان »

« حميت الحق ، وأعليت كلمة الاسلام ، أقصيت المارقين ، أبقاك الله حاميا للديار .. »

* * *

مرسوم سلطانى

« تبطل عادة الفوانيس .. ويزال ما علق منها ، وكأنها لم تكن »

* * *

من أمراء الديار المصرية وأكابرها

« ما قمتم به حق ، ما أثبتموه عدل ، لعن الله الفوانيس »

سـعيد الجهينى

« احك عن دنياك .. »

يحار من أين تبدأ ؟؟

« مـات الشـيخ البلقـينى عـالم الحـديث فى الأزهر .. مـات عن ثلاثة وتسعين عاما . لا يبدى الشيخ جزعا ، إنما يهتز رأسه هزا خفيفا لينا ..» .

« يرحمه ويرحمنا أجمعين .. »

« زكريا والزينى على اتفاق .. »

« اعرف هذا .. »

يبدى سعيد دهشته ..

« الزينى جاءنى أمس .. بعد سمـاعى الخـبر ، فكرت أن أرسل إليـه لأعرف حقيقة الأمر ، لكنه دخل على وشرح الأمر .. » .

عوده مولاه ألا يطيل السؤال أو الاسـتفـسـار ، إنما يصـغى إلى مـا يقال ، يستنتج ويحاول الفهم ..

« مولانا .. كل شىء يحيرنى .. »

ابتسامة تقطر صفاء

« كل شىء ؟؟ »

« مولانا أنا صـحبت الزينى إلى دارك ،مشـيت أمـامـه فى موكبه كأى ركـبدار ، بشـرت به ، تحـمـست له ، أنا الآن أشك فـيـه ، أتضـرر منه ، من شهور قلت فلأمض إليه أنقل ما سمعته ، ما استوثقت منه ، عن رجل يقال له برهان الدين بن سيد الناس ..

برهان الدين ؟؟

« نعم يا مولانا .. برهان هذا شرع فى احتكار الفول ، عرفت أساليبه، مكاميره ، عرفت أن سعر الفول سيشط فى الأسواق ، عندما جلست إلى الزينى ، بعد مرات عدة ترددت فيها عليه بدون جدوى ، شكا إلى ما يثار حول الفوانيس ، قال إن الأمراء غرروا بالناس ، ضحكوا عليهم حتى أثاروهم ضد الفوانيس مما جعل السلطان يلغيها . تحدث طويلا عن موضوع الفوانيس ، قال إنه كان يرجو الكثير من وراء الفوانيس ، أبدى نيته فى رفع الكثير من المظالم ، تحدث عن ضيقه بمنصب الحسبة ، ما يجره عليه ، تصور يا مولانا ، شكا من قلة المال بين يديه ، لأنه قبل الحسبة كان يسافر إلى بعض البلاد يتاجر فى أصناف بعينها ، يشرف على أرض قليلة عنده فى دمياط لكنه أهمل الأرض والرزق ، ومرتبه من الديوان خمسون دينارا لا يكفى المظاهر التى يستلزمها منصب الحسبة ، حتى لو أبطل هذه المظاهر فلابد من ارتدائه أزياء معينة كلما طلع إلى السلطان وهذا يكلفه كثيرا ، لم يخف عنى شيئا ، أدق أموره حكاها لى ، والله يا مولانا وجدت نفسى قريبا جدا منه حتى كدت أصرح له بما يزعجنى ، لماذا قبل استمرار زكريا بن راضى نائبا له ؟ تمنيت لو أقول له ما يفعله زكريا بالناس ، لم تتغير عوائدهم ، يملأون الأزهر ، فهل يقبل ؟ كدت والله يا مولانا ، لكننى لم أفه حرفا أبدا أبدا ، قلت له ما جئت من أجله فعلا .. هز رأسه وقال .. سأكلف نائبى بمراقبته ورصد حركاته ، وعندما يثبت صحة ما يفعله يلقى جزاءه ، تصور يا مولانا . من سيقيم العدل ، من سيمنع برهان الدين بن سيد الناس .. زكريا بن راضى . لكننى قلت فى دماغى ربما يحاول الزينى استخدام زكريا لما فيه خير للناس ، رحت أرقب برهان الدين ، لكنه استمر على حاله ، طلعت إلى الزينى مرة ثانية ، قال هذه الأمور تستغرق وقتا ، وذكر لى حادثة الخياط الذى عاقبه لاعتدائه على غلام صغير برغم شفاعة أكبر الأمراء له عند السلطان ، لا أدرى يا مولانا ما الذى يقصده الزينى ؟ حتى الآن لم يهز أصبعا فى وجه برهان الدين ، هل أندم على سيرى أمامه يوما ، من ناحية أخرى توجعنى المظالم ، لماذا

يجلد الفلاحون وينكر عالم كبير من الأزهر أمه التى جاءت من الأرياف تزوره .. لماذا .. لأنها فلاحة ؟ كيف أصدق يا مولانا أن الناس خلقوا متساوين ؟ كيف ، وما حدث ويحدث وما سيحدث ينكر هذا ويكذبه ، كيف ، أود لو تقدمت الخلق أجمعين وانتزعنا كل ظلم وفساد ، ليس فى الديار المصرية وحدها ، إنما فى الدنيا كلها ، لكن أعمارنا ستضيع وتمضى ولن نقدر على هذا .. تصور يا مولاى ، إننى أخاف ، أخاف عندما أرى عمرو بن العدوى ، أتساءل عما سيكتبه فى أوراقه عنى ، ما يجعلهم يلقون بى يوما ما فى المقشرة ، فى العرقانة ، أو الجب ، لكن ماذا يفعلون بى ، ربما قطعوا دراستى بالأزهر ، يمنعون راتبى ورزقى ، يسدون أبواب الوظائف فى وجهى ، فليفعلوا .. ما قيمة هذا كله ، إذا رفعت الظلم عن إنسان ، ما قيمته ؟ لكننى أجد نفسى من جديد أخشى الحرمان والسجن والقيد والعذاب ، ارتجف لو سمعت باسم زكريا ، تصور يا مولانا .. أنا الذى يعذبنى مرأى الذباب على عيون العيال فى بلدنا ، أتمنى .. أحمد الله .. تصور يا مولانا .. أحمده ، لأنه لم يخلقنى فلاحا أعانى قسوة العيش وظلم الكشاف ، مولاى اعذرنى لأننى وضعت أثقالى كلها عندك .. لكن ما حيلتى والزمان يلجمنى ويكسر فكى ويخرس البوح فى صدرى ..

الليل يمضى صامتا ، فى البداية ألوانه خادعة تزداد مع ضياع النهار قتامة وعمقا ، حتى يغرق الكون فى سواد ، تضيع أصوات العباد ، تدور أصابع الشيخ حول بعضها البعض ، سعيد يخشى الليل ، لا يلقاه فى الرواق أبدا ، يرى نهاية الضوء فى الطرقات ، بعد إطراقة تدور عيناه فى الفناء الصغير ، راسخ رسوخ جذع النخلة المروية بالسنين ، مرتفع من الأرض يتوسط الفناء لم يلحظه . الشيخ ساكت ، يشير سعيد إلى كومة التراب ، بروز الأرض .. « لم أره من قبل .. » .

بأى سؤال يكسر الصمت .

« من حين إلى آخر أحتاج إلى خلوة .. من أجلها حفرت لنفسى هذا

السرداب ، حفرته لجسدى أودعه فيه كلما حارت الروح وأعجزها الزمان .. هذه الفتحة الضيقة تؤدى إلى سرداب الخلوة ، بمفرده انتزع لنفسه مكانا من الأرض ، داخله يخف من أثقاله ، من أحماله ، تحلق الروح إلى واد يمكن فيه الوصول إلى الحقائق الأولية ، يدق أبواب الكون ، يفصح عن خباياه ، فيبصر القلب ويرى ما يرى ..

* * *

نـــداء

يا أهالى مصر

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر

انكشف المستور

ظهر المقبور

بانت فضيحة على بن أبى الجود

الليلة قبيل المغرب

سيقرأ الفقهاء فى الجوامع

وثيقة تلقون فيها ما تشاءون

لتروا ، كيف امتص الظالم

دماد المسلمين

فحق عليه عقاب مبين .

* * *

السرادق الثالث

وأوله ..

وقائع حبس على بن أبى الجود .

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى كشف كل غطاء ، ويسط الأرض ، ورفع السماء ، نتوجه إلى أمة الإسلام ، نكشف أمرا طال به الترقب ، ليكون عبرة لمن اعتبر ، الحى ومن غبر ، تفاصيل هذا كما يلى .. منذ عام ، أمر مولانا السلطان بالترسيم على المدعو على بن أبى الجود ، وتسليمه إلى متولى الحسبة الشريفة وذلك لعقابه ، وكشف المخفى وراء أبوابه ، ومنذ البداية أضمرنا الصبر حتى النهاية ، لأننا نقف ضد تعذيب البدن فلا نرضى لإنسان مهما كان ، أن يحرق عضو فى جسمه ، أو ينعل كالفرس ، وهذا سبب المدة الفاصلة بين تسلمنا على بن أبى الجود ، وكشف أمره ، كشفنا من أمواله ما يعجز عن تصديقه إنسان ، وكل هذا امتص من دماء المسلمين ، وإليكم ما وضعنا يدنا عليه .

بلغ دخله اليومى من أملاكه وأطيانه وضماناته وحماياته تتمة ألف دينار يوميا . واشتملت تركته على مائة وخمسين ألف دينار ذهبا ووجد عنده ياقوت أحمر ، زنة الفص رطل ونصف ، وستة صناديق فيها جواهر، ومن الماس وعين الهر مائة قطعة ، وعلى ذهب مقدار قنطار ، وطاسات وأباريق فضة نحو ستة قناطير ، ومائة قفطان بفرو سنجاب ، وأربعمائة

قفطان بغير فرو ، وسروج ذهب . عشرون سرجا ، وجد لديه أيضا خمسون فرسا ومائة بغل ، ومائة جمل ، ومن الغنم والجوارى والمماليك شىء كثير ، ووجد عنده فى المرحاض شبه فسقية ، كشف عنها فإذا بها مملوءة ذهبا ، ووجد لديه من القمح والفول والشعير مائة ألف أردب ، ووجد عنده سبعون مركبا سارحة فى النيل .

كان اللعين يخفى ثراءه ويبذل الكثير حتى لا يشعر به أحد من الناس لكن صبرنا وطول دأبنا أوصلنا إلى ما خبأه وأخفاه ، وسيتم طلوعنا بماله غدا محمولا فوق بغال ، حيث تضم هذه الأموال إلى خزانة مولانا السلطان، فى وقت نحن فى أشد الحاجة إلى المال ، لتحرك أعدائنا علينا ، ومن شاء منكم الفرجة فلينتظر فى تمام الساعة الرابعة عربى وقت الضحى، أيضا سيعرض عليكم على بن أبى الجود وسترونه سليما معافى لم يلحقه أذى ولا تعذيب ..

تم الحوطة على ثلاثين جارية ، ومائة وعشرين عبدا ، وأربعين خصيا خصاهم اللعين بيده ..

يا أمة المسلمين

يا أهالى مصر

أتوجه إليكم برجاء ، أبلغونا حال وقوعكم على أى إنسان يكتنز المال من دم المسلمين ، لا نقبل أبدا أن يجوع الخلق ، وتستمع قلة ، أبلغونا : مهما علا قدر مكتنز الذهب والفضة والبغال والعبيد والجوارى أخذنا لكم الحق منه ..

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اجعل هذا البلد آمنا

وقائع تعذيب على بن أبى الجود ، مرفوعة إلى الشهاب زكريا بن راضى كبير بصاصى مصر ، ونائب الحسبة الشريفة ، من مقدم البصاصين فى القاهرة .

* * *

بناء على ما أشرتم به ، ونوهتم إليه قامت فرقة من أشداء بصاصينا بتنقيب الأحوال وإظهار ما جرى لعلى بن أبى الجود ، وقد نفذنا عبر أسوار منيعة ، وعقبات كبيرة ، لنجتلى سر الأشياء ، وبعد جهد جهيد استطعنا ضم واحد من العاملين مع الزينى ، لكننا لم نعتمد عليه وحده ، فهو أول رجل ينضم إلينا من ناحية الزينى ، استوثقنا من مصادر أخرى ، تعرفون بعضها ، والآخر نحتفظ به حتى ننقله إليكم شفاهة ، أما بعد ..

ثبت عدم وجود سجن فى بيت الزينى الكائن ببركة الرطلى فهذا البيت ضيق ولا يتسع لوجود سجن به ، وأى صراخ فيه يمكن سماعه من قريب ، لقد نقل «على» إلى بيت قصى قريب من حلوان وهذا البناء تحيطه خضرة كثيفة . لا نعرف متى انتقل إلى ملكية الزينى ، من شيده وبناه وجار بحث هذا .. يقع تحته سجن يضم أربع عشرة زنزانة ، ليست زنازين بالمعنى الدارج ، الواحدة منها حجرة مستطيلة طولها ثلاث خطوات بقدمى رجل بالغ ، ارتفاعها أزيد من قامة رجل عادية بشبر ونصف ، عرضها لا يمكن الإنسان من فرد ذراعيه ، يتوسط سقفها فتحة صغيرة تؤدى إلى الخارج ترى منها السماء قطعة فضية ، لكن الفتحة لا تظهر أبدا من الخارج ، فوق الباب من الداخل مصباح يضىء بنفس طريقة الفوانيس ، هذا المصباح يواجه الإنسان أينما استدار أو حاول الهرب ، حتى لو نام تحت الباب مباشرة ، ولو أدار ظهره فحتما يجده فى مواجهته ، يئز الضوء ليلا

ونهارا، يحدث وشا خفيفا لا يدركه الداخل مباشرة لكنه ينقلب إلى زئير فى الأذنين بعد فترة ، ويبرز من الجدران لوح خشبى قصير يتناول فوقه المحبوس طعامه ..

السجان القائم على أمور المحابيس هنا ، شاب مليح الوجه ، رقيق العبارة ، جميل الصورة ، وهذا يخالف كل ما اتبع من قبل ، ابتسم فى وجه «على» خاطبه بأدب «إذا احتجت أمرا اطرق هذا الباب بقبضتك مرة واحدة» ، وعندما أقول من ؟ فلا تقل اسمك إنما قل «واحد» أنت منذ الآن واحد ، طوال حديثه لم تفارق شفتيه الابتسامة ، حديثه فى ظاهره رجاء لكنه أمر فى جوهره ، نظافة المكان لم تطمئن «على» أدركه رعب خفى ، ليس حادا ، إنما يماثل غرابة المكان ، هدوءه ، الباب يوحى باحتمال فتحه المفاجىء ، ربما انطبقت عليه الجدران ، تتغير الابتسامة ، عندما جاءه الطعام تعجب للغاية وضع أمامه أرز مفلفلٌ ، طبق ملوخية ، قطعة لحم وبرتقالة ، وهذا لم يسبق حدوثه فى التاريخ الحبوس ، لكن لابد من توضيح أمر هنا ، على بن أبى الجود ، أو غيره من المحابيس الذين ساقهم حظهم إلى هذا السجن ، لم يشعر بالشبع أبدا ، إنما يعيش جوعا خفيا ، الأكل فى مظهره أكثر من كاف ، يحدث شبعا مباشرا ، لكنه لا يقضى على جوع خفى مستور يأكل نخاع الغطاء الدفين .

بقى على بن أبى الجود ثلاثة وتسعين يوما لم ير خلالها إلا وجه عثمان ، إذا دق الباب فى أى زمان ، يجيئه مبتسما كأنه لا ينام ولا يفارق المكان أبدا ، كأنه يعرف متى ينوى دق الباب فينتظر ، ويمضى الزمن بدأ على بن أبى الجود يخشى الابتسامة والعينين الهادئتين حتى صار يزوغ من صاحبهما ، وربما وجد نفسه محصورا بالبول ، يكاد يطق ، لكنه يأبى دق الباب .

استعاد حياته لحظة بلحظة مرات ، اختلط عليه الليل والنهار ، بدا له الزمن جسما شائها بلا ملامح ، يعرف وجود آخرين بجواره ، دائما يسمع

عثمان يسأل من ؟ ثم تسير خطواته حتى يتوقف عند باب قريب ، فشل تماما فى الإصغاء إلى أصوات المحابيس الآخرين ، بدأ يفكر كيف يفكر ؟؟ تمنى لو يحرقونه ، حتى العالم يروح من عقله ، ومثل المصباح يمزق لحمه ويجفف دمه ، وفى لحظة بلغ فيها درجة من الضيق العظيم دخل عليه الزينى بركات بنفسه ..

قال بصوت خال من افتعال المودة .

« أنا الزينى بركات .. »

تطلع إليه على بن أبى الجود متعجبا ، لم يره من قبل ، وما ننقله هنا ، قاله الزينى بالتقريب :

كما ترى يا على ، لم نفعل بك مكروها ، لم نضايقك فى بدنك ، أنا أعرف حيازتك لمال طائل ، أنت داهية فى طريقة إخفائه ، أخبرنى عنه وكما تعلم أنا لن أضع منه درهما فى جيبى ، كله سيذهب إلى خزانة السلطنة ، أما حريمك وعيالك فانا أضمن معيشتهما .

« أ ين الأموال ؟ »

هز على بن أبى الجود رأسه .

« أتنكر ؟ »

أكد النفى ، قام الزينى واقفا ..

« اللهم إنى برىء من ذنبك »

بعد زمن لم يعرف مقداره ، دخل عثمان ، عصب عينى على بن أبى الجود بقماشة مبللة ، لحظة طال انتظارها ، لا يدرى ما سيفعل به ، لكنه يفارق هذا المكان الغريب ، هذا يكفى ، نزل درجات ، عبر أبوابا ، تركه عثمان فى قاعة خلاء ، ارتعدت مفاصله ، تهيب الجلوس ، خطا الوقت ثقيلا كالخيل إذ تحتضر ، ارتعشت أطرافه ، دب الخدر إلى ظهره ، جسمه كله

يهتز ، فجأة هوت يد قوية صفعته فوق عنقه ، أطارت شررا ونجوما زرقاء في فراغ عتيم أحاطه ، ثلاث صفعات صنعت حزاما ساخنا حول قفاه ، وهنا تبدأ الوقائع الفعلية لتعذيب جسد على بن أبى الجود .

اليوم الأول :

وفيه دهنوا باطن قدميه بماء وملح ، أحضروا عنزة صغيرة سوداء فى رأسها بياض راحت تلعق الماء المالح على مهل ، التوت شفتاه ، ارتجفت ضلوعه ، صار يصرخ ، ثم ينقلب صراخه ضحكا حتى غشا عليه ، سكبوا على وجهه ماءً باردا .

« أين أموال المسلمين » ؟

ولم يجب .

اليوم الثانى :

من الثابت الذى لا يدع فسحة للشك أن الزينى بركات لم يفارق الغرفة المجاورة للحجرة التى يتم فيها « استخراج الحقيقة » وفى أول النهارأخذه الغيظ ، لثبات على بن أبى الجود ، دخل بنفسه ، راح يمد أصبع يده الوسطى بحركة ثابتة فى صدر على بن أبى الجود ، فى نفس الوقت أمسك أحد رجاله بإبريق ماء رفعه ، بدأ نزول الماء قطرة قطرة ، بفاصل زمنى معلوم ، لم يمض وقت طويل إلا انتفضت رقبته ، ارتعش جسده كأنه على وشك الانقصاف إلى قسمين ، صرخ صرخة هائلة خارجة من الحشا ، هنا زعق فيه الزينى « أموال المسلمين يا على » .

ولم يجب ..

عصر اليوم التالى :

أحضروا فلاحا من المحابيس المنسيين ، نزعوا عنه ثيابه تماما ، نظروا إلى على بن أبى الجود ، قال الزينى « انظر سأفعل بك كما أفعل

بالرجل » أظهروا حدوتين ساخنتين لونهما أحمر لشدة سخونتهما . بدأ يدقهما فى كعب الفلاح المذعور ، نفذ صراخ الفلاح إلى ضلوع على ، وكلما حاول إغلاق عينه يصفعه عثمان بقطعة جلد على قفاه ..

اليومان الرابع والخامس :

ذبح ثلاثة من الفلاحين المنسيين ، أسندت رقابهم إلى صدر على بن أبى الجود والزينى يدخل ويخرج محموما مغتاظا يسأل « ألم يقر بعد ؟ » لا يجيب أحد ، يضرب الحجر بيديه ..

اليوم السابع :

عندما أحضروا خليل ، أصغر أبناء على بن أبى الجود بدا غائبا تائها ، لكن عندما صرخ خليل : اتسعت عينا أبيه ولم يسمع صيحات ولده ..

تعليـــق :

هذا بعض ما وصلنا من وقائع تعذيب على بن أبى الجود . لكن الثابت فعلا - وهذا محير - عدم إقراره بمكان المال ، إذن من أين عرف الزينى مقدار ومكان الأموال التى نشرها على الناس . العجيب أيضا أنه بعد مدة معينة ، وبعد تنوع أساليب العذاب الجديدة التى يسميها الزينى « كشف الحقيقة » أصبح على بن أبى الجود معافى ، التغيير الوحيد أصاب عينيه ، أصبح لا ينظر إلا فى خط مستقيم كالأعمى لكنه مبصر ، إذا ناداه أحد لا يجيب ، إنما ينحنى ويدلدل لسانه كالكلب ولم نفسر بعد ما حاق به .

(مقدم بصاصى القاهرة)

* * *

نــــــداء

يأهــالى مصــر

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر

أمر مولانا السلطان

باعدام على بن أبى الجود

ضربا بالأكف

سيرقص طوال الطريق

كما ترقص النساء

اضربوه

اضربوه

كلما كف

فمن شاء الفرجة

والقصاص من عدو اللّه

عليه الخروج بعد صلاة العصر

يأهــالى مصــر

* * *

رجب ٩١٤ هـ

مقتطف « ب »

ويتضمن بعض مشاهدات الرحالة البندقى ، فياسكونتى جانتى الذى كان يعبر القاهرة وقتئذ لأول مرة ، وكان قادما من بلاد الزنج والسودان ، قاصدا ركوب البحر ،عائدا إلى بلاده بعد تجوال طويل .

* * *

خرجت من الخان ، والحق أننى وجدت الزحام ثقيلا ، النساء يختلطن بالرجال ، الصبية الصغار يحاولن التسلل بين الأقدام للنظر ، وعلى جانبى الطريق وقف رجال أشداء مدرعون يرتدون ملابس زرقاء بياقات صفراء ، عرفت من مترجمى أن الموكب خرج فعلا من بيت الزينى بركات محتسب القاهرة وقف عند مدرسة ابن الزمن ، عرج على جزيرة النيل ، أتى إلى شبرا ، استمر حتى عبر قناطر أبى المنجا وطلع من قنطرة الحاجب ، دخل من باب الشعرية ، كنت أقف عند بين الصورين ، (سوق كبير) أمام دكان يبيع أصباغ الملابس ، انتشر قلق بين الناس تدافعت المناكب ، صرخ طفل ، أطلقت امرأة صوتا طويلا ، يسمونه هنا زغرودة ، بدأت تباشير الموكب ، عدة خيول مسرجة ، كلها بيضاء ، ثم مرت أربعة خيول يدق راكبوها طبلا، يتوقفون ليعلن رجل قصير لم أسمع أقوى من صوته قط ، وأخبرنى على مترجمى أنه يطلب من الناس أن يضربوا على بن أبى الجود كلما كف عن الرقص ، حتى يسقط ميتا ، والموضع الذى سيسقط فيه سينال بقشيشا من الزينى ، والحق ، هذا أغرب طريق إلى الموت رأيته أو سمعت به ، أخبرنى على أيضا أنه يزف إلى الناس بشرى حسنة ، أمر السلطان بتعيين الزينى بركات واليا للقاهرة إلى جانب منصبه ، وقبل الزينى حرصا على راحة الخلق ، ومن أراد الاعتراض على ولايته للقاهرة فعليه إبداء رأيه

بعد صلاة الجمعة فى أكبر مساجد العاصمة (الأزهر) ومنصب الوالى يشبه حاكم الإقليم عندنا ، أما الحسبة فلا مثيل لها فى بلادنا إذ انه منصب يجمع بين السلطة الدينية والمدنية ، ويتلخص فى ضمان الخير ، وطرد الشر ، والحقيقة لم أصدق ما أخبرنى به على ، فيما يتعلق بحض الرعية على الذهاب إلى الأزهر لإبداء رأيهم ، هذا تقليد لم أره قط ، سابق لزماننا لم أسمع به ، على الرغم من سعة تجوالى ، سمعت اسم الزينى يتردد كثيرا يبدو أنه شخص خارق للعادة ، وسأحرص تماما على لقائه ، عندما انتهى المنادى طرق أذنى وقع طبل ، الجمع كأنه إنسان واحد ، تزايد الصياح ، تلويح الأيدى ، دفعت الناس حتى اقتربت من عربة مسطحة صغيرة العجلات يجرها بغلان فوقها رجل متوسط القامة يقف فى غير ثبات محلوق الحاجبين واللحية ، كحلت عيناه كالنساء ، تناثرت بقع حمراء على وجنتيه ، فوق رأسه طرطور مثلث متعدد الألوان له زر طويل ، يهتز كلما مال الرجل وتثنى ، إنه يهز وسطه هزا عنيفا غير منسق ، يستمر الطبل ، يميل بمنتصف جسمه الأعلى إلى الوراء ، يرعش صدره إرعاشا قويا ، يعتدل فجأة يبرز مؤخرته إلى الوراء ، طوال هذا الوقت تمتد أيدى العامة ، تصفعه ، تضربه ، يدفع أحدهم عصا قصيرة بين إليتيه ، فوق جبينه يتساقط عرق غزير ، يتدلى لسانه ، يتفانى الناس فى صفعه وضربه، إذا سقط ميتا سينال من حوله الحلاوة ، عبثا يحاول رجال الزينى منع الأيدى التى تحمل عصيا ومراكيب من الوصول إليه ، ابتعدت العربة ذابت فى الزحام الكثيف ، ابتلعت لعابى ، وجه الرجل الشائه المذعور ، جسمه ، يسد الفراغ ، والحق أننى فزعت ..

* * *

نــــــداء

أمر مولانا السلطان
بتسليم الأمير كرتباى
والى القاهرة القديم
إلى ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القاهرة
الزينى بركات بن موسى
لمعاقبته ، وإظهار ما نهبه اللعين
من أموال المسلمين

* * *

زكريا بن راضى :

يظن زكريا بن راضى أن لقاءه بالزينى تم فى الليلة نفسها ، ساعات الليل الأخيرة عادة لا يزعجه أحد إلا بدافع أمر جسيم ، ليلتها أصغى إلى «وسيلة » تحدثه عن بلادها ، ما يحب الإصغاء إليه ، عادات الناس هناك ، ألوان الطعام ، يسألها كيف لم يفض تاجر الرقيق بكارتها منذ اختطافها ؟ عودتها الأسئلة الغريبة ألا تخجل ، قالت انه طمع فيها ، كل من رآها طمع فيها ، وحدث قرب حلب . هنا مد زكريا يده ، لس شفتيها بأطراف أصابعه « حدثينى عن حلب » لم تدركها الحيرة اعتادت منه الانتقال من موضوع إلى آخر ، فجأة بدأت تسترجع المدينة ، الطرق المؤدية إليها ، رجال البريد فى المبانى الصغيرة القائمة وحدها وسط الخلاء ، عيون فلاحات الشام المتطلعة إلى القافلة ، إسراعهن بإغلاق بيوتهن ، تذكر ترحيب الحراس بالقافلة ، مسرور التاجر يعرفهم كلهم ، يدفع لهم مجعولا معينا من الذهب، لا يتعرضون له أبدا ، بل يتولون حراسته إلى الطريق ، زكريا يمسك كوبا مضلع الحواف ، لا يشرب الخمر أبدا ، لا يحب لوعيه أن يهجر العالم لحظة واحدة ، حدث منذ مائتى عام أن أضاعت الخمر واحدا من أعظم البصاصين الذين عرفتهم مصر ، فى زمن الظاهر بيبرس ، أدمن ابن الكازارونى الخمر ، صار يقول فى مجالسه الخاصة والعامة كل ما يعرفه عن أحوال الناس والدولة ، تسبب هذا فى فضيحته ثم قطع رقبته ، كان قد ابتدع نوعا جديدا من الخمور ، قيل ، مجرد رائحتها تجلب للإنسان سكرا عظيما ، نسبت فيما بعد إليه ، وعرفت بالخمر الكازرونية ، أمر السلطان الناصر بن قلاوون ـ فيما بعد ـ بإبطالها وإراقة ما تجمع منها فى الدنان ، زكريا يعشق عصير الفاكهة ، استحضر جهازا من بلاد تلمسان يعصر أقسى أنواعها ، يصفى البذور ، يرشف عصير العنب ، يمد يده إلى جيد وسيلة يمر عليه مرا هينا لطيفا تستمر فى حديثها ، ترتعش الحروف ، فجأة بينما تطلع يده وتنزل تقترب أصابعه من صوان أذنيها ، تخرج

أنفاسه ساخنة فوق مؤخرة عنقها ، قشعريرة بدنها تنتقل إليه ، يتابع اختلاج ركنى فمها ، فجأة يحتوى أذنها الصغيرة فى فمه ، يرضع اللحم القاسى ، تشهق ، تتباعد أطراف جسدها ، تحيط ثدييها بيديها تغمض عينيها تروح إلى بعيد ، فجأة بضربة واحدة ، يمزق الثوب ، لا يفك أزراره، إنما يمزقه ، يصغى إلى تقطع القماش ، تنكشف له بدايات العالم الطرى ، تبدأحركة من عينيها تجسد صغر السن ، تفتح الزهرة ، صبية تطرق أول العمر تدهش إذ تقف عند حدود الدنيا ، أمثل هذه المتعة توجد فعلا ؟ فى اللحظة، هذه اللحظة تماما ، جاءه شهاب الحلبى طرق درع النحاس المعلق فى الدرقاعة السفلى ، نزل إليه « أرسل الزينى بركات مبعوثا يطلب من زكريا الحضور بسرعة لأمر جلل » أومأ زكريا برأسه ، طلع إلى خزانة ثيابه انتقى رداء شيخ أزهرى ، منذ إقراره نائبا للحسبة لم يرسل إليه الزينى ، كل صلتهما تقرير يومى يرسله زكريا إلى الزينى ، طبعا تقرير يعد بشكل خاص ، مرات أرسل الزينى يسأل عن أمور ذكر أنها عامة ، جاوب عليها زكريا وهو يضمر تعجبه لتفاهة هذا المطلب ، مثلا أسماء الجوارى اللواتى اشتراهن الأمير بشتاك فى عام ٩٠٧ هـ ، مقدار الخمر الذى يشربه الأمير قوصون كل ليلة ، اسم والدة بائع مخلل بالحسينية ، أصناف الطعام التى يفضلها قاضى القضاة عبد البر ، أو عدد أمتار الثياب اللازمة لعمل عباءة زركش لخوند زينب زوجة طشتمر ، كم مملوكا له ست أصابع فى كلتا يديه وعددهم فى الأبراج ، زكريا قابل هذا باستغراب ، تدارك رأيه بسرعة ، ليستبعد السخرية والاستهزاء . مثل الزينى لا يطلبها إلا لأمور جسام ، عندما التقى به أول مرة فى بركة الرطلى ، أدرك ندرته ، كل منا خلق ليلقى الآخر ، نزل السلم بسرعة ، عند الاقتراب من بيته لن يظهر دهشته ، سيتحدث إليه بهدوء ، لا شىء يمثل مفاجأة بالنسبة لزكريا ، بل سيوحى إليه أنه خمن نية الزينى فى استدعائه ، طلع إلى الفناء الواسع ، لأوراق الشجر حفيف مسموع ، ما ألذ الرجوع إلى وسيلة ، لم يرتو منها تماما ، دار بعينيه باحثا عن مبروك ، مبروك الوحيد الذى يميزه حتى لو

اختفى فى زى الجان ، يبدو للغرباء أخرس لكنه يتحدث قليلا جدا ، أحيانا يعنف زكريا ويلومه لوما قاسيا ، زكريا يقبل هذا ويصغى إليه ، وينفذ ما يقوله مبروك ، سأل زكريا ، «أين رسول الزينى؟» تقدمه مبروك ، همس زكريا «إذا لم أرجع حتى ظهر اليوم التالى فقل لمقدم القاهرة أن يهتدى بما يقوله شهاب الدين كاتم السر .. مفهوم ؟ دخل زكريا إلى حجرة الجلوس بالديوان ، قام رجل بدوى ملثم ، أهلا بالشهاب الأعظم زكريا ..» نظر زكريا إلى الوجه الملثم ، الحزام العريض المرصع بفصوص معدنية بارزة ، زكريا يتفحص رداءه ، هذه الأمور الصغيرة ، تبدد دهشته عندما رأى الزينى بنفسه ، دخل الزينى مباشرة فى غرضه قال : بدون لف أو دوران ، باختصار شديد أريد أن أعرف بالضبط .. أين أخفى على بن ابى الجود أمواله ؟ أسند زكريا جبهته إلى أصبعين من يده اليمنى ، باختصار كعناوين البطائق « لا أعرف » زعق طائر غريب الحس فى السماء ، الليل يشيخ ، قام الزينى مرة واحدة ، على مهل اقترب من زكريا « أنت يا زكريا تعرف تماما أين موجودات على بن أبى الجود ، أنت لا يخفى عنك شىء ولو خفى لما خاطرت بسمعتى وأقررتك نائبا للحسبة ، أنت تعرف ليس لأنك شغلت منصب على بن أبى الجود إنما لأنك زكريا ، أتفهمنى ، لأنك زكريا بن راضى أعتى من تولى منصب كبير بصاصى مصر » لم يرد زكريا ، ليقل الزينى ما يريد ، أمر دفين يوشك الإفصاح عن نفسه ، الضوء خافت غامض مرعوش ، يوشك على توهج لكن يدا قوية تحبسه ، توشك على إلغائه ، قال الزينى بركات بن موسى « أنت تعرف مكان أمواله يا صاحبى كما أعرف أنا قبر شعبان » الآن بعد مضى زمن على مجىء الزينى آخر الليل لم تبرد حرارة ما قرره زكريا بعد انصراف الزينى ، ربما امتد الزمن سنين طويلة ، لكن ما قرره لابد أن يتم ، يتحقق يوما ، يراه مجسدا ، أى قوة استطاعت فى أى زمن منع كبير البصاصين من تحقيق غرض أضمره، لن يمنعه إنس ولا جان ، ولا ألف طلسم ، أبدا لن ينسى أيام العزلة التى فرضها على نفسه فى اليوم التالى لزيارة الزينى ، أمر بألا تدخل إليه

تقارير ، طلب من مبروك ألا يريه ملامح أى إنسان ، الطعام مضغه بضيق
عندما اضطر إلى تناوله ، عندما أنهى عزلته ، جاءه رجاله مهنئين ، لكنهم
ارتدوا عنه خائبين ، قابلهم بوجوم وضيق ، سر فى نفسه عندما أخبره
شهاب الحلبى باستعداد كبير أطباء السلطان للمجىء إليه طوال أيام عزلته،
فى الأسبوع الأول ، التالى لمجىء الزينى ، دخل مبروك قال « الزينى بركات
جاء » فى الفناء وقف ، يتحسس بعصاه جذع نخلة ضخمة مغطى برقائق
نحاس ، قال « أفضل لو جلسنا فى الشمس ، بيتى فى بركة الرطلى لا
تدخله الشمس » ، الزينى بركات ينكت الأرض بعصاه الرفيعة ، زكريا
يسند جبهته إلى يده اليمنى ، أرجو أن تسمعنى ، أن يتسع صدرك لى ..
زكريا يهز رأسه ، جاء الزينى بثيابه العادية ، لا يرتدى الملابس البدوية ،
أفكار كثيرة تدور فى عقلى ، لكنها لن تتم إلا بعرضها عليك ، أرجوك أن
تخطئنى إذا بدا لك هذا ، أنت أكبر منى علما وتجربة بما سأقول ، التردد
واضح فى ألفاظه ، ارتياح خفى يتسرب إلى زكريا ، أردت أن أفضى إليك
بما أوده وأرغبه لنظام البصاصين ، هل يمكن لإنسان أن يتخيل الأمر
بالمعروف والنهى عن المنكر بدون عيون مخلصة ترى فى كل مكان ما أراه
أنا .. قال زكريا بسرعة ، عندك رجالك .. نفض رأسه بسرعة ، سرور فى
صوته ، ربما لاستجابة زكريا إلى الحديث ، أعرف أنك ستقول هذا ، لكنك
يا زكريا تهول من أمر رجالى ، أليس من الأفضل للإنسان رؤية الدنيا
بعينين بدلا من عين واحدة ، صحيح ، ستقول ومعك الحق كله ، لدينا آلاف
العيون ، صحيح ، لا أعترض ، ولكن لو وجدت مجموعة أخرى لها نظام
مخالف ، طريقة ثانية ، ألا يصبح هذا مفيدا ، أولا .. اعذرنى لأننا لا نلتقى
بما فيه الكفاية مشاغلى كثيرة جدا يا زكريا ، تصور إنسانا يقر بالعدل بين
الناس فى مثل هذا الزمان ، أنت تعلم ما ينويه ابن عثمان ومهما طال الزمن
فالحرب واقعة لا محالة ، مهما طال يا شهاب ، لقد أخبرت مولانا بهذا ،
وأقولها لك صريحة ، بل إن ثقتى بك تدفعنى إلى التصريح بما هو أكثر من
هذا ، المشرق لا يحتمل دولة بنى عثمان ودولة المماليك فى مصر ، إما نحن

وإما هم ، لا تندهش يا زكريا ، أو بمعنى آخر لا تتصنع الدهشة ، أنت أدرى منى بهذا ، من يعطس فى القسطنطينية تسمعه أنت هنا ، كل حركة هناك أنت تعرفها ، وبإذن الله سوف يتغلب عليهم ، ببركة البيت الذى يحميه مولانا ، فكما ترى ، الأحوال صعبة ، لابد من لقائنا كثيرا ، ننظم أمورنا معا ، ما ينقله رجالى سأقدمه لك ملخصا كل يوم ، عندك تجربة مهولة ، عندك أدق نظام فى الدنيا لاستخدام الحمام الزاجل والبريد ، وأنا وأنت نشهر سيف العدالة ، أنا وأنت نقيم الميزان صحيحا لا يميل ولا يخل ، ما أريده يا زكريا أن يصبح رجالنا أداة العدل بين الناس كل الناس لابد أن تعرف هذا » كف الزينى فجأة عن الكلام ، بقى زكريا ناظرا إلى الأرض ، قال بعد لحظات « آه .. وبعد ؟؟ » وكأن الزينى لم يتوقف قط ، قال بسرعة «حتى لا أعطلك جئت إليك بأوراق فيها ما أتخيله ، أرجوك إبداء الرأى فيها» .. عند الباب شد على يد زكريا ، أدعوك إلى الغداء عندى . أى وقت تختار ؟ قال زكريا « لا أفارق البيت إلا نادرا .. » اتسعت ابتسامة الزينى ، « سوف أمد لك مائدة حافلة .. » قال زكريا إذن سأرسل لك ونلتقى قريبا ، عاد إلى الحديقة ليرجىء التفكير فيما قاله حتى الليل ، بعد قراءة هذه الأوراق ، لابد من النفاذ إلى باطن كل حرف ، الأمر ليس هزلا ، ما قدره منذ هذه الليلة ، يزداد رسوخا فى عقله ، لكن الحقيقة ، الزينى رجل لم يعرف له مثيل ، أحيانا يفكر زكريا ، بضرورة مجيئه بعد هذا الزمان بسنوات ، لا يدرى مقدارها تماما ، ولكن أليق به العيش فى زمان بعيد ، يلقى فيه أدوات يحلم بوجودها ، لا يدركها لعجزه ، وعجز زمانه عن تجسيدها ، هذا الزينى جاءه أيضاً من العصر الغامض النائى الذى يود العيش فيه ، مثله لا يستهان به ، مع مجىء الليل أدرك زكريا خاطر مزعج عند زيارة الزينى الخفية ، يعود إلى ممارسة وظيفة لم يشرع فيها من قديم ، تقريبا منذ توليه منصب مقدم بصاصى القاهرة ، قبيل ارتقائه إلى منصب كبير البصاصين ، الليلة يرتد إلى زمن بعيد تعقب فيه الخلق بنفسه، كان يتخفى فى ثياب أرباب المهن والوظائف ، وقتها استحدث

طريقة جديدة فى اقتفاء الأثر ، تعقب الإنسان بالسير أمامه ، وهذا لا يقوم به إلا عتاة البصاصين ، زكريا ابتدأ العمل بصاصا من أصغر الدرجات لم يسبقه أحد فى هذا، الليلة يرهف حواسه التى خدمته بصاصا صغيرا مبتدئا ، لكن أين ؟ هنا فى بيت ، كيف عرف الزينى أمر المملوك شعبان ؟ كعادته عندما يتفحص أمرا محير ا، يمسك قلما ويرسم أشكالا وخطوطا ودوائر ، لا معنى لها فى ظاهرها ، لكنها تساعده ، تركز فكره ، من رافقه عند ذبح المساجين ودفن شعبان ؟

مبروك ..

لن ينفى عنك الشك ، لا يعلو مخلوق عنده على الشك ، أبدا .. يوضع مبروك فى الدرجة الأولى حتى يثبت عكس ما يظنه ، ثم ، من يفترض انه تابعهما ، أو راقبهما خلال الدفن ؟ ، فى هذه الليلة خلا البيت تماما ، لكن ليحصر المترددين على البيت .

ـ شهاب الدين الحلبى .

ـ مقدم بصاصى القاهرة .

رجال الديوان ، وكلهم معروفون لديه .

ربما نفذ أحدهم ، استطاع رؤيتهما بطريقة ما ، لم تتضح حتى الآن ، نقل ما رآه إلى الزينى بركات ، هذه فعلا مصيبة ، كيف يطل الغريب عبر الأسوار ، لابد من مراجعة ما كتب عن رجاله واحدا واحدا ، أصولهم ، أحوالهم ، أمزجتهم ، أفكارهم ، ثم يضيق الحلقات ، يمد الخطوط ، يضع الدوائر ، حتى تضيق الحلقة حول عنق بعينه ، ثم ينتقل إلى معارفه وأقاربه خارج رجال الديوان .

ـ الحريم .

(أ) نساؤه الأربع

(ب) الجوارى

من الليلة ، سيرى كلا منهن ، ليبدأ بأقدمهن ، حكمت ، أولى حريمه،

هجرها منذ وقت ، ولم يزرها ، الليلة يبدأ بها ، وعندما يشم عبير المسك ، يرشف عصير العنب ، يأكل الدجاج المسقى بالسمن وماء الورد ، تخرج الأسئلة منه تائهة بلا قصد ، الباقيات لكل منهن وقت يلى الليلة ، الجوارى، « وسيلة » لكنها طفلة لا تكاد ، جاءته قبيل تولى الزينى بأسابيع ، من يدرى، لن يخرج أحد عن دائرة الشك ، يبقى احتمال لجوء الزينى إلى حيلة جديدة يجهلها زكريا ، هذا ما سيحاول الوصول إليه ، لابد من ذهابه إلى « بركة الرطلى» ، الزينى يقترح عليه بحث الوسائل والخبايا يريد معرفة طرقه، لا يغيب عن زكريا الضيق الذى جاءه ، صحيح أنه يأخذ حذره من جميع الناس بما فيهم أقربهم إليه ، العاملون فى بيته ، حريمه ، فليأت الذين يشهرون به ، الذين يلعنونه ، ليروا أى هم يعانيه ، أى متاعب تحل به؟ خط عدة دوائر ، منذ الآن سيكون كل واحد فى بيته عينا على الآخر ، كل امرأة سترقب الأخرى ، الرجال ، يذكر بعض التواريخ الخاصة بالبصاصين ، تمكن ملك المغول ـ أحد أحفاد كبيرهم جنكيز خان ـ استطاع أن ينفذ إلى بصاصى بغداد ، إنسان واحد فقط اعتلى منصب نائب كبير بصاصى دولة الخلافة العباسية ، وهكذا وقف على أسرار الخلافة كلها ، راسل بها المغول زمنا طويلا ، حتى اجتاحوا بغداد وهم على علم بأية أرض يخطون فوقها ، وكان ما كان ، قام زكريا تحن روحه إلى التجوال فى المدينة والليل مطبق فوقها لكنه لن يخرج أبدا ، عندما يتبين له الإنسان الذى أبلغ الزينى بما تم ، يتخيله الآن ، الغل يعتمل فى بئر قلبه، يرى بعينى عقله ألوان العذاب التى سينوعها لصاحب تلك الفعلة ، أى طريقة مستحدثة لا تخطر ببال جن ولا أنس يختارها لإنهاء حياته ، أى طريقة ، أما ما قرره بخصوص الزينى بركات بن موسى فلن يتراجع فيه حتى لو أفنى عمره كله .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

« ما أقدمه إليكم ليس إلا مجموعة خواطر وأفكار تراءت لنا ، إذا ما رأيتم صلاحيتها أرجو أن نعمل معا على إقرارها ، حتى يستقيم العدل ويستقر ولن نبالى فى هذا إلا مرضاة رب العالمين ، وكما تعرفون فإن أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، قال (من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله شرهم ، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم ، ومن أحسن فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ أحسن الله فيما بينه وبين الناس ، ومن أصلح سريرته ، أصلح اللّـه علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله شر دنياه » . وبعد،

كان أساس عملنا ـ أنا وأنت ـ إقرار الأمن والعدل في ربوع السلطنة وسأقصر حديثى الآن على دائرة اختصاصى (القاهرة والوجه البحرى الذى أضافه السلطان إلى نظارة حسبتى أخيرا) أما فيما يخص ربوع الشام ، فهذا أمر أنت عليم به ، خبير فيه ، ولا أقر عليه ، وحتى يستقر العدل فى بر مصر لابد من إقامة أسس قوية ، ودعائم متينة ، وكما هو معروف لدينا ، فهذه وظيفة مكروهة عند الناس ، فمن سبقك لم يظهر إلا جانبها الوحشى ، حتى غاب عن الخلق ضرورة وجودها وعدم استمرار الدنيا بدونها ، من هنا فلابد من وصولنا إلى لحظة يصبح فيها كل بصاص محبوبا مبجلا من الجميع ، رجال الدنيا والدين ، وسيتم هذا بوسائل عدة سنناقشها معا لكن ما يهمنى الآن تقسيم الجماعات والفئات التى سنعمل خلالها ، وتحديد أهمية كل منها ، وضرورة التركيز على بعضها دون الآخر.

تنقسم مصر إلى فئات (وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات)

١ ـ السلطان والأمراء الكبار .

٢ ـ المماليك والأمراء الصغار .

٣ ـ أولاد الناس ، المتعممون ، والفقهاء أرباب الطوائف والحرف ، التجار .

٤ ـ العامة من الناس .

بالنسبة للفئة الأولى ، يجب النفاذ إلى خباياها ، عن طريق بصاصين متخصصين على درجة عالية من الرفعة والإلمام بالعلوم والقدرة على المناقشة ومعرفة تقاليد هذه الفئة وعلومها ، وغرضنا هنا حماية مولانا السلطان والأمراء الكبار ، وأرى أن يكون البصاصون المخصصون للتوغل داخلهم من نفس الفئة (على خلاف المتبع حاليا) .

● المماليك والأمراء الصغار وتخصهم فرقة تتبعك وتقوم بعملها خير قيام.

● الفئة الثالثة لابد من التركيز عليها ، والاهتمام بها اهتماما كبيرا فلهم تأثير عظيم على الفئات القريبة منهم ، الجماعات العلوية (الأمراء والأكابر) أو السفلية (العامة والأوباش) .

● عامة الناس وهم دائما مثيرو الفتن ، ربما حركوا بعض المتعممين والفقهاء فى ظروف عدة ، وأجدنى مضطرا إلى تقسيمهم .

(أ) طلبة الأزهر والكتاتيب ، وهؤلاء لابد من تتبعهم باستمرار ، وإثارة بعض الفتن من حين إلى آخر من ضل ومال إلى جانب إثارة الفتنة والغم ، وتحريض الأوباش على سادتهم . هؤلاء لا يجزرون من بين الناس فربما أثار هذا سخط العامة ، إنما يعاملون بطرق مختلفة وأساليب متنوعة سنتفق علها معا .

(ب) بالنسبة للعامة فهؤلاء قطيع يتجه كيفما توجهه إنه بحر زاخر طوع الريح ، وحش بلا عقل تسوسه فيطيعك ، والأعمار فى هذه الفئة لا قيمة لها، فكلما ضاقت سبل العيش ، قلت قيمة الحياة ، وذهب عناء الحرص عليها ومن هنا فلا بأس من اختفاء بعضهم من حين إلى آخر ، بطريقة لا يعرفها أحد ، وهذا يرهب الباقين .

أرجو مساعدتى فى إعداد كشوف تضم أسماء جميع العاملين فى الحرف والمهن والصناعات والتجارة ، كشف يحوى أسماء القصابين وآخر به البناءون ، والمرخمون والصباغون ، و النقاشون ، والعقادون ، والصدفجية، والنساجون ، وباعة الحلوى والمشبك ، والشريتلية ، وغيرهم .

لابد من من حصر المواليد الذين يجيئون إلى الدنيا وكل أب ينجب طفلا لا يبلغ عنه إلى نائبى فى المنطقة التى يقيم بها يعاقب بالجلد ، وبإذن اللّه أنوى شنق عدد منهم فى البداية حتى يرتدع الباقى وهكذا يمكننا معرفة أعداد القادمين ، من سيخلفوننا فى دنيانا ، ندرجهم فى كشوف ، نتتبعهم فى نموهم ، تلقيهم التعليم ، سواء أكان التعليم دينيا أو دنيويا ، فى طائفة أو حربيا بالنسبة لأولاء الأمراء والمماليك ، تقدم عنهم التقارير كل فترة بعينها ، بحيث نعرف ميولهم وأهواءهم ومكامن الخطر فيهم ، حتى إذا ولينا عن الدنيا ، حانت آجالنا ، وهذا الأمر لا يعلمه إلا اللّه ، تركنا لمن يأتى بعدنا سجلا نافعا جامعاً لكل ما عركناه ، وما رأيناه فى زماننا ، وبالنسبة لهذا الأمر قررت شهر النداء به والعمل به بعد أن وافقنى السلطان عليه .

أرى ونحن مقبلون على عصر كله محن ، وفتن ، ونظرا لتعدد الطوائف والأجناس فى بر مصر، أن تعد بطائق صغيرة من الجلد ، يحملها الصغير والكبير والبصير والضرير ، يوضح فى كل بطاقة رقم معين هو ما يقابل الرقم المدرج ، بالكشف أيضا المهنة التى يزالولها الشخص ، الجهة المقيم بها. تختم هذه البطائق بخاتمين أحدهما من عند نائبى فى منطقة الاقامة ، والآخرمن مقدم البصاصين فى نفس المكان ، ومن ضبط بدون بطاقة جلد ، عوقب معاقبة شديدة ، وعند وفاة الانسان تقوم أسرته بتسليم بطاقته إلى مقدم البصاصين لترفع إلى الديوان فيشطب اسمه من الأحياء ، وينقل إلى كشوف الأموات ولا يستثنى الحريم .

فى المدة المنقضية على ولايتى للحسبة ، لاحظت طلوع حكايات بين الحين والحين تنتقل بين الناس الغرض منها التشهير بأحد كبار رجال السلطنة ، ومنى شخصيا ، وهذا أمر تتفق معى على ضرورة مقاومته وإزالة أسبابه حفاظا على هيبة الأمراء ، والرجال الأكابر ، وأضرب مثلا بسيطا ، عندما أردت إنارة القاهرة بالفوانيس ، تردد كلام كثير حول الموضوع واعتبر واقعة عظيمة أدرجت فى كتب التاريخ ، مما اضطرنى إلى الرجوع عن أمر انتويته ، وشرعت فى البدء فيه ، هذا لم يغضبنى قط ربما أخطأت الوقت ، لكن مـا آلمنى وأوجعنى هذه الحكايات التى ترددت على ألسنة العامة ، وهم يحبوننى ، مما دفع بى الظن باختلاق هذه الحكايات والنوادر ، وأنت كنائب للحسبة ونائب لى فى جميع ما أتولاه من مناصب (قررت هذا أخيرا) ، وما يلحق بى اليوم ، يلحق بك غدا ، ومما يمسنى يمسك ، لهذا أرى أنك الوحيد القادر على مقاومة واخفاء هذه النوادر والحكايات حال ظهورها ولن أقبل عذرا ، فلا مستحيل يحول بينك وبين ماتريده .

واقبل منى السلام ، وأدعو معك أن يجعل الله هذا البلد آمنا .

(متولى حسبة الديار المصرية)

والى القاهرة

الزينى بركات بن موسى

عمرو بن العدوى

لا يدعه يغيب عن عينيه ، إذا بعد عنه ، عرف أخباره من أصحابه المجاورين ، يجلس هادئا بينهم ثم يسأل عنه سؤالا عارضا بلهجة يعرف الآن كيف يلونها تماما ، « ألم ير أحدكم سعيد الجهينى ؟ يقول أحدهم «خرج منذ الصباح » ، يجيب آخر « سعيد تعود الجلوس فى مقهى قريب من جامع قلاوون » ، يقول عمرو « سعيد ابن حلال » ، يسكت ، منذ أيام خرج عمرو إلى الطرقات يرى أياما نائيات يمسك فيها بجلباب أمه ، خرجا إلى الحقول لينتزعا البطاطا ، رائحة الضباب لم تفارق أنفه رائحة الخبيز ساعة الظهيرة، البوص ، وهج الأفران ، جريه مع الأولاد عند مجىء نائب المحتسب ، نظرات الحريم المذعورة من الطيقان الضيقة ، خوف يضم القلوب ، عند سوق النحاسين يشم دخان المستوقد المجاور لحمام قلاوون تسوى فيه قدور الفول المدمس .

صباح الخير .. يرفع حمزة بن العيد الصغير يده .. « أهلا .. أهلا بالقمر .. »

منذ ثلاثة أسابيع يمر يوميا على حمزة ، يشرب القرفة بالحليب ، يدفع درهما كاملا بدلا من نصف درهم ، فى أحد الأيام تغيب عن المجىء ، فى اليوم التالى أبدى حمزة جزعا ، تمنى ألا يكون لحقه مكروه ثم دعا له بطول الستر ، عمرو يجىء هنا فىُ أوقات معينة ، يعرف من تتبعه لأخبار سعيد ، مواعيد حضوره ، قال مقدم البصاصين ، تردد سعيد إلى مقهى حمزة ، أمر جديد لم تبلغ عنه إلا أنت ثم قضاؤه وقتا فى تدخين المعسل هذه علامة جديدة ثم ما الذى دفعه إلى اختيار هذا المقهى بالذات ، تلك أمور لابد من إيضاحها ، فى البداية حامت حوله الظنون ربما يتخذ الدكان مكانا للقاءات مريبة ، لكن الرقابة الصغيرة المحكمة ، أثبتت أنه يقضى الوقت كله منفردا لا يتحدث إلى أحد فيما عدا حمزة بن العيد الصغير ، حامت الظنون حول الألفاظ المتبادلة بينهما ، لكن ثبت أنها لا تعدو طلبه

الحلبة ، أو تحية ، أو تبادل المودة ، وكلها ألفاظ لا تخرج عن حديث زبون وصاحب مقهى ، وإن تميزت بود زائد ، أيضا طريقة طلبه للحلبة لا تدعو للريبة ، لا يقرن طلبه بأية إشارات خفية أو رموز سرية ، ربما تضمنت معانى دفينة تغيب عن اللبيب الفطن ، أما المحير فهو موضوع تفكيره خلال جلوسه بالمقهى مقدار ساعة أو ساعتين ، فى مرة أخرى قال مقدم البصاصين « لابد من وجودك على مقربة من سعيد الجهينى » عمرو يعرفه، ينام فى الرواق بالقرب منه ، عالم بطبائعه ، بلحظات سروره ، ولحظات كآبته ، وما يصاحبها من علامات ، أو انقباضات وجه ، من هنا يمكن لعمرو لو راقبه جيدا تتبع اختلاجات وجهه ، ارتعاشات عينيه وحركات يديه، ربما توصلوا إلى شىء، لكن لابد من الحذر ، بحيث يجلس عمرو فى مكان لا يمكن لسعيد أن يلحظه ، تساءل عمرو « كيف يمكن هذا والمقهى ضيق على صاحبه ؟ » هنا فرد مقدم البصاصين بين يديه ورقا عريضا ، به رسم المقهى وما احتوى عليه من أوان ، ومقاعد منحوتة فى الجدار ، أشار إلى فجوة فى الحائط قريبة من نصبة الفحم والحلبة والسحلب « هنا ستجلس » وسعيد لا يدخل ربما يبقى فى الخارج ، تستطيع رصد حركاته بدون أن يراك ، لكن يجب ألا يأتى جلوسك هنا مرة واحدة من اليوم ، اذهب إلى حمزة بن العيد الصغير ، عامله بمودة ، أجزل له العطاء ، كوب الحلبة عنده ثمنه نصف درهم ، أعطه درهما كاملا ، هل تحب الحلبة ؟ ياه.. نسيت عشقك للقرفة بالحليب ، الثمن واحد ، عموما ستأخذ مصاريفك كاملة أول كل أسبوع ، من اليوم ستذهب إلى الدكان لمدة خمسة عشر يوما، بعد صلاة المغرب فى أى وقت بعد العشاء يمكنك أن تجلس فى أى مكان تشاء . سعيد لا يأتى فى هذه الأوقات ، فى اليوم السادس عشر اذهب مبكرا إلى الدكان ، اطلب إلى حمزة بن العيد الصغير أن يبقيك جالسا فى هذه الفجوة ، هنا ..ابق ولا تتحرك ، أظهر الحزن ، وعدم الرغبة فى الكلام سيجىء سعيد .. سيجلس هنا ، هل ترى ؟ ومن مكانك ستراه تماما ، لن يتمكن من رؤيتك .. هل فهمتنى ؟ أبدى عمرو تعجبا لدقة

التفاصيل . سخط الدكان ومسخ ليبقى بهذا الحجم فوق الورق ، قال المقدم « توكل على الله .. اسمع .. هل تحتاج نقودا ؟ » هز عمرو رأسه « خيرك يغرقنى » بقيت يده معلقة بين يدى المقدم ، « ما أخبار الوالدة ؟ » كأن فصا مر الطعم ذاب فى ريقه ، لا يعرف لها خبرا ، عندما رجع شيخ زاوية العميان ، أسرع إليه ، يعرف أنها لابد سترسل إليه شيئا من البلد ، ربما أرغفة بتاو ، قدر ملىء بالمش والجبنة القديمة تصل به الزمن الذى قطع المسافة بينهما ، عمرو لن ينسى أبدا صوت الرجل قال « لم أعثر لها على أثر» ، قالوا فى البداية إنها لم تمت ، منذ مدة بدأت تتحدث عن مجىء هاتف فى المنام أنذرها بقلة ما تبقى من عمرها ، لابد من رؤية عمرو ولدها، وحتى لا تشغله عن طلب العلم قالت لصاحبتها سكينة الدودة التى تصنع أوانى الفخار ، الدودة هى التى تلقت عمرو عند ولادته ، فوق كوم برسيم أخضر قطعت حبل خلاصه « يا دودة أنا سأسافر إلى مصر لأرى كبدى » قالت الدودة « مصر بعيدة وأنت ما رحت إليها أبدا » لكنها أصرت ، قالت لكل رجل فى البلدة والنساء ، حتى الأطفال ، توقفهم فى الطرقات وتحكى لهم عن ولدها عمرو ، ضرورة رحيلها إليه وتتمنى لهم أن يكبروا ويصبحوا مثله . أعطتها الدودة زوادة أكل ، فى يوم صحت فلم تجد أم عمرو ، داروا عليها فى غيطان البطاطا ، وملقة البطيخ ، لم يعثروا لها علىَ أثر ، ولم يذكرها أحد ، بعد وقت قليل لم يحتجها أحد يوما ، إنما هى التى احتاجت الناس دائما ، تعجب شيخ زاوية العميان قال « ظننت أنها جاءت إليك » غامت عينا عمرو ، حين رأى أمه فوق طريق مترب مهجور يصل بين قريتين، تقطعه ترع ، حفر ، غابات نخيل ، ينزل عليها الليل لا تلقى ما تدفىء به معدتها ، تسأل القادمين والذاهبين عن الطريق إلى مصر ، أحيانا يوقن عمرو بقربها منه ، ربما يلتقى بها فجأة ، هل سيعرفها ، ربما غيرتها المسافة ، ربما ضعف بصرها. فلا يمكنها رؤيته ، ثلاث سنوات لم يسمع لها حسا ، لم يلحظ ارتعاش هدبيها ، هو تغير ، تجىء لحظات يلوم نفسه لوما عظيما كيف انقطع عنها ثلاثة أعوام ، كيف .. لا فائدة ترجى ، جرح

غرس نفسه فى كليته فى قلبه لكن ماذا يحدث لو مرت فى الطريق أمامه ، اثناء مراقبته لسعيد ، هل يقوم منتفضاً، كاشفا نفسه ، يعانقها ، يدرك سعيد ما يحاك له ، يعلم مقدم البصاصين بإفساد ما تم تدبيره ، عمرو ليس بمفرده فى المقهى ، يعرف هذا تماما ، هناك عين أخرى ترقبه ، ربما حمزة بن العيد الصغير نفسه ، ربما غيره ، شخص واحد ينفى عنه الشك هو سعيد الجهينى نفسه ، ومن يدرى ، ربما يتعرض لاختيار رهيب تمهيدا لتصعيده فى سلم البصاصين ، أبدى المقدم تأثرا واضحا ، قال هذه حالة أصعب من الموت نفسه ، قال انه سيوصى النواب فى سائر البلاد بإبلاغه عنها . لابد من كشف أمرها ، فى لقائه مع المقدم رأى تغييرا ملحوظا لا تخطئه عين فى طريقة حديثه ، معاملته ، لهجته أرق ، يبدى اهتماما زائدا عن الحد بشئونه الخاصة ، لا يهدد كالعادة ، هذا أفضل . عمرو أكثر قربا منه بعد اللقاء ، الآن يجلس منكمشا فى الفجوة ، تعلم من المقدم ألا يمل ولا يزهق من مرور الزمن ، ربما دفعته الظروف إلى النظر من خلال ثقب مشربية يوما كاملا ، يرقب وصول إنسان بعينه قد لا يجىء ، عليه ألا يدع للضيق سبيلا إلى روحه ، بالفجوة رطوبة ، وفى القلب حنين إلى عجوز لا يعرف مكانها ، إلى أى أرض تمضى ، بأى أرض تموت ، لكن الحنين يجب أن يتوارى ، الآن يعمل ، يسعى من أجل لقمة عيشه ، لم يقربه حمزة كما رجاه ، جاء ثلاثة من مشايخ الكتاتيب التى تحفظ القرآن للصبية ، أحدهم يرشف السحلب بصوت مسموع .. تضايق عمرو ، ترحم أكبرهم سنا على أيام زمان عندما كان الصبية يسعون بأرواحهم إلى حفظ القرآن وتلاوته ، لكن الزمن ما عاد الزمن ، الصبى ابن العاشرة يجلس أمامك وكأنه قاعد على فرخ جمر ، ما يصدق الحصة تخلص حتى يهج ، قال أحدهم « والشقاوة .. أعوذ بالله منها .. » ، قال ثالث « هذه علامات الساعة » تساءل عمرو بينه وبين نفسه « ما الذى يقصده بعلامات الساعة ؟ » لينتبه ، صحيح أنه هنا من أجل سعيد ، لكن لابد من الإصغاء إلى ما يجرى ، ربما طلع بحديث له قيمته ، ربما وقع مصادفة على ما لن يقع عليه بالترتيب

والتدبير . قال أكبرهم « أى والله .. لا أعجب لو أخبرنى أحد عن بغلة أنجبت » . قال الثالث : أقصرهم قامة « نستعيذ بالله يا مولانا .. لو حملت بغلة وأنجبت لكان هذا علامة على انتهاء عمر الدنيا » قال غليظ الصوت ، « وما أدراك أنها لا تنتهى » أصغى عمرو ، حديث طريف لكن له مغزى .. بأى سيم يتخاطب العجائز ؟؟ ليفتح أذنيه تماما ، عندما قابل مقدم البصاصين أول مرة قال له ، « البصاص المكين عبارة عن أذنين وعينين ، يسمع ويرى ، يحفظ وينقل ، حتى فى ساعاتِ نومه » ، عشنا وشفنا بدعا لها العجب ، يعنى الآن لا يقدر إنسان على الحركة من بيته إلى الجامع إلا بقطعة الجلد هذه .. والله عجيب » ، قال قصير القامة « لم نسمع بهذا من قبل » آه لو يعرف عمرو أى الكتاتيب يديرون ؟؟ سيسأل حمزة عنهم آخرالنهار أو غدا حتى لا يثير ريبته ، وحتى يثبت التزامه بقواعد البصاصة الصحيحة ، لو صح أن حمزة عين ترقبه ، انتبه عمرو إلى وصول رجلين من التجار ، دخل أولهما ، أشيب الشعر وهو يسأل ؟ « يا ترى هل خلع السلطان عمامته الخفيفة ، ولبس الكبيرة » قال الثانى ، « لو تم هذا فمعناه شفاؤه من مرضه لكن البشائر لم تدق بهذا » ، تساءل عمرو ، من أى حى هما ؟؟ فى الناحية الأخرى أكبر الشيوخ « ومن علامات الساعة ظهور المسيخ الدجال » ، التاجر أشيب الشعر ، « أنا متأكد أنه ارتدى العمامة الكبيرة وقابل الأمير طومانباى » ، يقول ثانى المشايخ « والله أشعر أن المسيخ الدجال يسعى بيننا» ، يدق قلب عمرو ، هذا خطير ، التاجر الصغير : « لا أصدق أبدا أن السلطان ارتدى العمامة الكبيرة، وإلا .. فأين البشائر، آه .. أين البشائر ؟؟ » الشيخ أشيب الشعر، « أى والله ينقصنا طلوع الشمس من المغرب » التاجر الصغير «عموما .. أنا لا أستبعد هذا .. ربما» دخل رجل رفيع أسمر حول رأسه عمامة صغيرة زرقاء نصرانى من أهل الذمة ، حمزة بن العيد الصغير حدث عمرو عنه ، لا يتحدث كثيرا ، انتظار الكلام منه كنزول المطر فى بؤونة، كل يوم يجىء أربع مرات ، مرة بعد طلوع الشمس بمجرد فتح الدكان ، وفى الضحى ، ثم العصر ، وقبيل

إغلاق الدكان ، آه .. يضحك المشايخ ، هل فاته شيء ؟ أشيب الشعر يقول « سيمد الله فى أجلى حتى أشمت فى زمنى » يضحكون ، لابد أن يتذكر الجملة جيدا ، التاجر الصغير« اشترينا الأردب بدينار ونصف اضطررنا إلى هذا .. » ، تغير موضوع حديثهما ، النصرانى فى كل مرة يشرب كوبا من اليانسون بلا سكر ، يدخن كرسيين من الدخان، لا يدخن تبغ الدكان ، إنما يحمل معه كيسا جلديا متشققا مليئا بالتبغ الأصفر الجيد ، له رائحة لا مثيل لها لا يعرف حمزة من أين يحضره ؟ يتناول مقدارا معينا لا ينقص ولا يزيد ، يطلب من حمزة رص الكرسى ، يتابعه بدقة ، يبدأ التدخين ، ينفث الدخان من أنفه كأنه يتألم أو يعانى وجعا، يحرك رأسه يمينا وشمالا، يشكو شكوى صامتة إلى الشيشة ، يحدثها عن ظلم فادح حل به ، قرب انتهاء الكرسى ، ينظر إليه ، يسوى الفحم ، يضغطه ، يحيط الحجر بيديه ، يميل عليه ، ينفخ بفمه ، رجاء أخرس ألا تنتهى أنفاس الدخان ، يقول الشيخ قصير القامة « أى واللّه .. أى واللّه » يرد أشيب الشعر « لكننى لم أصدقه قط .. أقسم الأيمان المغلظة لكننى لم أصدقه » حمزة حكى ما يعرفه عنه ، يسكن فى وكالة الفراخ ، قرب خان الخليلى ، لا زوجة عنده ولا أولاد، مرة رآه حمزة يبكى ، يبكى بدموع تنسال من عينيه سهلة لينة بلا مانع ، بلا نشيج ، تساءل عمرو ، من أين يأتى بالتبغ ؟؟ ما الذى يجعله مهموما ؟ كأنه يتحدث إلى رجال اختفوا عن العيون كلها إلا عينيه هو ، آه .. سعيد يجلس أمام الدكان ، حضور مفاجىء لم ينتبه إليه ، لم يذكر رؤيته المفاجئة: هذا أمر يحسب عليه ، يقعد فوق الدكة ، أطرق ، عمرو يحاول تهدئة دقات قلبه ، حقا لا يزال الشوط بعيدا حتى يصل إلى حد الكمال ، أن يرى مهما يرى ، لكن مشاعره لا تتغير ، لا تتبدل ، هذه درجة راقية لا يصل إليها إلا كل بصاص مكين ، آه لو هناك حيلة ينفذ بها الإنسان إلى ما يدور فى عقل الآخر لعرف البصاصون دلالة رعشة العين ، أى الخواطر دفعت الأنف إلى اختلاجة سريعة ، تراجع عمرو حتى ألصق ظهره بجدران الدكان .

* * *

نــــــداء

يا أهـالى مصــر
نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر
انكشف المستور
منذ ستة شـهور
تسلم الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القـاهرة
تسلم الأمير ماماى الصغير
وبعد أن قرره ، احتاط على موجوده
وظهر لديه ما قيمته ،
تسعون ألف دينار
وهذا يزيد عما يطلبه السلطان
بعشرين ألف دينار
وقد سلمت الأموال جميعها
إلى بيت المال ،
يا أهـالى مصــر
أمر الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القاهرة
بفرض ضريبة على بيوت الخطأ
ومنع تردد من هم دون العشرين عليها
حفاظا على الخلق ، و الشريعة

ياأهــالى مصــر
بعد يومين ، يسافر الزينى
إلى جهات دمياط ، والدقلهية
لكشف أمورها
ودفع العربان عنها
وإقرار النظام بها
وسوف يقوم بأعماله فى غيبته
عبد العظيم الصيرفى
صراف الحسبة
ونائبها لشئون الأموال
وجميع الأمور ستبقى على حالها
وسيعاقب المخالف
يا أهــالى مصــر
تعهد الزينى بركات بن موسى
ناظر الحسبة الشريفة
ووالى القــاهرة
إلى مولانا السلطان
باستلام الأمير بكتمر الساقى أمير عشرة
واستخراج أموال المسلمين منه
ويقدرها الزينى بخمسين ألف دينار خالصة
غير ما يظهر
من المخبأ ..

* * *

عاجل :

إلى مقدم بصاصى القـــاهرة

في يوم الاثنين ، في الصباح ، حيث خرج الخلق يحتفلون بشم النسيم ، يمارسون اللهو والفرجة ، رأيت سعيد الجهيني ، وفي الحال تواريت عنه ، لم يكن بمفرده ، إنما تصحبه امرأتان ، احداهما كبيرة السن، اقتفيت خطواتهم ، من باب الخلق إلى حدائق بولاق ، وهناك لحق بهما شيخ معمم اسمه ريحان البيروني ، اعلم بتردد سعيد على بيته ، وبدا سعيد ـ وأنا أقطع الشك باليقين ، والتردد بالثبات ـ مولها ، مدلها ، غارقا حتى أذنيه في عشق ابنة الشيخ البيروني ، وعرفت من أصحابي المجاورين أنه كثيرا ما يلفظ باسم « سماح » أثناء نومه وسماح هي ابنة الشيخ وقد أمضيا اليوم كله في حدائق بولاق ، انفرد سعيد بها مرتين ، حدثها وحدثته ، وسوف أتابع ما يستجد .

عمـرو ......

نـــداء

يا أهالى مصر

يعلن عبد العظيم الصيرفى

صراف الحسبة

إن كل شىء على حاله

والأسعار كما قرر الزينى

وأى تاجر يتلاعب

دمه مباح

حتى يرجع الزينى من غيبته

* * *

نـــداء

يا أهالى القاهرة

أمر عبد العظيم الصيرفى

بشنق بائع بيض على باب دكانه

لأنه زاد سعر البيض

* * *

نـــداء

يا أهالى القاهرة

أمر عبد العظيم الصيرفى

بقطع ألسنة ثلاثة شبان

ضبطوا يشيعون البلبلة

* * *

نــــداء

يا أهالى القاهرة
أمر عبد العظيم الصيرفى
بتسليم ثلاثة مغاربة
إلى الشهاب الأعظم زكريا
النائب الأول للحسبة ، ولوالى القاهرة
بعد ثبوت اتصالهم بابن عثمان

* * *

نــــداء

يا أهالى القاهرة
يأمر عبد العظيم الصيرفى
بأن يفتح كل إنسان أذنيه
ويدل على من شك فى أمره
بوجود صلة له مع ابن عثمان
وله مكافاة
يا أهالى القاهرة
غدا ..
يتوجه الشهاب الأعظم زكريا
إلى جامع شيخون
ليؤم الصلاة
ويخطب فى المؤمنين
والجامع مفتوح أمام الراغبين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اجعل هذا البلد آمنا .

«ديوان سر الشهاب زكريا بن راضى»

نبذة مرسلة بالحمام الزاجل

إلى الزينى بركات بن موسى متولى حسبة القاهرة والديار المصرية ، ووالى القاهرة ، إلى دمياط.

١ ـ من هو الشيخ ريحان البيرونى ؟؟

هو الشيخ ريحان بن محمد الأسيوطى بن عامر الفاضل أحمد بن إبراهيم ، أما البيرونى فلقب لصق بالشيخ ، منذ أن درس علوم المنطق على يدى شيخ ضرير أتى إلى الجامع العتيق فى أواخر عام ٨٠٥ هـ جاء من بلاد الشاه إسماعيل الصوفى ، اسمه الشيخ البيرونى ولم يكن شيعيا ، أو منتميا إلى أى طائفة من طوائف الرافضة ، إنما هو سنى متعمق ، عاش بمصر ولم يتزوج حتى مات عام ٨٨٣ هـ . دفن بالقرافة الشرقية مع العلماء الصالحين .

عمل الشيخ ريحان كاتبا صغيرا بديوان سر قاضى القضاة ، وفى هذه المدة قام بصياغة الحجج والفتاوى التى تصدر عن قاضى القضاة ، وأتقن عمله ، كما أتاح له هذا فرصة مشاهدة الأمراء وكبار رجال السلطنة عن قرب ، ومن قبل لم يرهم إلا فى المواكب ، وعندما كان يلمحهم يتساءل ويروح عقله إلى بعيد ، هل يضحك هؤلاء الأكابر كبقية الناس ، هل يتبادلون النكات ، والقفشات ، هل يداعب الواحد منهم صاحبه ، يناديه بألفاظ الألفة والمودة ، تساءل كثيرا عن طريقة أكلهم وكيف يقدم لهم الطعام يغمض عينيه ، يرى نفسه مقربا إلى أمير كبير ، وقريب من مجلس السلطان نفسه، لكنه لا يدرى ما يقوله لهم ، بل من الثابت فعلا ، وهذا دلت عليه شواهد وقرائن ، أنه تساءل إلى أحد أصحابه ـ فى الفترة ما بين

عامى ٨٦٣ هـ و ٨٧٥ هـ ـ عما إذا كان شخص مثل الأمير تمربغا أتابك العساكر وقتئذ ، يبول ويفعل كبقية الناس ؟؟ بل قال لصاحبه ، كيف يتعرى السلطان ويلفح الفراغ مؤخرته الضخمة عندما يعلو امرأة من حريمه ، يسيل ريقه ، يغمض عينيه وترتعش أطراف حنكه شهوة ورغبة ، واعتبر البيرونى مثل هذه الأسئلة أمورا كبيرة ، تستحق مؤلفا ضخما ، تمنى لو نفذ إلى الأكابر العظام ، صاحبهم بادلهم الرأى فى الزمان ، ما يأملون فيه ،ما يحلمون ، رأى نفسه يجلس إلى أتابك العسكر ، يدخنان سويا بعد عشاء هنىء ، يميل عليه الأتابك ، يسر إليه بسر لا يعلمه إلا هو ، أو الأمير الجوكندار المحمدى ، يقص عليه حكاية خاصة جدا تتعلق بالسلطان ، ثم يطلب منه ألا يفضى بها إلى أحد من الناس ، لأن السلطان لو عرف بتسريبها لأطاح برقبة من حكاها ومن سمعها ، لا يتخيل مدى سروره وفرحته وعظمة بهجته عندما تفضى إليه أسرار لم يسمعها غيره ، أن يمشى فى شارع الصليبية ، سوق الليمون تحت باب الفتوح ، حوله الخلق ، باعة ومشترون ، فى عقولهم مشاغل الدنيا الصغيرة والتافهة ، أما دماغه هو فيعج بالأسرار ، وعندما يجلس بأحد الدكاكين ، يشرب الحلبة أو السحلب المخلوط باللبن ، يرى نفسه وقد قضى الليل كله فى قصر أمير كبير ، لم ينم ، لم يأخذ راحته وحقه فى النوم ، يضطر مع هذا إلى الذهاب إلى ديوان المكاتبات ، يصوغ الفتاوى والحجج ، هنا ، يشعر بعينيه مجهدتين فعلا ، بل يتثاءب عدة مرات ينظر إلى المحيطين به ، يلحظون كسله وتراخيه ، لو سألوه فسيوضح لهم فورا أنه طوال الليل يجالس الأمراء ، ينادم الكبار العظام ، فيعذرونه ، ينتهزون لحظات راحته فيسعون إليه، يطلبون منه رفع أمرهم إلى ذوى الشأن الذين يعرفهم ، يرجونه فى الوساطة وقضاء شئونهم ، فهو طيب القلب لا يرد محتاجا عن بابه .

تتكاثر عنده الفتاوى التى يعمل فى صياغتها ، يضيق بطلبات عبد البر أن يسرع ، يرى نفسه داخلا على الشيخ عبد البر قاضى القضاة ، يقف أمامه ، عبد البر تأخذه الدهشة ، ما الذى غير حال مستخدمه ،

نظراته جامدة ، عماماته كبيرة ، عطر وطيب يفوحان منه ، بهدوء يميل عليه الشيخ ريحان يطلب منه ببساطة ألا يتعجله ، حسه منخفض ، لا بل مرتفع، أبدا الأفضل أن يكون منخفضا واثقا ، ألفاظه بليغة ، سيقول لعبد البر إنه يطيل السهر مع الأمراء ، إنه من خاصة الأمير بكتمر ، ونديم منطاش ، ومستودع سر الأمير طومانباى نفسه ، أما الأمير تمربغا فلا يتوكأ إلا على كتفه ، سيفزع عبد البر ، تغشاه رهبة ، يخشى على نفسه ، يأمر الشيخ ريحان بأن يعمل على مهله ألا يتعجل أبدا ، أن يحل ويربط على هواه ، ليس بعيدا أن يأمر السلطان بخلع القاضى عبد البر ، فيسعى عبد البر إلى الشيخ ريحان ليرجوه أن يشفع له عند السلطان حتى يرده قاضيا .

« حدث حوالى عام ٨٧٦ هـ ، وعمر الشيخ ريحان حوالى خمس وعشرين سنة ، أن عرف الطريق مع أصحابه إلى بيت « سنية ابنة الخبيزة » قرب الفسطاط ، هناك قدمت له صبية فلاحة التقطتها من الطريق وعلمتها عمل الفاحشة ، والثابت فعلا أنها المرة الأولى التى ينام فيها الشيخ ريحان مع امرأة فى حياته ، فى أول مقابلة ، قال إنه يشغل وظيفة وثيقة الصلة بالأمير اقبغا ، سألته ، الصبية من هو اقبغا ؟ فقال « أقرب الناس إلى السلطان ، فضربت البنت صدرها الجامد الناهض وشهقت « يا خراب أسود » ، ضم شفتيه حذرها من البوح بهذا السر إلى صاحبة البيت، رقبتها ستطير عندئذ ، وظيفته السرية ، تمنعه من الظهور علانية مع الحريم ، أو السعى إليهن ، وامرأة أى أمير أو كبير فى متناول يده ، بل يوقن أن الكثيرات منهن يرغبنه فعلا ، لكنه لا يستطيع ، وظيفته السرية تحوشه عن هذا ، وقبل الوظيفة هناك ضميره ذاته ، أثناء حديثه توقف مرات ، هز أصبع يده اليمنى محذرا إياها من البوح بما يقول إلى نفسها حتى، خافت الصبية ، صدقت ما قاله ، خاصة أنه أعطاها بقشيشا محترما يندر تناوله من أى واحد يخلو بها .

«فى كل يومى اثنين وخميس يمضى الشيخ ريحان إلى الفسطاط ، ومرة وجد الصبية متغيبة ،رفض مضاجعة أخرى برغم تحايل المعلمة سنية

ابنة الخبيزة ، عاد ليجد الصبية متزينة فى انتظاره ، عندما تجرد من ثيابه، تمدد بجوارها خبط جبهته بيده ، قال .. ياه .. خافت الصبية ، مالك ؟ أجاب ، نسيت أمرا مهولا كلفنى به الأمير منطاش ، يسكت لحظات ، مجرد سماعها هذه الأسماء ، طريقته البسيطة فى النطق بها ، تخشى وتخاف ، يتأسف قائلا واللّه أخطأت فى حقه ، منطاش كريم معى جدا ، جدا تصورى ، ويراعى حقى لكننى لا أعيره التفاتا ، لا أهتم به ، لكنه يجب أن يعذرنى ، مشاغلى لا تحصى ، أى واللّه لا تحصى .. وينفخ بفمه ، يضرب ركبته بقبضته ، الصبية لا تعرف ما تقوله ، وعندما تأخذها الحيرة تزحف إليه تلتصق به تقول « لا عليك يا حبيبى ما تغتم يا حبيبى » مرة ثانية يتمدد جوارها راضيا يضحك « يا سلام على طومانباى .. أما ولد » ، تتسع عيناها ، يحكى عن الأمير الدوادار كأقرب الناس إليه ، يذكر اسمه بلا تفخيم أو تعظيم ، تسأله « ماله يا حبيبى ؟؟ » فيقول « سهر معى طوال الليل .. يا سلام .. أما حكايات غريبة غريبة جدا » يصمت لحظات ، يقول «لكننى لا أعرف كيف جرى هذا ، كيف ؟ » ، وفى مرة تلقى حلمة ثديها الأيسر ، يمر على حوافه بشفتيه ، عادته المفضلة ، قالت الصبية وجسدها يختلج : سنية ابنة الخبيزة تعانى ضيقا وعسرا من متولى الحسبة ـ كان فى هذا الوقت على بن أبى الجود ـ قرر عليها زيادة فى الضريبة ، وتمنت لو أن الشيخ ريحان تحدث إلى أحد أصحابه المقربين الأكابر العظام ، هنا انتفض الشيخ ريحان عاريا ، وعرق الغضب يطق من جبينه ، « أنت مجنونة.. ضاعت رقبتنا الآن ، هل قلت شيئا يا مجنونة مما أقوله لك لابنة الخبيزة ، ارتعش جلدها و قفقفت ، أقسمت بحياته عندها ، بآل البيت ، برحمة أبيها الذى لم تره قط إنما الصحيح أنها فكرت فيه ، هى لا تعرف من الأكابر غيره ، وبكت بين يديه ، حتى هدأت ثورته ، وخفت حدته ، فقال أنا لا أمانع ولو كان الأمر معقولا لا يمسنى ، لكننى ماذا أقول لأى أمير من أصحابى ؟ هل أقول له إننى أريد إنصافا لابنة الخبيزة .. سيسألون ، وما الذى عرفك بابنة الخبيزة ؟؟ آه .. عندما يتعلق الأمر بالعظام الأكابر

أصحابى لابد أن توزن الأمور ، ألا تؤخذ كما هى .. » وبقى الشيخ ريحان مبلبل الخاطر ، عندما يقابل ابنة الخبيزة ينظر إليها ، يحاول تلمس أى دلالة على معرفتها بما يقوله ، يخشى مفاجأته بسؤال ترجوه فيه التوسط لدى الأكابر ، ويفلت لسانها بحديث أمام المترددين عليها ، يفهم منه شىء عن أحاديثه المستمرة إلى الصبية ، عرف منها شخصيات بعض المترددين هنا ، موظفين فى دواوين الأمراء عند المحتسب ، مشايخ ، بعض الأمراء الصغار يجيئون هنا خفية .

حدث فى هذه الفترة أن استدعاه القاضى عبد البر ، وعندما مضى إليه دارت فى رأسه الدوائر ، ربما وصلت أخبار أحاديثه إلى عبد البر ، سيجازيه القاضى مرتين .. الأولى لذهابه إلى بيت من بيوت الخطأ ، الثانية لكثرة تخريفه ، راح يجهز ما سيقوله ، سيرجو القاضى العفو عنه بسبب التردد على البيت فالألسن لا ترحم ، لكن ماذا يقول عن الأحاديث ، واختلاق الحكايات حول الأمراء ، قابله عبد البر مرحبا ، ابتسم فى وجهه ، طيب خاطره ، وهذا ما لا يحدث أبدا ، فعبد البر عبوس دائما ، فظ اللسان، غليظ القلب ، أخبره بمجىء الأمير سلامش الجمدار المختص بإلباس السلطان ، إذ يقف السلطان ويوليه ظهره ، يفرد ذراعيه فيقوم سلامش بإدخالهما فى كم الرداء ، ثم يسوسه ، وهذا منصب لا يصل إليه إلا صاحب ثقة عظيمة توفر الاطمئنان للسلطان ، بحيث يدير ظهره إليه ، ويسلمه نفسه ، قال القاضى عبد البر ، الأمير سلامش طلب منه شخصا موثوقا به ليحرر مكاتباته ، وبحث القاضى عبد البر كثيرا فلم يجد أخلص من الشيخ ريحان ، لكن حتى يتم الأمر ، عليه أن يبحث عن عروس صالحة يتزوجها ، فالأمير سلامش لا يقبل عزبا فى قصره ، وقال القاضى عبد البر « ثم إنك لست صغيرا يا شيخ ريحان » .

قام الشيخ ريحان وقبل القاضى عبد البر ، مشى فى الطرقات يرقص فرحا وطربا ، أخيرا سيرى الأمراء والضيوف ، يحرر المكاتبات ، يطلع على

أسرار الدولة ، تمنى لو قال هذا للصبية لكنها ستتعجب ، ألا يخبرها دائما بقربه والتصاقه بالأمراء والأكابر ؟! .

مضى فى أفخر ثيابه وقتئذ إلى قصر الأمير سلامش ، بالغ كثيرا فى إظهار علامات الأدب واللياقة ليوحى أنه خدم طوال عمره فى بيوت أكابر ، انتظر مقابلة الأمير ، لم يلتق به ، قال لنفسه ربما انشغل الأمير بشىء عنه ، وعندما سأله نائب الأمير عن زواجه أخبره « تزوجت منذ أسبوعين » وفعلا كان الصبى قد مضى إلى أحد أقاربه واسمه المعلم محمود بن سلامة ، أحد تجار العدس فى أثر النبى يمتلك ثلاثة مراكب سارحة فى النيل تنقل له المحصول من الصعيد ، غير القلل والأزيار (مات عام ٩٠٩هـ) المهم أثنى المعلم محمود على الشيخ ريحان حافظ كتاب الله وحارس البخارى ، وبعد أسبوع دخل على ابنة المعلم فى داره بالفسطاط حتى يبحث له عن بيت يستقر به ، وصار المعلم يقول « زوج ابنتى رئيس عند الأمير الجمدار » .

فى قصر الأمير سلامش اتخذ الشيخ ريحان حجرة صغيرة فى مبنى منعزل عن بناء القصر الأصلى ، حجرة مظلمة تضاء بقنديل ليلا ونهارا ، ثانى وثالث يوم لم يقف الشيخ بين يدى الأمير ، كذا الأسبوع الأول ، والثانى والشهر الأول والثابت فعلا عدم مثوله بين يدى الأمير قط .

عندما يلتقى به المعلم محمود بن سلامة يسأله عن صحة الأمير الجمدار وأحواله ، يهز يده ، يقول « والله .. صحته بالأمس كانت على غير العادة .. صحا من نومه فوجد عينه اليمنى ترف .. وهذا عنده فأل سيىء فقضى بقيه يومه مغتماً .. » يبدى المعلم جزعا ، يزعق بصوته ليسمعه زملاؤه التجار يتحدث عن أمير كبير ، يتساءل : « ألم يقصده الطبيب ؟ » يقول الشيخ ريحان « وجاءه وفصد دمه .. » هنا يطلب المعلم محمود ـ بصوت عال ـ من زوج ابنته أن يبلغ سلامه إلى الأمير ، أن يخبره بدعواته الصالحات من أجل شفائه ، فيهز الشيخ ريحان رأسه ويجيبه ـ بصوت

عـال أيضـا فـهـو يعـرف قـصـد المعلم « سـأقـول له .. والله حـملنى سـلامـا خاصا إليك .. أى والله » .

كثيرا ما يجىء إلى المعلم ، يزعق من بعيد « الأمير سلامش يهديك سلام الإسلام .. » يشرق وجه المعلم ، يبرم شاربه ، يتخلل لحيته بأصابعه ، « والله عندما ترى الأمير أبلغه سلامى » .

بدأ هذا القول يؤلم الشيخ ريحان ويورثه حسرة ،لم ير سلامش بعينيه ، حتى نائبه لم يلتق به إلا مرة واحدة ، عندما تسلم وظيفته، كل المكاتبات تجيئه يوميا مع أحد الطواشية ، والثابت فعلا أ نه لم ير الأمير قط حتى عندما أنجب ابنته الأولى « سماح » (أنجبها عام ٩٠٢ هـ بعد ثلاث سنوات من زواجه ، لم ينجب بعدها ، وهذا أمر يتكرر وقوعه بين قلة من الرجال) بل أرسل إليه الأمير سلامش مع نائبه دنانير وكسوة (بالضبط عشرة دنانير أشرفية وقماش أطلس ، وقميص زركش لطفلة صغيرة) .

بعد مجىء سماح بعامين (٩٠٤هـ) غضب مولانا على الأمير سلامش ـ وهذه واقعة معروفة ـ عندما لم يحكم لف الشاش حول العمامة السلطانية الكبيرة مما أدى إلى فكه لحظة جلوس مولانا السلطان إلى قصاد الحبشة مما أوقعه فى حيرة ، وتسبب فى حصول كسفه للسلطان مما جعله يستدعى سلامش وحقق معه ، وبطحه أرضا وضربه حتى كاد يهلك لظنه أن واقعة عدم إحكام لف الشاش أمر مدبر ، وأمر بإلقائه فى المقشرة ، ولا يزال سلامش محبوسا حتى الآن بعد مضى ما يقرب من عشرين عاما على الحادثة .

يشاء حظ الشيخ ريحان ، أن الأمير سلامش أرسل ـ قبل حدوث واقعته ـ إلى الأمير طغلق ليحرر مكاتيب صادرة إلى بلاد اليمن ، وأثناء تواجد الشيخ ريحان عنده ، وقعت حادثة الشاش ، هنا عرض عليه طغلق البقاء عنده ، وارتضى الشيخ ريحان بالحال ، وتزايد سروره ، لاتصاله مباشرة بطغلق ، وخروجه معه أكثر من مرة . وأفضى إلى المعلم محمود

وبعض خاصته أن بعض أصحابه من الأمراء والكبار أسروا إليه بما سيحدث مع سلامش ونصحوه بالابتعاد عنه ، وتوسطوا له عند طغلق الذى لم يكن غريبا عليه ، فأخذه عنده ، وعند ركوبه مع طغلق يحاول الاقتراب منه ، ويجول بنظراته فى الطرقات متمنيا أن يراه أحد ممن يعرفهم ، وهو ممتط بغلة بسرج عال فى موكب طغلق ، وهذه مرتبة قل أن يدنو منها إنسان.

منذ سنوات جاء من بلدة جهينة ، شاب صعيدى يمت إلى الشيخ ريحان بقرابة بعيدة ، أقام فى بيته فترة من الزمان ، حتى التحق برواق الصعايدة، وللأمانة فلا نقطع بخلوه إلى سماح ابنة الشيخ ريحان خاصة أنها وقت وصوله لم تتجاوز سن العاشرة .

طبقا لما هو تحت بصرنا وسمعنا حتى الآن لا يمكننا تحديد التاريخ الذى بدأت محبتها تدب فى قلبه ، ولكن بعد تحليل طريقة مشيته وأحاديثه معها يوم شم النسيم فى حدائق بولاق ثبت عشقه لها والأيام لا تزيده إلا وجدا وصبابة مع أنه لا يراها إلا نادرا جدا (وهذا نثق به) .

الثابت أيضا جهل الشيخ بما يكنه سعيد لابنته ، وجار الآن لم تفاصيل أدق تصل بنا إلى لب الحقيقة وجوهرها الخفى .

(ديوان سر كبير البصاصين ونائب المحتسب)

ونائب والى القاهرة

«ختم»

(زكريا بن راضى)

نـــداء

يا أهالى القاهرة

يعلن عبد العظيم الصيرفى

عن قرب وصول

الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة الديار المصرية

ووالى القاهرة

بعد عودته من بلاد الصعيد

فعلى أصحاب الدكاكين

والمغنين

وأصحاب الربابة ، والرقاصين

الخروج لمقابلته

عند دخوله من الجيزة

ظهر يوم الثلاثاء بعد غد

ومن تخلف ، وقع عليه عقاب شديد

* * *

كوم الجارح .

مسافات لا أول لها ولا أخر فى عينى الساعى ، والمسافر على قدميه ، زاده عشق الذات العليا ، وجد يشده إلى اقاصى الأرض يعبرها متأملا العبر ، يرثى المبتدأ والخبر ، ما أوجع أحزان القلب فى بيوت خراب ، فى بلاد عامرة نسى أهلها الأول والآخر ، ما أعذب وقفة الملاح عند رأس قارب مفرود القلوع ، الكون بحر ، كله بحر ، المركب يميل ليعتدل ، يعتدل ليميل ، يزعق الملاح زعقة نابعة من فص الحنجرة ، أعمق الأصوات ، خلاصة الآمال ، ونهاية الآلام ، صرخة ملامح فى وجه خلاء لا بر له ، ولا يابسة تبدو ، لا يذكر الشيخ أين غالب الدوار ، أحاط فمه بيديه ، ومن شرايين القلب ، من حدقتى العين ، من خلاصة سر الكبد ، من لوعة المشتاق إلى آخر الآفاق ، من سنى العمر ، من بئر القلب الدفين ، من عذابات وجد قديم، من بقايا عشق يتيم ، صاح زعقة واحدة ، ألغت الحشا ، خففت حمل البدن ، ولاح سر الباطن ، وكادت الحقيقة الأولية أن تفصح عن نفسها ، وسوست النجوم ، وألقت السماء دمعا ضنينا .

يا واحد .. يا أحد .. أين أنت .. نجنى ..

نجنى ..

لا يذكر اسم البحر ، عند طوافه بالدنيا لا تعنيه معرفة أسماء البلاد ، الدار كبيرة ، لا عرض باديا لها ولا طول ، وتعليل النفس بالوصول إثم عظيم ، لا هذا العام ، ولا العام الذى يليه يحمل البشرى ، فى زعقته طرح السؤال ، عبر البحار السبعة ، الأراضى السبع ، تجاوز قاف ، واق الواق ، جزائر النساء ، ونفذ عبر بطن الحوت ، يرى بعينى وجده سدرة المنتهى ، غاية الأمل ، صوته الضعيف المخزون سمع هناك ، آه لو حوله بحر الآن ، آه لو يقف فوق الصارى الكبير يزعق ملتاعا ، تتجسد صرخته فى الهواء حبلا طويلامن هيام ووجد لكنها الآن همسة ، حيرة مقطرة ، استغاثة نجاة يهمس بها طائر ضعيف الجناحين . هاجر وحيدا فارتمى بلا رفقة ،

لحظات كثيرة رآها فى حياته ظن الخلاص وشيكا وما يفصله عن الحقيقة الأولية ، خطوات قصار ، لكن الأحداث تميل فتعكر صفو الرؤية ، تخدش حياء النفس ، عبثا ، تلوح الأنوار الإلهية فى زمان كهذا ، محال أن يرق الجسد حتى يخف ، يشف ، الآن يرى أيامه البعيدة ، عندما رأى العالم مال بخده على الحجر الأسود ، داعب النمور الوحشية ، مص الزلط متلمسا رشفة رطوبة تنزع حراشيف العطش عن حلقه ، حديثه إلى برابرة غزاة يحلون لحم الإنسان ، آه لو يودع الثبات إلى الحركة ، يترك الركود إلى ديمومة لا تنتهى ، طوال عمره لم تلجئه الأحداث إلى الخلوة الطويلة وها هى ذى سنوات قليلة فى موطنه تدفعه إلى حفر سرداب حفره بأصابعه، فيه يغمض عينيه عن رؤية السجن ، يسد أذنيه عن أصوات البشر ، فى أول العمر يكشف الإنسان عوج الدنيا فيحاول تقويمها ، لكن فى آخره ، عندما يبدو كل شىء على حاله ، ولا أمل فى تحول ، فى انقلاب، حتى أولاده لا يدركهم ، عندما يربط ظهرسعيد الباكى ، يراه واحدا منهم ، لم ير أحدهم شابا ، فى أول خطى الحق تزوج فى خوارزم ، لم يكمل العام ، إنما رحل فى وجه الجبل مخلفا وراءه أثرا ، لا يدرى ، هل جاء الدنيا أو لا ؟ فى مدينة بشرق الصين ، فى قرية فوق جبل شاهق العلو فى الهند ، فى جزيرة صغيرة فى المحيط الشرقى الكبير ، كل ساكنيه أربعون نفسا ذكرا وأنثى ، لم يضم واحدا من بنيه إلى صدره ، لا يعرف تعدادهم لكن قلبه خفق بحبهم ، بأى أرض مرعنده ثقة ، أنه عالم بأحوالهم يعرفون بأى أرض هو، فالعالم كله واحد ، ربما رأى أحدهم فى أسواق فارس المزدحمة ، فى ميناء البصرة ، فى ربوع كازخستان لا يعرفهم ويعرفهم ، لولا أن الدمع جف وهجر المآقى من زمن لشارك سعيداً البكاء ، أول مرة يراه باكيا ، طفل آذوه ، أمور السوء توائم متلاصقة ، تأتى مع بعضها ، البصاصون لا يخفون أنفسهم الآن عند اقتفاء أثره ، منهم من يصيح بصوت عال بعد الاقتراب منه « أمثل هذا يتزوج بقمر ؟ » يسمع هاتفا ينتهك اسمها «سماح» يلتفت برأسه مفزوعا ، الكون كله يصغى ،

أربع مرات أرسل مقدم البصاصين يطلبه ، أوامره لا ترد ، أما زكريا بن راضى ، الآن أمام المصلين بجامع شيخون ، يقرأ الفاتحة بصوت عال ، الناس تقبل يده تبركا ، تيمنا ، ومن القلعة ، رأس الدولة ، نخاعها الأمين ، تسرح البطائق إلى بلاد ابن عثمان ، عرف ما يجرى فى السر ، ما من همسة أو كلمة تقال ، إلا ويرسلها خاير بك وجان بردى الغزالى ويونس القاضى إلى ابن عثمان ، وليلة زواج سماح، طاف سعيد ، طير لم يكتمل ذبحه ، كل هؤلاء الأكابر جاءوا إلى حفل العرس ، العريس ابن كبير ترك الخدمة ومات منذ عامين ، شاب وأمامه مستقبل ، أحاطوا الشيخ ريحان ، الدنيا لا تسعه من الفرحة ، يتمازحون معه ، يتباسطون ، والزينى يمد مدة حافلة لعشاء الفرح ، أما برهان الدين بن سيد الناس ، فهو محتكر الفول الوحيد فى مصر ، إذا سأل إنسانا قيل له ، وهل تأثرسعرالفول ، لم يزد طفافة من درهم ، ما من سؤال صعب إلا ورده المقنع جاهز عند الزينى ، وتبدو الأمور معقولة ، وما الإنسان إلا خلاصة زمانه ، لكن يحدث أن تتركز خلاصة الزمان فى شخص بعينه ، يجمع الحسنات والسيئات ، الشيخ يرى خلاصة العكارة ، عندما بث أشجانه للشيخ الزاهد العابد بهاء الحق علوان (لم يتوقف بعد ، وما زال طوافا عظيما ، فى كل ليلة يذكر اسم الله كل ليلة فى موضع مختلف بين آخرين ، السكون عند موته) ، قال الشيخ بهاء الحق كلما ظن نفسه تخفف من الأحمال والأثقال ، يرى الوهم ، كثيرا ما فكر فى اعتزال الكون ، قضاء ما تبقى من عمره فى السرداب ، لكنه يلوم روحه ، كيف يحوم الأذى فى أرض هى أول ما لامست رأسه . اختارها راضيا لقضاء وقت ما قبل الخلاص الأبدى ، أن يرى البلد آمنا ، محال ، ما يراه بسيطا كالحروف ، مشروعا كالأنفاس ، فى حقيقته محال ، هز الشيخ بهاء الحق رأسه .

« كلنا نحترق .. أنت فى ثباتك ، وأنا فى طوافى ، لكن إن مالت الروح عما رماه بها الزمان فقل علينا السلام .. » .

* * *

السرادق الرابع.

وفيه يدبر الزينى والشهاب زكريا أموراً شتى !

زكريا بن راضى :

سرح البريد بالبطائق والرسائل ، إلى بلاد المغرب ، وصاحب فاس ، وملك الحبشة ، وأمير البندقية ، والهند ، والصين ، فيما عدا ، دولة ابن عثمان ، الأمور الآن لا تسمح لكبير البصاصين هناك بالمجيء إلى القاهرة ليحضر اجتماعا كبيرا يضم كافة كبار البصاصين العتاة فى هذه البلاد ، إذ يجتمع شملهم هنا ، يتدارسون الأمور والواجبات ، يتبادلون ما جرى لكل منهم ، ستتحدث كتب التاريخ عن هذا الاجتماع ، سيذكر فى سطر ، ما يدور به ، سيظل خفيا مستورا ، لكن آثاره ستعم العالمين . لا يعلم أخبار الاجتماع فى مصر إلا اثنان ، زكريا بن راضى ، والزينى بركات بن موسى، صاحب الفكرة ، لأول مرة يحدث أمركهذا ، لم يخف زكريا فرحته، الزينى ألمح إلى أنه سيتعرف عند جلوسه إليهم ، طريقه كل منهم ، وأسلوبه، طبعا لن يقول أى واحد منهم عما يتبعه ويطبقه ، على زكريا استكشاف خباياهم بما يروق له من طرق ، حتى إذا ما دب العداء بين الديار المصرية وصاحب أى مملكة منهم ، يجد زكريا نفسه عليما بأدق أسرار البلاد التى يعمل فيها ، مطلعا على طريقة بصاصيها ، مما يتيح له النفاذ إلى أدق الأمور ، وهو بمجلسه هنا ، بالقاهرة ، عندما سمع زكريا أفكار الزينى تساءل ، من أين له هذه الخواطر ؟؟ لكنه قال بعد إطراقة

قصيرة ، هل تعرف .. منذ عامين انتويت تنفيذ هذا . أن أجمع كبار البصاصين فى العالم ، لكن المشاغل ألهتنى ، خبط الزينى ركبة زكريا ، طبعا .. أمر كهذا لن يفوتك أبدا .. الآن يطوف الزينى بلاد الصعيد ، ينزل كل قرية فى جمع من رجاله الأشداء ونوابه حاملا الميزان والصنج . الزينى الآن يحتسب على الديار المصرية كلها ، يقيم العدل فيها ، أخبار جولاته تصله يوما بيوم ، نجح فى ضم رجلين من رجال الزينى ، لكنه لم يعثر على مخلوق واحد من بصاصى الحسبة ، بعد جولة الزينى فى الصعيد ، سيسافر إلى دمياط ، من شهور تعهد السلطان بدفع مبلغ معين من المال ، عن دمياط والمنصورة ، لا يذكر زكريا مقداره الآن ، إنما فى حدود ثلاثين ألف دينار ، بعد التعهد توجه عدد من الأمراء إلى الزينى ، قالوا فيما بينهم، لو نجح الزينى وجمع الثلاثين ألفا لأظهر لنا السلطان عين الغضب وقال : انظروا إلى ذمم المسلمين .وكيف تكون ؟؟ قابلوا الزينى ، أبدوا إشفاقهم عليه ، دمياط والمنصورة لاتدر أكثر من عشرة آلاف دينار ، كيف الحال لو انتهى العام ولم يدفع الزينى مال السلطان . ثم ما الذى يدخل جيبه ؟ هل يرهق روحه ؟ يطارد الفلاحين عندما يسافر ، ويصرف ، ويشنق أرواحا ، مقابل ماذا ؟ رد الزينى قائلا لن أقتل ولن أشنق أى إنسان لأنه تأخر فى دفع ما عليه ، إنما سأعذر كل مخلوق ناءت به الحال « سكت لحظات » ، قال أعاننى اللّه على جمع مال السلطان وإذا كانت دمياط لم تدر فى جميع العصور أكثر من عشرة آلاف دينار ، فسأصلح أمورها ، وأستخرج منها ما لن يتخيله انسان « خرج الأمراء من عنده وهم فى غيظ عظيم » ، أرسل زكريا خفية إلى كل منهم ، لن ينسى ما قرره يوما قط ، ألمح بنية يضمرها الزينى ضدهم ، هاجوا وطلعوا إلى السلطان ، اتكوا عليه فى الحديث ، أبدوا تعصبا ضد الزينى ، لكن السلطان خاطبهم بكلام يابس ، قال .. أنتم هكذا إذا ما ظهر انسان يبغى العدل ، حاربتموه ، ولما زادوا عن حدهم قام الغورى هائجا ، رمى العمامة ، قال : «واللّه أخلع نفسى وتسلموها انتم خربة بورا ، الخزائن خاوية وابن عثمان متحرش بنا

، العامة لا يهدأون ، وتجار الفرنجة ما عادوا يعبرون من الإسكندرية إلى دمياط ، خسرنا دخلنا، وعندما يظهر إنسان يتفنن فى جلب المال ، نقف ضده ، ونمانعه ، واللّه هذا كلام لا يرضى مؤمنا ولا كافرا » زكريا نفسه حار ، كيف يجمع الزينى ثلاثين ألفا من دمياط والمنصورة ، فى الليلة نفسها قرر أن يمد مقدم البصاصين بدمياط برجال أكفاء يرصدون أساليب الزينى ، وما يستحدثه من بدع ، فى الشهور الأخيرة ، لا ينكر زكريا إعجابه الخفى بخطط الزينى وتدبيره ، زكريا يقدر الناس حق قدرهم ، مهما بلغ كرهه لبعضهم ، كبير البصاصين فى بلاد ابن عثمان مثلا ، عدوه الأول الآن ، لم يره قط ، لكن عنده أوصافه كلها ، ومزاجه ، درجة عشقه للغلمان والنساء ، قدرته على اتخاذ القرارات فيما يتعلق بالمصائر ، فى ديوان السر دفتركامل عنه ، كان زكريا صاحبه دهرا طويلا مع أنه لم يره ، زكريا يراه بصاصا من أعظم البصاصين قدرة، منذ عامين أنشأ فرقة خاصة ، بعضهم يتحدث بلسان العثمانلية ، كأنهم ولدوا فى القسطنطينية نفسها ، قسمهم إلى فروع ، منهم من اختص بتاريخ أبناء عثمان وأمزجتهم وأحوالهم ، آخر تخصص فى أمورالجيش العثمانلى وما يستجده من أسلحة ، زكريا يقدرتماما كبير بصاصى الدولة العثمانية خاصة بعد ثبوت أمر قاطع كحد السيف وهو اتصال عدد من أمراء المماليك بدولة ابن عثمان، زكريا عندما علم بالأمر انزعج انزعاجا شديدا ، ليس لوجود مماليك يتصلون بابن عثمان ، هذا طبيعى ، سهل اكتشافه ، وإن لم يستطع كبير البصاصين العثمانليين هذا فلا يستحق منصبه ، زكريا انزعج لرتبهم ، منهم مثلا خاير بك ، وهو من أشد الأمراء قربا إلى السلطان ، زكريا لم يبلغ السلطان ، لابد من جمع أدلة أكثر ، أمر بفك رسائل الأمير خاير بك لكنه لم يعثر على إشارة ، إذن توجد طريقة خفية تغيب عن بصاصيه حتى الآن يراسل بها العثمانلية ، الأدلة كلها شفوية ، حتى بعد توافر الأدلة القاطعة ، سيبقيها زمنا تحت يده، ريما تجىء لحظة يشهرها سيفا فوق رأس خاير بك إذا بدرت منه بادرة ، السلطان بلا أدلة ملموسة لن يصدق ،

خاير بك تقرب جدا منه ، بل أعطاه ولاية حلب القريبة جدا من ابن عثمان ، لكن لابد من التلويح لخاير بك بالأمر ، زكريا يحوم حولهم ، صحيح سيأخذون حذرهم ، لكن لابد أن يعلموا ، زكريا يعرف ويسكت ، ثمة فكرة بعيدة فى قرارة العقل .. من يدرى ربما دارت الأمور واعتلى واحد منهم كرسيا ، زكريا يكره طفو الخاطرة إلى وعيه ، يكره ما وصلوا إليه من خيانة أستاذهم ، والبلد الذى رضعوا خيره حتى صلبت عظامهم ، يقدمون ما فيه مطبوخا جاهزا ليأكله ابن عثمان ، هذا جرم يعلم به زكريا ، قليلة المعلومات التى تثير فى نفسه شعورا معينا بعينه ، طالما تمنى دخول واحد من أمراء ابن عثمان فى خدمته ، سيرحب به ، يجزل له العطاء لكنه بينه وبين نفسه سيحتقره ، لكن حتى الآن ، يتفوق عليه كبيرالبصاصين العثمانليين فى هذا ، ضم من عنده أكثر من أمير ، وزكريا لم يضم أميرا واحدا مشابها لخاير بك وغيره ، عندما وصل إليه ما يفيد باجتماع الأمراء الباغضين للزينى ، تساءل عما يريدون ، هل يلتقون مع زكريا فيما قدره ، ما يسعى إليه بتأن عظيم ، لكن الخلاص من الزينى لا يتحقق بضربة خنجر ، ولا سائل يدس فى طعامه ، ولا فرسان يقطعون عليه الطريق فى الصعيد ، أو فوق مدق زراعى بدمياط ، أبدا ، الزينى تحدى عمره ، ما أسهل أن يتخلص منه الزينى بنفس الطريقة، أمر لن تمنعه احتياطات زكريا، عندما قرر القضاء على الزينى لم يقصد ذبحه ، قتله ، إنما الخلاص منه وهو حى يرزق ، يأكل وجباته ويضاجع نساءه ، يقتله لكن يبقى على حياته فى الوقت نفسه ، هذا أشق وربما استنفد عمرا ، لكن الخلق لا يعاملون كلهم هكذا ، رجل مثل الزينى لا يجود الزمان بمثله ، زكريا يزن قدره تماما ، يدرس أساليبه ويأخذ ما يخدمه منها ، حتى لو استعملت هذه الأساليب ضده هو ، راح زكريا يرقب الأمراء ، أطلق البصاصين فى ركاب كل منهم ، كيف سيتخلصون من الزينى ، الآذان تنقل إليه أحاديث القاعات المغلقة ، العجائز يسعين إليه بالأخبار ، تزايد ضيق الأمراء عندما تسلم الزينى الأمير أردمر الصغير، تعهد باستخراج

مائة ألف دينار ذهبا خالصا منه ، فيما بينهم قالوا ، لو تركناه يفعل ما يشاء لدار علينا واحداً واحداً ، ننفضح في عيون العامة ، وتنزل هيبة المماليك في مصر . وتذهب حرمتهم . أيقن زكريا بخطورة الحال في الليل التالي . خرج متخفيا إلى بركة الرطلي . وقتها كان الزيني يستعد لبدء رحلته الثانية إلى بلاد الصعيد . عند باب الفتوح ، تلكأت خطواته . كيف قرر هذا ؟ أحقا يمضي إلى الزيني يحذره من القتل ؟ يقترح عليه تغيير أماكن نومه كل ليلة في بيت يحدده زكريا . يبث حوله العيون والأرصاد . في الوقت الذي يرصد فيه حركات الأمراء وسكناتهم . لا ينسى ما ألحقه الزيني به مضايقات . هل ضعف أمامه أليست فرصته ؟ . أبداً هذه طريقة سريعة الخلاص اذا ما ذبحه الأمراء فسيبكيه العامة . ويتحسرون عليه . سيخطو بينهم ميتا أكثر من خطوه حيا يرزق . عندما قام الأمير طيبغا في زمن الناصر بن قلاوون . ونادى بالعدل وصار ينصر الفقير على الغني . ضايق الأمراء مضايقة شديدة . دسوا له السم البطيء، لم يخف الأمر على العامة . بكوه بكاء مراً . لطموا الخدود . شقوا الثياب زمنا . صاروا يقولون في كل صغيرة وكبيرة . لو طيبغا موجود بيننا . حتى عندما قام كبير البصاصين في ذلك الوقت بتكليف العلماء لوضع كتيب ورسائل تذم فيه . ازداد العامة تمسكا به . صنعوا له بلاليق من الحلوى ، تباع في الموالد ولا تزال بلاليق طيبغا ترص في دكاكين الحلوى كلما أقيم مولد لسيدنا الحسين ، أو سيدي إسماعيل الإمبابي أو سيدي الليث أو أي ولي آخر ، لكن الأمراء أغبياء مناكيد لا يدركون هذا ، هل ألحق الزيني ضررا بأحدهم كما ألحق بزكريا ؟ زكريا لا ينسى أبدا ليلة تجمع الأدلة القاطعة حول أمر طال تردده في قبول الاقتناع بصحته ، ليلتها دخل عليها القاعة مكروش النفس ، مبهدل الثياب ، وعندما واجهها في ضوء النهار الخائن المتسلل من ثقوب المشربية ،أيقن صحة ما تردد في الاقتناع به ، عرف أنه خدع ، هذا شعور لم يطأه من قبل، حتى عندما بدأ بصاصاً صغيراً ينقل كافة الأخبار ، كل الأدلة لم تقنعه لكن نظرة عينيها في تلك اللحظة أنهت

التـردد ، ذبحت الشك ، وتذكر بصـاص مـصـر الأعظم الكازرونى عندما أمسك بأحد أمراء الظاهر بيبرس ، وفصل أعضاء عن جسمه مبتدئا بذكره، أطال عـذابه حتى لفظ الأمـير روحـه فى خـمسـة وأربعين يومـاً ، بدأ بحلق شعره الناعم المتسلل كالحقد فى عروقه ، شوه الوجه ، حتى لا يرق القلب لتضاريس العمر البكر ، أدخل سن خنجره المحمى فيها أداره على مهل ، لم تتحمل فخمدت أنفاسها بعد ليلة واحدة ، حزن عفى أوغل فى قلبه ، والحزن إذ يعرف الطريق إلى قلب رجل مثله علامة ضعف غير مستحبة ، لام نفسه إذ تسرع بقتلها ، ، لكنها لم تحتمل قط ، بالغ فى تعذيبها كان لابد أن يعرف منها ، أين ومتى نفذ إليها الزينى، واستطاع ضمها إلى صفوفه ، أدخلها بيت زكريا قبل توليه الحسبة بأسابيع ، كان لابد أن يعرف منها أية أدلة على جماعة البصاصين التابعة للزينى ، قال مقدم القاهرة ، جماعة الزينى هذه إما محكمة البناء بحيث لا يمكن النفاذ إليها أبدا ، أو غير غير موجودة بالمرة ، زكريا يثق من وجودها ، وإلا فإلى أى الناس تنتمى « وسيلة » ؟ فعلا تسرع فى ذبحها ، هل يوجد آخرون فى البيت يسهلون اتصالها بالزينى ، كيف كانت تنقل المعلومات إلى الزينى ، لابد من رصد أهل البيت ، مراجعة المرات التى خرجت فيها وسيلة ، محاولة التعرف على دكاكين القماش والعطور التى قصدتها ، مع أى الباعة تحدثت ؟ أمور كلها سيتابعها زكريا بنفسه ، أمر «وسيلة » يجب ألا يشيع ، سبة فى تاريخه . سيصير نادرة لبصاصى الأزمنة المقبلة ، آه لابد أنها أخبرت الزينى بطريقة نومه معها ، قشعريرة سرت فى ظهره ، كان الزينى ثالثهما فى كل خلوة ، عيناه اللامعتان تتأملان مؤخرته العارية ، من يدريه ، ربما واحدة من حريمه الآن على اتصال بالزينى ، كلما خطر له هذا لا يقربهن . يتراجع عنهن ، هل ألحق الزينى أذى بأحد مثلما ألحق به ، مع هذا يطرق بابه ليخبره بما دار بين الأمراء ، ليحميه ، عندما يقدم على حمايته يسن نصلا خفيا ، ، نصل لا ينثنى ، إلى قلب الزينى ، قابله الزينى بذراعين مفتوحتين ، بدأ الحديث عن أمور تحدث فى الأزهر ، مجاورون

كثيرون يجهرون بكلام فى حق السلطان، بل يتحرشون بسمعة زكريا والزينى نفسه ، قال الزينى «سأرسل» لك أسماء المجاورين المشاغبين ، وبهذه المناسبة ما آخر أخبار هذا الولد .. اسمه . قال زكريا (سعيد الجهينى) . صاح الزينى « تمام .. تمام .. » ابتسم زكريا « لا تفوتنا حركاته ، نحن أدرى به من نفسه ، بعد زواج حبيبته كان حزيناً جداً ، قلنا إنه سيلقى نفسه فى النيل ، أو يشرب فصا ساماً ، ثم بدأ يكثر من الخلوة إلى نفسه فى مقهى حمزة ، أحيانا يجلس معه واحد ، الزينى « منصور ؟ » قال زكريا « منصور الركايبى ، عندى معلومات كافية عنه ،إنه أكثر تعقلا من صاحبه ، ويجىء منه الخير ..» أشار الزينى بيده « المهم ..لنرجع إلى الولد سعيد » قال زكريا «إدمان الدخان ، والمشروب الجديد الذى وصلنا من اليمن .. القهوة ، وبعد زواج حبيبته بشهور بدأ يتردد على بيت سنية ابنة الخبيزة .. يروح هناك كل يوم ثلاثاء ، ولا ندرى السر فى هذا » مال الزينى وأسند ذقنه إلى يده ، « أكثر من إطلاق رجالك فى أثره بحيث لا يكون الهدف رصد حركته ، إنما إشعاره أن هناك من يرصدها .. » هز زكريا رأسه « فعلنا ما هو أكثر .. أمرت رجالى باقتفاء أثره ثم النداء باسم سماح بصوت عال ، كاد يجن .. » ضحك الزينى « عال .. عال .. وأخبار الصلاة ؟ » ابتسم زكريا ، « يدى قبلة الشفاه .. » تزايد ضحك الزينى ،ا سمع يا زكريا .. لابد أن تحتل مكانة فى قلوبهم أكبر ، غدا اركب حصانك ، دع رجلا من رجالك يرتدى زى فلاح ، وآخر من رجالك فى ملابس مملوك ، ليضرب الثانى الأول ضربا فظيعا ، وطبعا يتصادف عبور موكبك هنا ترجل أنت أنصف الفلاح واقبض على المملوك ، أكثر من أشباه هذا يحببك اللّه إلى قلوب الخلق ، وعندما يصل البصاصون يجدون لأول مرة فى تاريخ الانسان بصاصا عظيما لا يتقن عمله فحسب إنما يحبه الخلق ، ويحترمونه ، هذا يساعدنا فى نشر العدالة وإقامة الميزان .

سكت زكريا ، الفكرة أعجبته ، كاد ينسى ما جاء من أجله ، هل يدرك الزينى غرضه فآثر شغله بالحديث ، هل يؤجل الحديث عن الأمراء ، وإذا

جهل الزينى قصة مجيئه سيضطرب ويحار ، ويتساءل عن السبب فى مجيء زكريا ، تأخذه ظنون شتى ، غير أنه قال فجأة بعد لحظات صمت أثقلها ضوء خافت من شمعدان وحيد ، أنت يا زينى ستقتل .. » ، أصغى الزينى ، بعد يومين ، عندما تجول زكريا فى حديقة بيته ، تراءى له وجه الزينى ، ثم قيامه المفاجىء ، عناقه لزكريا ، لمح فعلا دموع التأثر فى ركنى عينيه ، قال « مثلى لا يمكنه العيش بدونك يا زكريا » ، فى البيت لاحظ زكريا ميلا خفيا إلى الزينى ، خاصة بعد قبول الزينى الذهاب إلى المواضع التى حددها زكريا ، ونومه تحت حمايته ، لكن ، هل يصفو قلبه تجاه الزينى ، أبدا . الاستسلام أو الرجوع عن القرار القديم مذبحة يعدها زكريا لنفسه ، حتى يؤكد لنفسه ثباته على قراره القديم ، بدأ فى استنبات بذور مشروع قديم مدفون فى عقله ، أرسل فى استدعاء « أبو الخير المرافع »، أبو الخير بصاص قديم عمل زمنا فى أقصى الصعيد ، منذ أيام وصل القاهرة ، يقول متباهيا ، فى حياتى خربت عشرات البيوت، هدمت عائلات ما ظن أحد قط أنها ستهدم ، إذا حام أبو الخير حول إنسان فلابد أن يطرحه أرضا ، خاصة إذا وصل إلى علمه استقرار أمر هذا الإنسان أو فرحته بعياله وامرأته ، يهوى إحالة الفرح حزنا ، والسرور قهرا ، والغنى مذلة ، دءوب فى اغلاق البيوت وإفساد سعادة الناس وفرحتهم ، يرقص طربا لحظة طلاق امرأة ، زكريا يتأمل وجهه المسحوب ، حدبته ، ينظر إلى تقوس ظهره ، عيناه تنظران إلى فوق دائما ، من لحظة إلى أخرى يدفع أبو الخير الهواء إلى أنفه بقوة ، كأنه يعانى ضيقا ، يتساءل عما سيحدث فى اللحظات التالية ..

* * *

نـــداء

ياأهـالى القاهرة ..

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر

ينهى اليكم

الزينى بركات بن موسى

متولى حسبة الديار المصرية

ووالى القاهرة

والمتحدث عن الوجه البحرى كله

أنه سيخطب يوم الجمعة

ويكشف للخلق فى أركان الأرض

حقيقة الحال ، وسر ما قيل وما يقال

فإذا شئتم الاطلاع على الحقيقة

فاذهبوا إلى الجامع الأزهر

يوم الجمعة

بعد الصلاة ..

ذو القعدة ، ٩٢٠ هـ
مقتطف « جـ »

من مشاهدات الرحالة البندقى ، فياسكونتى جانتى ، الذى وصل القاهرة للمرة الثانية عام ٩١٧ هـ وأقام بها ثم رحل إلى الشام وبلاد الحجاز ، ثم عاد إلى القاهرة ، وأقام بها ، وفى هذه المرة كان قد تعلم لغة أهل البلاد ، فلم يعد بحاجة إلى مترجم عربى .

* * *

« لم أرتد ملابس تاجر تركى ، خاصة أن الأهالى والشرطة يتعقبون كل عثمانلى ربما أمسكوه ، يسلمونه فى أحسن الأحوال إلى كبير بصاصى الدولة ليعاقبه عقابا مريرا ، ليقر أى معلومات كلف بجمعها وإرسالها إلى ابن عثمان ، نزلت ممسكا عصا قصيرة أدفع بها أذى الكلاب عنى ، رأيت المدينة تغلى . من النادر جدا تواجد الأهالى خاصة النساء بعد العشاء فى طرقات المدن الشرقية خاصة القاهرة التى يشرف على نظامها رجل قوى ، متمسك بالدين وفروضه ، له هيبة عظيمة عند الناس ، وهو محور هذا الغليان ، لا أقصد الزينى بركات ، لم يعمر رجل مثله فى وظيفته مع أن الأوضاع هنا سريعة التقلب ، وهناك من يتولى منصبا فى المساء ليخلع فى الصباح ، رأيت المشاعل معلقة أمام الدكاكين فقط ، رأيت عجوزا يجلس بجوار جدار قديم ، أراه فى الليل والنهار ، لا يرعش طرفا . كأنه بروز حجرى على هيئة إنسان وأذكر أننى رأيته فى زيارتى السابقة ، لا يتغير ، بودى لو أرقبه ، أعرف متى يأكل ، متى يفك قبضته عن العصا ، امرأة بدينة تجلس أمام قفص كبير ، فوقه البقدونس والجرجير ، رجل يبيع حلوى لذيذة الطعم من الدقيق والسمن والسكر ، يحبها أهل الشرق ، اسمها بسبوسة ، اشتهر فى القاهرة عدد من الباعة يتقنون صناعتها أذكر منهم رجلا قصير القامة ، أعور قبل المغرب يخرج من بيته إلى ناحية حارة لا يسكنها إلا العطارون، يقف جامداً ، يتوافد إليه الناس رجالا وأطفالا ونساء ، لا يزعق أحدهم ، إذا علا صوت رجل يطلب الإسراع لتلبية طلبه ، هنا ينظر إليه ويشير اشارة واحدة

موجزة « امش .. » ، ولا يمكن أن يبيع له أبدا حتى لو تردد عليه مرات ، وعندما يقطع البسبوسة ، يمد يده بسكينة قصيرة سلاحها عريض مثلث ، حركات يده مرسومة محددة ، كأنه يشكل الذهب ، ينحت المرمر ، تخلو الصينية إلا من فتات حلو متناثر يلمع فوق طبقة رقيقة من السمن كالأشعة الصفراء ، بالسكين يجمع الفتات ، يلمه إلى حافة الصينية ، فى اللحظة التى ينتهى من تجميعه ، يجىء رجل عجوز طويل رفيع معصوب العينين ، يمشى لا حس له ، يحمل طفلا صغيرا لا يبكى ، يعطيه البائع الفتات ملفوفة فى ورقة صغيرة ، يضم الحامل الخشبى المثلث تحت إبطه ينصرف ، أحببت الوقوف قريبا منه ، أرقب يديه ، وجهه الجامد، لم أذهب إليه بعد ، محلات الأكل كلها مفتوحة ، تسمع وأنت تسير أمامها اصطدام الأطباق والأوعية ، تتصاعد روائح الطعام . السمك المقلى . الفراخ المحشوة بالبصل ، السنبوسك . وهو نوع رقيق العجين . يشكل فى مثلثات محشوة باللحمة . تقلى فى السمن حتى يحمر العجين . من بعيد . ترتفع أصوات . تدور وتتجه جماعة نجارين يركبون عربات تجرها الدواب . يصفقون . يكبرون مهللين . يرددون فى إيقاع منتظم « ابن موسى .. ابن موسى » لم أميز بقية ما يقولون . من آن إلى آخر ترتفع صيحات هادرة عن جماعة . تبتعد كلماتهم شائهة مضطربة . تغيب ، فجأة سمعت من يقول . « ابن موسى لا يأتى مرتين فى زمن واحد » . رد آخر « لو جاءهم من يصلح أمرهم لابد أن يخلقوا فيه العيوب »، العجيب أننى سمعت بالأمس رجلا عجوزا يقول عند دكان عطور قديم فى الحمزاوى « ظهور ابن موسى علامة من علامات خراب الدنيا .. أنا أعرف عنه ما يقشعر الأبدان » لكن الحضور نظروا إليه ، سكتوا لحظة . تسابقوا فى الثناء على ابن موسى . كأنهم يدفعون عن أرواحهم أذى مكتوما . ينفون استماعهم الى العجوز . أى أمر محير هذا لم أر مثله فى أى البلاد . الناس تحب شخصا بعينه، كل لسان يحمد سيرته ، يثنى عليه ، فى الوقت نفسه يسرى شىء خفى . شعور لا يبين فى الأرواح والجماد رهبة خفية من الزينى ، لا تبدو على وجه بشر إنما ترى بعيون خفية ، هذا أمر حيرنى فعلا وأربكنى ، سمعت طبل المنادى ، إذن سيخطب ابن موسى فى الناس غدا . المدينة ساهرة ، لم أر فارسا

مملوكيا واحدا، عرفت من خادمى أن ضررهم بلغ حدا فظيعا لا يحتمل ، منذ عام كامل الخروج بعد العاشرة مغامرة ، أهالى الحارات يغلقون أبوابها ويعينون منهم من يجلس وراءها ، وعندما تزايد الأذى ، طلع ابن موسى الى السلطان وشفع فى الناس ، قال : « الدنيا ستخرب إذا استمرالحال على ما هو عليه ، من خطف نساء وذبح أبرياء ، واستجاب السلطان لرجاء الزينى ، أمر بمنع المماليك من مغادرة ثكناتهم العسكرية والنزول بعد العشاء إلا بإذن خاص ، أمر بمنع أى مملوك من ارتداء لثام حول وجهه ، لم أعاصر هذه الفترة فى مصر ، لكن أخبرنى خادمى باستمرار الدعاء ثلاثة أيام فوق منابر الجوامع للزينى بركات ، ولم يحدث هذا لأى إنسان من قبله ، حتى أمر ابن موسى بمنع هذا . أخبرنى خادمى بذبح ثلاثة شبان فى هذه الفترة بسبب ذمهم ابن موسى ، ذبحهم العامة بأيديهم عندما قال الشبان ما يفعله الزينى مشكوك فيه ، هو الذى أثار المماليك ، حتى يطلع إلى السلطان ويشفع فى الخلق ، وعندما يمنع السلطان مماليكه . ينادى ابن موسى بالكف عن الدعاء له . رجعت إلى بيتى وفى رأسى دوار . بلا شك هناك أمان يعيش بين الناس وادعا . لم تفارقنى ضجة الناس ، لهوهم . فى اليوم التالى قمت من نومى مبكرا . صعب على دخول الجامع . لو فرض وأمسكونى فسأطلب عون الزينى . ما من أجنبى خاصة الفرنجة يدخل مصر إلا ويسجل اسمه والناحية القادم منها . هذا نظام جديد لم يتبع فى زيارتى الأولى . لو سألنى عما أفعله فى المسجد سأخبره بطوافى . برغبتى فى رؤية الدنيا . ابن موسى سيفهمنى . لابد من لقائى به هذه المرة . لم أره إلا فى موكبه يوم مشيه فى موكب اعدام سلفه بأغرب طريقة قتل رأيتها الرقص حتى الموت . قلت لن يفوتنى سماعه . فلأدخل المسجد . لمحت رجالا يرتدون ملابس زرقاء ياقاتها صفراء . يقفون بين المصلين. يرقبون حركاتهم . يزداد عددهم كلما اقتربوا من الصفوف الأمامية وحتى آمن على نفسى جلست ملاصقا لأحدهم لم أخطىء فى القيام والركوع ، أعرف الصلاة هنا أهون من قرى الهند والمعابد والعادات التى لا تنتهى ، بين الناس سرت همهمة . دوائر تتسع ، تتسع بعد إلقاء حجر فى مياة ساكنة ، تعلقت العيون بالمنبر الخشبى ، وفوق السلالم الخشبية طلع حاكم القاهرة ، محتسب

الديار المصرية ، الزينى بركات بن موسى ، أصغيت مرهفا ، حديثه عامى اللهجة ، وهذا يخالف الأصول على حد علمى ، اضطررت إلى إحاطة أذنى حينا بيدى حتى أسمع ما يقول . بدأ لينا ثم علا ، سمعت مجيء الزينى إلى وظيفته ، حرصه على إقامة العدل ، وإقامة العدل فى العالم أمر محبوب للبعض ، مكروه لآخرين ، كانت الفرصة مفتوحة أمامه . ينهب الأموال ويكدس اليواقيت . اللؤلؤ والمرجان . كما فعل الأولون . وكما يفعل الآخرون . لكنه أبى خوفا منه وحده (يقصد اللّه) . وها هو ذا لا يمتلك أكثر مما يقيم أوده . وقال إنه تعهد بتقديم المال عن جهات معينة . وتمكن من استخراج أضعاف الأموال التى تدرها هذه الجهات عادة ولم يشك إنسان . أو يتضرر . لم يصادر فلاحا فقيرا يعمل بها . لم يتسبب فى خروج بعضهم عن بلاده ، وضع حدا لهجمات العربان على بيوت الفلاحين ، هذا ما تم فى الريف ، أما الضرائب هنا فهل شكا منها مخلوق ؟ لقد ألغى العديد من الضرائب ، وهنا تمهل صوت الزينى ، استمع الناس إلى سر من أسرار السلطنة لا يجرؤ مخلوق على قوله . كان السلطان ينوى فرض ضريبة جديدة (وهنا علا صياح الناس ، حماك اللّه .. حماك اللّه) ، لقد شاءت رحمة السلطان وعدله أن يستجيب لشفاعة ابن موسى ، فيلغى ما عزم عليه ، (حماك اللّه .. حماك اللّه) ، وما قيمة الشفاعة إذا لم تجد صدرا رحيما كصدر السلطان يتقبلها ، وبعد نزول الزينى من القلعة ، نزوله يوم سبت وسفره إلى الصعيد للاطمئنان على الأحوال (هنا توقف الحديث وبدا التأثر فى لهجة الزينى) ، سرى هياج بين الناس ، لاحظت صدور أصوات من مكان قصى فى المسجد ، أما الرجال المرتدون الملابس الزرقاء فبدأوا يقتربون من بعضهم البعض ، ثم يتفرقون، لكن ليقفوا فى مواضع غير أماكنهم الأولى فى الظهيرة ، ظهيرة السبت طلع إلى القلعة هذا الرجل ، سامحه اللّه أبو الخير المرافع ، أبو الخير الذى خرب فى عام واحد ثلاثا وثلاثين أسرة ، ابن موسى لا يذم أبا الخير ، إنما يذكر وقائع مدعومة بدلائل لا تقبل الشك ، الذين خربت بيوتهم أحياء يرزقون ، أما اليتامى فيشهدون على آباء رحلوا قبل الأوان ، من أخبره بهذه التفاصيل ، من أوضح له حقيقة أبى الخير المرافع ؟ إنه نائبه المخلص الأمين ، نائبه الذى يغار على العدل

كما يغار على أهل بيته (أشار بيده إلى أول الصفوف) إنه زكريا بن راضى ، وتطاولت أعناق الناس ليلمحوا زكريا لكنهم لم يستطيعوا فزعقوا (أبقى الله زكريا. أبقى الله زكريا) اقترب الرجال ذوو الأردية الزرقاء من ركن المسجد ، يبدو أن شغبا يجرى . علا صوت ابن موسى ، رأيته يضرب صدره بيده ، أبو الخير المرافع افترى عليه ، تعهد أمام السلطان باستخراج ستين ألف دينار من الزينى بركات ، بعد أن يتسلمه ويجرى عليه العذاب . (زعق الناس .. لعن الله أبو الخير .. لعن الله أبو الخير) . لكن السلطان بما أوتى من قوة بصيرة ونفاذ سريرة . هل يدرى الناس ما قاله السلطان . أولا .. أمر بزج أبو الخير المرافع فى القيد الحديدى ، قال له هل تظن أننى لا أدرى ما يمتلك ابن موسى . سأحكى لك حادثة بسيطة . عندما انعقد مجلس السمر الليلى . تأسف الأمير ماماى الطبردار (أى حامل الطبر والفاس) . وقال ، حتى اليوم كنت أظن ابن موسى واحدا من الأثرياء والمال عنده كاللولب يديره كيفما شاء لكنه جاءنى . وكان مضطربا زائغ العينين طلب منى قرضا قيمته .. تساءل السلطان عن قيمته . تأسف السلطان ثانية وقال خمسة دنانير .. أى والله خمسة دنانير . قال السلطان ، هل تظن شخصا يرسل فى طلب قرض كهذا تستطيع إخراج آلاف الدنانير منه . ثم لماذا ستون ألف دينار . آه .. ابن موسى أدخل إلى خزائنى آلاف آلاف الدنانير . لم يأخذ منها درهما لنفسه وعندى عيونى التى تخبرنى بكل كبيرة وصغيرة فى بيته (هنا علت همهمات من أقصى المسجد ، وسرت همسات بين الناس) فوق المنبر وقف ابن موسى صامتا .. رأسه مطرق ، يداه تضمان طرف عباءته السوداء . صاح الناس مطالبين بعضهم بالسكوت ، رأيت الناس فوق سطح المسجد المطل على الصحن الداخلى يروحون ويجيئون . ثم ظهر ثلاثة رجال يلبسون الملابس الزرقاء يدفعون الرجال الذين يختلسون النظر إلى أعلى . أيقنت جمال المنظر لو صعدت فوق المئذنة الجديدة التى بناها السلطان الحالى هنا ، تشبه مئذنة ذات الأربع رؤوس والمنبثقة من جامعه الجديد فى أول سوق الشرابشيين . هذه المئذنة أدمنت النظر اليها . المرور من تحتها يتساقط فوق روحى وهج رخامها الملون . عصور سحيقة أراها فى الصباح أعود إليها وغبار العصر يغطيها فالقى منظرا

جديدا . أجلس فى دكان مشروبات قريب من الأزهر ، أرقبها تغوص بقمتها ، برؤوسها الأربع فى الليل . حتى تندمج بظلامه . أخشى عليها من ضياع . أرجع إليها من جديد . لم يتحدث ابن موسى إلا بعد هدوء الضجة . «اعذرونى إذا رويت لكم فيما رويت بعض أسرار بيتى .»

أنتم اخوتى .. يا اخوتى ..

هل سرقت واحدا منكم ؟ ؟

(تألفت الحناجر . . تسد الفراغ ..)

حاشا لله ..

هل أتيت فاحشة ؟؟

لا ...

هل ظلمت واحدا منكم ؟؟

وتداخلت الأصوات . علت ، رأيت ابن موسى يشير بيديه ، عندما هدأ الناس تقدم رجل قصير يرتدى قميصا من الجلد ، أجهدت نفسى محاولا سماع الرجل، لم أستطع ، عندما رفع ابن موسى يده كان هذا الرجل يشكو ظلما وقع عليه ، أحد رجالى ضربه لأنه كان يمشى حاملا قربة من الماء فهو سقاء وسط الطريق وهذا يعرض ثياب المارة للبلل ، وتساقط الماء فوق الأرض يغطيها بالطين ، وهذا يخالف الأصول التى وضعها المحتسب بالنسبة للسقائين ، ومع هذا لابد من رد حق السقاء ، اعتداء رجل من رجال ابن موسى على أى إنسان بضرب غير شرعى . مرفوض . لن يقبله المحتسب أبدا . «بعد الصلاة تعال عندى . أخبرنى عن المكان الذى مشيت فيه . وسأحضر أمامك رجالى كلهم المتواجدين فيه ، لابد من رد حقك إليك» .

وفى لحظة بعينها ، قبل تهليل الناس ، انطلقت صيحة من أقصى المسجد . انطلقت فى هفوة صمت ، تخللت حديث الزينى ..

« كـذاب .. » .

هنا لم يصـدق ابن مـوسى ، صـوت نشـاز ، لم أخف تعجبى ، الحق أننى لم أر مثل الرجل طوال سنى عمرى التى قضيتها راحـلا عبر البلاد ، تزايد إعـجابى بابن مـوسى ، عندمـا عـاد إلى إطراقته ، لا يتكلم إلا إذا سـاد هدوء ، لمحت ضيقـا خفيا حل به ، طبعـا لابد أن يضيق بهذه الصـفاقة ، ربمـا وصل أعداؤه ليفسدوا عليه حديثه إلـى الناس ، مـرة ثانية أشـار بيده إلى الصف الأول ، تابعـه المخلص الأمين الشـهـاب زكـر يا بن راضـى (دام زكـريا .. دام زكـريا) هـو الذى قـبض بنفسه على أبو الخير المرافع تسلمه وحبسه ، لا لأنه طلع وترافع فى حق الزينى ، ابن موسى فكر فى العفو عنه ، يكفيه معرفة السلطان بالحق وأهله ، لكن الشـهاب الأعظم سـيذيقـه مـا أذاق الآخـرين ، ابن مـوسىٰ لـن ينثنى ، لن يتـراجع عمـا يراه عدلا ، السلطان معه . وقلوب الناس تحميه ، فليأت أعداؤه بما يشـاءون . كل مـا يرجوه ، أن يمضى إليه صـاحب المظلمة وإذا ثبت أنه ظلم مخلوقا ، فسـيقبل أى قصـاص يقع عليه كـأى مخلوق (علت ضـجة من نفس المكان الذى انطلقت منه الصيحة) . بدأ ابن موسى فى نزول درجات المنبر الخشبى . صـاح البعض « الله أكبر . الله أكبر . الزينى . زكريا قواك الله وحماك » ، دق بعض الدراويش كئوسـا نحاسيـة وضـاعت الأصـوات التى علت تشـوش على الزينى . لم أخف بهـجتى . وازداد إصرارى . لابد من لقائى به قبل سفرى ..

* * *

نـــداء

يا أهــالى القاهرة

نوصى بالمعروف وننهى عن المنكر

اليوم نبشركم

بقلع السلطان الصوف الأسود

وارتدائه اللباس الأبيض

مع دخول الحر

يا أهــالى القاهرة

أمر الشهاب الأعظم ، زكريا بن راضى

نائب محتسب الديار المصرية

نائب والى القاهرة

بشنق أبى الخير المرافع

وسوف تبقى جثته ثلاثة أيام

عبرة لمن اعتبر

ودرساً لمن جاء ومن غبر

ياأهــالى القاهرة ممنوع على دكاكين المشروبات ، والحلوى

السهر بعد العشاء

ومن ضبط مخالفا

عوقب بخمسين جلدة

يا أهــالى مصــر

جاءت الأخبار

بوقوع معركة

بين فرسـاننا الأشـاوس

ورجال ابن عثمان

وقتل فرسـان سلطاننا

أربعين فارسـا عثمانيا

وهذا أول دم يسيل

فانتبهوا

يا أهــالى مصــر

يا أهـــالى مصر

* * *

نـــداء

يا أهــالى مصــر

نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر

أمر من مولانا السلطان

بتعيين الزينى بركات بن موسى

ناظرا للذودخاناه

ونائبا للدوادار الكبير

الأمير طومانباى

فلزم التنويه والتنبيه

يا أهــالي مصر

من سمع أحدكم بعض أعداء الدين والملة

يقع بالكلام فى حق السلطان

أو حق واحد من الأكابر

فعليه بابلاغ الأمر

إلى نائب الحسبة

الشهاب زكريا بن راضى

وله الجزاء ، والمكافأة

ومن سمع وسكت

قطع دابره بغير معاودة

فاعلموا

وعوا ..

ســـــعيد الجهينى

فى القلب جراح صعبة الاندمال ، النفس غابة أسنة وحراب ، مرشوقة لا تنتزع ، لا سد يوقف الأسى المنثال ، يذوى الأول والآخر ، يضيع المثنى والمفرد ، التاء المفتوحة نهاية النهاية ، موت الآمال وليد فراق الأحبة ، أما الأمانى فتنأى ، فى أول العمر يهتف خاطر خفى دفين ، جبينك لم تدركه الغضون ، صدى وسوسات النجوم . يشد الأرض إلى السماء . قلوب الخلق تنهج بالمر والبلوى . لكن صبرا . مهلا . بعد سنوات ستجىء الأيام السعيدة . لن يستقر الأمر على حاله . أول العمر يغمض عينيه فيرى أياما مقبلة . وربيعا فتيا يخرج الخلق بمأمن من عبث المماليك . لا يدركهم خوف من هجوم المنسر . أو كبسة مفاجئة من بصاصين يسعون فى أثر إنسان . لا يحب الإنسان مرتين . أول من يخفق لها القلب. لا تنفى ضرباته . لا تصرع خفقاته . لا تنتزعه من الصدر وتسلمه إلى منقار طير جارح . يلهى به أفراخه الصغار . فى الزمان المرتجى أطفال صغار لا تعرف لغاتهم لفظ الخوزقة . قطع رقبة . وباء ، فى الوجوه صفاء اعتاد رؤيته فى وجه مولاه الشيخ أبو السعود . لن يطول انتظار هذا . يقول لنفسه خمس سنوات .. خمس سنوات لا غير . وتمضى الأيام وتنأى . يسأل ملتاعا . ألم تمض السنون الخمس ؟ ربما بعد خمس أخرى ، أبدا أبدا . حتى أمنيته العذبة . أن يصبح له سكن مستقل يغلق ضبة بابه . دورة مياه لا يشاركه فيها أحد. حتى هذا صعب ومحال . يقول منصور صاحبه : جئنا إلى الدنيا وسنمضى عنها فنحن لسنا بمعمرين وسنترك آخرين يأملون فى قدوم الأيام السعيدة . ياسعيد لماذا نخدع أرواحنا ؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر. ياسعيد إنما نأتى شيئا إمرا . بعد خمس ثم خمس أخرى . الأصابع تنثنى لا تلاحق ما يمضى . وسبع وعشرون سنة مضت . عطن الدنيا أبدى . عبث الجان بالخلق لا ينتهى . الظلم كنيران المجوس لا

ينطفىء ..

* * *

الطريق إلى بيت الشيخ ريحان لا يعرفه الآن . فى الأيام الضائعة انغلق . ضبة المفتاح تلغ فى قلبه . قال منصور . فى الزمان دواء عظيم اسمه النسيان . أحياننا تمضى أيام معدودات تخف فيها حدة الأسى . يهتف بآله المكدود . ها هو ذا الدواء يسرى لكن فى لحظة بعينها . أى وقت من أوقات النهار أو الليل . ربما فى جلسته الصباحية المعتادة عند حمزة بن العيد الصغير . فى رشفة معينة من كوز الحلبة . فى صحن الجامع عند إصغائه إلى الدرس . فجأة يحط عليه ثقل عظيم أوردة قلبه يندفق منها دم معتم يظلم الروح . يذكر لحظة بعينها تنفر آلامه جامحة . يهب واقفا . ما العمر إلا حلقات نحاس محمية . تكوى النفس . ما العمر إلا ذكرى طويلة أليمة . تدثره . تزمله . ترى فى أى الأفلاك منقذه ؟ أى العوالم الأرضية تخفيه ؟ أى النجوم تخفف البلوى . أو تنبئه قبل مجيئها من بعد قصى . أى قمقم يغوص فيه هربا من عصره . من دنياه لا يفتح إلا فى الزمن السعيد الآتى . يفتحه صياد بسيط فيخرج منه شعاعا . يخرج منه روحا وصفاء . يهبه الحياة . والحب الضائع . يؤويه الصياد ، تضمهما الأبدية . لا يضل الطريق إلا من أحب . أما زمانه هذا فلا يقبل ما يجود به القلب الحنون . لا يجفف دمعة أم على ابنها القتيل . لا يبدد الهجر. لا يحيى موات الأمل . لا يجفف الجراح الطرية . أبدا . أبدا . يقول سعيد . ستأتى الأيام السعيدة . يصيح منصور . متى ؟ لماذا نصدم رءوسنا بالصخر العنيد ؟ يا سعيد لا شفاعة للخلق ترجى . حتى لو أتانا الحبيب المصطفى . وحاول ملء الأرض عدلا وسلاما . من بعد أن ملئت ظلما وجورا . يا سعيد أنا مقطوع الأمل من المهدى المنتظر . لو قام ناطق الزمان . لو ظهر . لو جاء من الكعبة يشهر سيفه الذهبى . سيتصدى له زكريا . سيحرمه دخول الديار . سيقبض عليه ويرميه فى المقشرة . الحقيقة الوحيدة فى الدنيا . الحقيقة الأولى والأخيرة هى المقشرة . المقشرة . وما

عداها باطل . لا بل والشهاب والزينى وسنية ابنة الخبيزة . آه يصغى سعيد كثيرا إلى منصور يتأمل كلماته . يلفها ويعدل حروفها ، منذ أيام طلع إلى المئذنة الجديدة ، رأى السواد يلف المدينة لا حس فى العلو الشاهق ، الفراغ بحر بلا قرار ، خال من المحار والأصداف ، رأى نفسه وحيدا ، أول الخلق فى الدنيا ، رأى نفسه ينتزع ضلعا من ضلوعه ، تجىء سماح ، حلقه ضاق بلعابه ، وأنفاسه ، أرسل ألما كالصهد ، شفت روحه وخفت ، تحررت من أسر الجسد ، علت ، جناحاها دموع صافية ، نجوم الأعالى خرساء ، تقول حديثا خفيا غير منطوق ، لا يسمعه مخلوق ، آه ، أليس على حق ؟ إذن لماذا لا يتجسد دعاؤه صاعقة منزلة ، تزلزل الأرض زلزالها ، ينكشف الزبانية الملتحفون بقفاطين ملائكية ظاهرها الخير وباطنها الأذى سداها الشر ولحمتها الضرر ، يؤمون الصلاة ، يعتلون المنابر ، أرسل دمعا صادقا ، كطلوع النهار ، رأى بعينى عقله سماح الرقيقة ، التى تساءل يوما ، أحقا تمضغ وتأكل ما يأتيه البشر ؟ رآها عارية تماما ، يخور فوقها لوطى عارى المؤخرة، يصول ويجول فى أرض كانت حراما ، يحرق عشبها ، يجتز التين والزيتون ، يحصد غلتها ، يطفىء وهجها ، تذكر يد سماح ، يدها الصغيرة، رقيقة كهمسة ، كبيت شعر اتقنت صياغته ، احتواها فى يومه اليتيم الناسك ، عند خروجه معها للنزهة ، شم النسيم ، هذه اليد الرقيقة لا بد أن تتحسس الظهر الخشن المنحنى فوق النبع الغزير ، أما الشيخ ريحان فلا حديث له إلا عن زيارة العظماء الأكابر ، ليلة العرس همس إليه الأمير سودون ، ضحك الشيخ ريحان ، جاءه بعدها الزينى بركات ، يسأله عما قال الأمير سودون ، ضحك الشيخ ريحان ضحكة متواضعة وبسط راحته فوق صدره ، « أعفنى يازينى من البوح بما قاله ، لا أبوح بما استوثقنى عليه » ضحك الزينى ، قال ، أتعرف أنها المرة الأولى التى يميل فيها الأمير سودون على إنسان ويهمس إليه بسر ، طاش عقل الشيخ ريحان طغت عليه الفرحة ، ابنته زوجة لنجل أمير قديم ، فى عروقه تجرى دماء الأمراء والعظماء والأكابر ، آه أى فائدة ترجى من اجتلاب هوام الأفكار ؟ أى نفس خربة ، معطبة

يضمها بين ضلوعه ، أهذه روح لم تعش إلا سبعة وعشرين .

* * *

لا يبالغون فى إخفاء أنفسهم ، يجهرون بالظهور أمامه ، يعبرون الطريق أمام دكان حمزة . كثيرون يروحون ويجيئون ، لكن سماتهم لا يخطئها إنسان ، ربما ظهروا فجأة ، ربما فى هيئة عجوز فلاح يمشى الهوينى ، نظرة خاطفة من عينيه ، تشى بحقيقته ، تقول من هو ؟ ما الذى دفعه إلى المرور من هذا المكان بالذات ؟ ربما امرأة شابة ، ربما عجوز بلغت من العمر قصيا ، الأطفال حتى ، أطفال لا حصر لهم ولا عد يخدمون الشهاب ، يفسد الابن على أبيه ، لا يصدق إلا شهادة الطفل ، من هو دون خمس السنوات ، وهذا أمر مستجد لم يعهده أحد من قبل ، سعيد لا يمشى مع صاحبه منصور ، سيقتفون أثره ، يجهدون أنفسهم فى النفاذ إليه ، سعيد يعلم تماما ، حركاته ترصد ، أنفاسه تحصى . يتحدث كثيرا فى الرواق فى المسجد ربما فسروا حديثه . أضافوا إليه ما لم يقصده . الغريب أنه سمع بعض المجاورين يسبون الأمير طشتمر جهارا . قال : ربما من البصاصين . لكنه سمع مجاورا شامياً من أهالى حلب يقسم بصحيح البخارى . أن الأمير خاير بك يراسل السلطان العثمانى فى الباطن . يخبره بأحوال الخلق فى الشام ومصر . ينقل إليه الصغيرة والكبيرة . وارتفعت الأصابع تتخلل اللحى . فى العيون حيرة . أى بلاء قادم . أى مصائب تحوم ؟ ما أدهش سعيد . ليس اتصال خاير بك بالعثمانية . ربما فكر فى واقعة كهذه ، أمر قريب ممن لا أهل له ولا يد . لكن ما روعه اللهجة التى قيل بها الكلام . أى الخواطر ترقب عقولهم . فى وقت طويل رأى نفسه حامل الثقل الفادح . لا أحد يعينه عليه . حتى منصور صاحبه . إذا سئل عن أصحابه وزملائه . قال لا فائدة منهم ترجى . أتاهم المماليك على غفلة فعملوا فيهم ما أحالهم إلى طواشية لم يعرف مثلهم على مر الأزمان . طواشية ينجبون خصيانا . يعمرون بطون النساء لكنهم بلا ألسنة . معلمهم بصاص ومربيتهم سنية ابنة الخبيزة . الآن يسمعهم يجهرون بما

يتردد هو فى التصريح به . ما الذى جرى ؟ هل أدركته الشيخوخة . هل يمتد مشفر الموسى الى فؤاده . الى وجدانه . إلى لسانه . يروح بين حلقاتهم ويجيء . يصغى . الأخبار تدور . رسل السلطان يعودون من بلاد ابن عثمان ، بهدلهم ، انتهك حرمتهم ، حلق شعر كبيرهم الأمير مغلباى وشكه فى الزناجير . كاد يقتله لولا شفاعة بعض عقلاء العثمانلية فيه ، الحرب أمرلا جدال فيه . قصاد ملك الحبشة يطلعون القلعة . الناس يتفرجون عليهم لغرابة هيئتهم . جان بردى الغزالى . يسافر إلى نواحى الشرقية يلعب بالسيف فى رقاب الفلاحين ، يقتل الآلاف حتى تسد الترع بالجثث ، موت رجل عجوز كان فريدا فى صنع البسبوسة ، بموته اختفى صنف لا يعوض ، لم يعط سره لإنسان ، الزينى بركات ينوى الخطبة فى الناس ، هل تعرفون ، ربما كان بعض الأمراء وراء طلوع أبو الخير المرافع إلى السلطان وطعنه فى الزينى .

* * *

الجامع يفيض بالمصلين ، عبير الوضوء والحصير القديم ، يطلع الزينى المنبر ، لحظة بعينها تجيء فتتغير كل شيء إلى مسار مخالف ، فوق المنبر الخشبى يرى خروجه مع سماح يوم شم النسيم ، ادراكه نهاية فرحته، يوم كامل تحدث اليها ، لم تغب شمسه ، يراه الآن معطلا من الأمل، تضج فى أذنيه الكلمات ، يصغى إلى أصوات العرس ، ليلة أن ذبح ولم يفتده جبريل عليه السلام ، لم يبكه قلبه ، بل هام كالأبرص ، يرى الدنيا ثقبا ضيقا ، تقدم له جرعة ماء ، عندما حالوا بينه وبين الجرى ، سفكت دماؤه فوق صحراء ، اجتز البوح من صدره ، الزينى يتحدث من فوق المنبر، ابن سيد الناس يتجر فى الفول كما يهوى ، الشفاه تتسابق فى تقبيل زكريا ، لمس طرف عباءته ، الرجال أمام الدكاكين يهزون رءوسهم ، يضيقون عيونهم ، يا سلام هل رأت القاهرة رجلا مثله ، انظروا إلى ورعه ، إلى تقواه ، لن يأتى الزمان ببصاص كهذا ، الزينى يخطب الناس ، فى صوته لين ومسكنة ، هل سعى فى زواج سماح ، لماذا العرس ، بأى غرض؟

أين المرأة العجوزالتى تطلع بين الناس ، تصيح بكلمتين فقط فى وجهه ، منذ مدة طويلة لم يرها أحد ، لم يسمع عنها مخلوق ، ، ربما قتلها ، ربما نفاها عن الدنيا ، قالوا إنها تذهب إليه فى المساء ويبكى بين يديها أمام باب بيته ، وإنها تخبره بما جرى وما سيجرى ، بما سيأتى به الزمن ، لكنها الوحيدة التى تصرخ فيه ، سعيد سمعها بأذنيه فى أول موكب ، منذ سنوات عندما رقص طربا ، مال فرحا ، الناس يجأرون بالدعاء، (حماك الله) ، (دام زكريا .. زكريا) ، فليقل سعيد ما قالته هى ، كتفاه تنوءان بحمل هم عظيم، الحجارة تثقل صدره ، لكنه لا يرقد فى هجير مكة ، لا تلسعه نيران الرمال ، لا يهتف كبلال ، كعمار بن ياسر ، أحد ، أحد ، مصرٌ لا يلين كرزرد الحديد وعنف السلاسل ، أحد أحد ، قلها وأطلق صيحة الشهادة ، (عاش زكريا دمت يا زينى) ، ما الذى بقى ليحرص عليه ، زمن إمامه الزينى وشيخه زكريا ، سدنته البصاصون ، كاتم سره عمرو بن العدوى ، ليطرد كهولة ما قبل الأوان ، ليسترد شباب العمر ، ليرفع المشفر الحامى عن اللسان .

« كاذب »

لحظة هينة طنت فى أذنيه ، ذوو الأردية الزرقاء والياقات الصفراء ، زرقاء ، صفراء ، نفذ السهم ، تجمدت اليد فى الهواء ، فوق المنبر .

« كاذب »

لا يخاف الهجير ، لتغرقه نظرات الاستياء ، السقائين ، الحدادين ، المرخمين ، البنّائين ، الفحامين ، النجارين ، الخبازين ، البصاصين ، ليزحفوا إليه ، هم لا يعلمون ، تتدحرج حجارة الصخر والجبل ، لا يهم ، لو نبحوا ابنه بين يديه . ولو ، لو منعوا الماء عنه ، لو أخذوا الرأس وعبثوا بالشفتين . ولو سبقه الحسين إلى احتمال شرف العذاب .

« أنت تكذب » .. »

أهو الصدى ؟؟ أبدا . ربما . عجيب . محير . أصوات أخرى حز الخوف فيها لكنها تنطق معه فى حس موحد شهيد ..

« أنت تكذب . »

« أنت تكذب . »

* * *

مقدم بصاصى القاهرة

الآن لا يرى ما يقوم به رجاله . لكنه يعرف ما يجرى . لم ير وجه سعيد ويعرفه تماما . لكثرة ما قرأ عنه . يعلم أمورا تخصه لا يدرى بها سعيد نفسه . يود لو أسرع الوقت حتى يراه . الوجه الذى قرأ كثيرا عن صمته . هنا سيعرف كل اختلاجة طافت به .

ما الذى يجعل وجهه صامتا دائما . لا يتحدث كثيرا . هوايته القديمة رؤية اللحظات الأولى فى وجه إنسان أحيط عمره بقيود عند الباب الخارجى سيقدم إليه نصف كوب ماء . يشربه معصوب العينين . أى تأثير يحدثه هذا ؟ يقول الشهاب الأعظم . يجب أن تكون الخطوة التى يعبر فيها الإنسان عتبة أبوابنا حدا فاصلا بين عهدين . عندهم ينقسم العمر الواحد قسمين . بحيث يخرج الإنسان من هنا يحمل نفس الاسم لكنه فى حقيقة الأمر شخص آخر » .

* * *

كوم الجارح

جذع دومة قديم عتيد يحاط بسياج من حديد ، مدينة وثنية ترجم ناسكا ، بغداد الإسلام تلتف حول منصة عالية فوقها المنصور ، الحسين بن منصور الحلاج ، الرجال والنساء يرمونه بالأوحال ، اللسان الشهيد لا يكف ، أنا الحق . تعلو اليد الغليظة ، ساعدها مغطى بالجلد المرصع بفصوص الحديد . يهوى السوط فوق الجسد النحيل ، أدرك صاحبه الأحوال والفروع ، كلت يد الجلاد من الضرب ، قطع ذراعى الحسين ورجليه ، الابتسامة فوق شفتى العابد الزاهد ، توحى بالظاهر والباطن ، وجهه ملطخ بدم ذراعيه المتدفق لا يتوقف ، لا يكف ، إنما يندفق من سخاء مبين ، مال المشفر الحامى ليجتز اللسان ، فى الليل انتثر

الرماد المحروق فوق دجلة أما الرأس فنفى إلى خراسان ، تجمعت بغداد ، أغرقت الحسين بن منصور ، ما الزمان هنا إلا امتداد هذه الأيام الثقيلة النائية ، ظل لزج لا يروح أبدا ، الخير مسكوب والشر باغ والعهر طاغ ، إلى أى الأرجاء يأوى ، إلى أى السبل يلجأ ؟ حيرة غير متوقعة ، غير مرجوة فى نهاية المطاف ، سعيد أرجف قاع روحه ، أضاعوه ، أصوات المدينة تتباعد ، ما أحوجه إلى غيبة ، إلى إحاطة الروح بجدران الصمت ، إلى استرجاع الأيام البعيدة ، ليدرك سر الابتسامة الجماد ، بينما اليدان مذبوحتان والرجلان ، يحاول لم الرماد ، يسأل الروح ، أى سر ، انصرف منصور تطارده أشباح الزمن الخائن . منصور يرتعش، يرتجف ، ربما جاء ليلتمس الأمان ، لكن أى أمان ، فى قفاه عينان لا يراهما مخلوق ، تكبلان رؤيته ، تحددان طريقه ، منصور نقل ما يقوله الناس « مولانا اختار الزينى وثبت أركانه ، فأى شفيع له يرتجى ؟ » ، آه لو يطلق صيحة الخلاص ويمضى ، لكن إلى أين ؟ حتما سيلقى المسيخ الدجال ، إلى أين ؟ إلى السرداب الذى حفره بأظافره ، أهذه نهاية المطاف ؟؟ آه .. سقط فى كمين متقن ، أعده باغ بعناية .

* * *

مقتطف من مذكرات الرحالة الإيطالى
فياسكونتى جانتى
١٥١٧ م ٩٢٢ هـ

فيما يبدو ، قدر لى أن أشاهد خلال هذه الرحلة - الثالثة - إلى الديار المصرية ، أحداثا كبيرة ، بعد وصولى من بلاد السودان بأيام ثلاثة ، نزلت المدينة ، عرفت خروج السلطان إلى الشام لمحاربة سلطان الديار العثمانية ، سمعت المؤذنين يدعون لسلطان البلاد بالنصر ، وقيل لى إن القاهرة ارتجت رجا مهولا يوم السبت ، وتحسرت فعلا لوصولى بعد خروج موكب السلطان على

رأس جيشه قاصدا الشام ، وحتى لا يفوت أهل بلادى وصف الموكب ، وللأمانة فإننى أنقل عن صديقى الشيخ محمد أحمد بن إياس . وهو من أهل العلم المعروفين فى القاهرة وصاحب تاريخ طويل عن الديار المصرية ، أتمنى لو أتيحت لى فسحة وقت أعرف به أهل وطنى ، وحضر ابن إياس ـ برغم كبر سنه ـ خروج السلطان ودون ما رآه ، وسمح لى بنقل ما كتب ، يقول صاحبى ، ابن اياس ..

(.. أقبل السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى ، وكان الخليفة قدامه بنحوْ عشرين خطوة ، وكان السلطان راكبا على فرس أشقر عال ، بسرج ذهب وكنبوش وهو لابس عباءة بعلبكية مطرزة بالذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة ، وكان ذلك اليوم غاية فى الأبهة والعظمة ، فإنه كان حسن الهيئة ، تملأ منه العيون ، مبجلا فى المواكب ، ثم أقبل السنجق السلطانى ، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثمانلى وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش ، فدخل من باب زويلة ، وشق القاهرة فى ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة فى ذلك اليوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام الذين خرجوا كلهم ، ولم يبق منهم إنسان فى بيته ، وبدت وجوههم مرعوشة تأثرا وانفعالا ، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان ، فاستمر فى ذلك الركب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا .

وفى أعقاب ذلك نزل حوايج خاناه ، فيها مال وذهب وفضة قيل إن ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال التى جمعها من أوائل سلطنته إلى أن خرج فى هذه التجريدة ، وفرغ أيضا حواصل الذخيرة عن آخرها ، وأخذ ما فيها من التحف والهدايا ، وآلات السلاح الفاخرة مما كان بها من ذخائر الملوك السالفة ، من سرج ذهب وبلور وعقيق ، وكنابيش زركش ، وغير ذلك من التحف الملوكية . فنزل جماعة من كتاب الخزانة صحبة الحوايج خاناه وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الحوايج محملة على خمسين جملا ، قيل إن جميع هذه الأموال أودعها الغورى

بقلعة حلب ، وفى يوم الأحد السادس عشر أرسل السلطان مناديا للعسكر فى القاهرة بأن السلطان يرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرين ربيع الآخر (طبقا للتقويم الإسلامى) ، فلا يتأخر أحد من العساكر الذين عينوا للسفر ، ولا يحتج أحد بحجة أو عذر ، فلما أقام السلطان فى الوطاق ، وعين السلطان بعض القضاة والأعيان ليتولوا المناصب وأحوال الناس خلال سفره ، فاستقر بالقاضى محمود بن أجا فى كتابة السر ، والقاضى علاء الدين بن الامام فى نظارة الخاص ، والقاضى شهاب الدين بن أحمد الجيعان مستوفيا لديوان الانشاء الشريف ، والقاضى الزينى بركات بن موسى ناظراً للحسبة الشريفة ، وواليا للقاهرة ومتحدثا عن جميع أنحاء مصر ، وأضيفت إلى مناصبه الجليلة استدارية الذخيرة .

* * *

السرادق الخامس

(اللهم اجعل هذا البلد آمناً)

سرى لا يطلع عليه مخلوق

القاهرة جمادى الأول ٩٢٢ هـ

(رسالة أعدت ؛ بمناسبة اجتماع كبار البصاصين فى أنحاء الأرض وأركان الدنيا الأربعة فى القاهرة أم الدنيا ؛ وبستان الكون ، لتدارس الأحوال ؛ والنظر فى الأساليب المتبعة ؛ وما يستجد منها ؛ ولتبادل المعرفة والفوائد أعد فى ديوان بصاص السلطنة المملوكية ؛ وتلاه الشهاب الأعظم زكريا ابن راضى عفا الله عنه ، وعرفه طرقه ؛ ومسالكه)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى « إن ربك لبالمرصاد »

قال تعالى « وأن الله علام الغيوب »

قال تعالى « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد »

(صدق الله العظيم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا ، أو ليصمت » .

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه « الكلام كالدواء ، إن أكثرت منه قتل وإن أقللت منه نفع » .

« أما بعد » :

فلم يحدث أن اجتمع كبارنا فى أركان الدنيا قط ، وهذا حدث جلل وعظيم ، إذا كشفت عنه الأزمان المقبلة فحتما ستلقى فيه من الدروس والعبر ما يعرفون منه أننا حملنا عبئا ثقيلا وحملا فادحا ، وأننا عانينا ، وقاسينا ، وضحينا بالكثير من أجل إرضاء الله تعالى ، جل شأنه وما ، نهدف من وراء لقائنا هذا ، إلا استحداث طرق جديدة ، وسبل غير معروفة،

تعيننا على مهامنا الصعبة ، وهذا يساعدنا فى الوصول إلى لب الحقيقة ، وسوف يسهل الأمر لمن يجىء بعدنا ..

والله المعين ..

« نشاء بحكم عملنا ، وما يتعلق به ، أن يحيطنا وضع غريب ، وهذا يتطلب من البصاص الكبير المهيمن على أمور الدولة بأكملها ، حتى البصاص الصغير الذى يتعقب رجلا أو امرأة ، أو ينقل كل ما قيل فى مجلس أن يكون صاحب فطنة وذكاء ، عليه إيجاد أساليب لا تمكنه من العيش بين الناس آمنا ، إنما لابد من عيشه محبوبا ربما بدا هذا صعبا ، كيف يتأتى لرجل قدر عليه بحكم مهنته أن ينفذ إلى حياة الناس وخباياهم ـ وهذا مكروه ـ أن يكون محبوبا ؟ كيف يقصده الخلق ليحل لهم أمورهم ؟ لكن لنلحظ أولا أمرا هاما ..

مهمة البصاص ـ بلا لف أو دوران ـ إقامة العدل بين الناس ، ولكن بأسلوب لا يتقبله الناس ، وحيث إن كل أمر فى الدنيا لا يتفق عليه اثنان ، مثلا ، هذه القاعة التى نجلس فيها ، البعيدة عن أصوات الدنيا ، وضجيج أهلها ، لا نراها جميعا فى هيئة واحدة ، مثلا كبير بصاصى الهند الأعظم يرانى واقفا هنا ، وكبير بصاصى اليمن يرانى من الجانب الأيسر ، أما كبير بصاصى السودان المبجل فيرانى من مكان آخر بصورة مغايرة ، حتى التراجمة يروننى بهيئات مختلفة وينقلون إلى حضراتكم حديثى ليس بنفس الألفاظ ، إنما المعنى ، ومن هنا تصبح لى أكثر من صورة ، والحقيقة أن وضعى واحد لا يتغير ، وحديثى يتغير على ألسنة التراجمة لكن معناه كما هو ، وهكذا .. ما نراه نحن عدلا يراه الآخرون ظلما وجرما .

البصاص لا يعمل من أجل نفسه أبدا ، الغرض الأول والأخير ، إرضاؤه سبحانه وتعالى ، ثم يأتى السلطان بعد هذا ، ثم أركان الدولة ، وما دام البصاص مؤمنا بالله ، بربه ، مسلما كان أو مسيحيا ، أو بوذيا ، ويؤمن بمولاه ، فانه يعمل جهده كله على تثبيت قواعدها ، ورفع الأذى

عنها. ما من عاقل يزعم وجود إنسان محبوب من كافة قومه ، لم يخلق هذا قط ، ألم يكن خاتم المرسلين وسيد البشر مضطهداً من قومه ، ألم يرمه اليهود بالحجارة من فوق أسوار الطائف فألهب الهجير باطن قدميه . وسال دمه ، ألم يتآمروا على قتله ؟ ألم يحاربوه وتأكل واحدة منهم كبد عمه حمزة نيئة ، ومن قبل أن يثقلوا رأس المسيح عليه السلام بالشوك ، ودقوا المسامير في جسده وصلبوه ، أما سيدنا يوسف فاخوته هم الذين ألقوه في البئر وحزوا نفس أبيه يعقوب ، حتى البوذا الأعظم امتلأت حياته بآلام ومواجع ، وهذا حال الأولياء الصالحين ، والشهداء والقديسين وخلاصة هذه العبر أنه ما من إنسان يجتمع الخاصة على حبه ، بما فيهم من خوارق واختلافات ، وبالتالي . فان حاكم أي بلدة من بلدان اللّه ، لابد أن يضبح مكروها من جانب آخر ، والحاكم الأمثل من نجح في ترغيب الأغلبية فيه ، وتقليل أعدائه ، إذن ، لابد من وجود أعداء يتربصون ويكيدون ، ويتحينون الفرصة للانقضاض ، وهؤلاء إما من الخارج ، أي مخالفين للجنس ، أو الملة ، وفي هذه الحالة لابد من الالتفاف حول الحاكم ، ومهنة البصاص هنا مقدسة ، ولا يختلف في هذا اثنان ، وإما أعداء في الداخل وهؤلاء يوجدون بين الأمراء والصفوة ، وبين عامة الناس .

الدرس العظيم المستفاد من التواريخ ، أنه في حالات اندلاع الفتنة فلابد من حياد البصاص . البصاص يعمل للعدل وحده ، ورمز العدل هو كرسي السلطنة ، كرسي السلطنة ذاته .

إذا تآمر بعض الصفوة ، أو جماعات من العامة على الكرسي ، فلابد من إبلاغ الأمر إلى صاحب الكرسي ، هذا واجب ، لكن لنفترض وصول بعض الصفوة المتآمرة أو العامة (الغرض الأخير نادر الحدوث) قد وصلوا إلى تقاليد التملك والسيطرة ،

ما هو موقف البصاص هنا ؟؟ نقول مادام البعض انتزع المقاليد من صاحب الكرسي الأصلي ، وتمكن من اعتلائه فليس هذا إلا دلالة على ضعف الأول ، كيف يمكنه إقرار العدل إذا كان لا يمكنه حماية روحه .

ربما ثار سؤال ، هل يبقى الجديد على القديم ؟ هنا يمكن للحفاظ على المكانة وضع شروط معينة ، يتوقف تنفيذها على مهارة البصاص وقدرته ، مهارته فى النفاذ إلى جوهر المكنون وخبايا كل إنسان ، وما دام يشعر الإنسان بوجود عين ترى منه ما تراه بقية العيون وأذن تسمع منه ما لم تسمعه بقية الآذان ، فانه يخشى هذا الجانب ، ويضع له ألف حساب ، لقد ذكر لنا كبير بصاصى دولة المغرب المعظم أنه حدث منذ مائتى عام أن تعصب كبير البصاصين ، وقتئذ للحاكم الموجود ، بالغ فى إخلاصه له مبالغة تزيد عن الحد حتى اكتسب عداء الأمراء والعلماء كلهم ، وعندما نجح أحدهم فى إزاحة الحاكم ، وتولى مكانه لم يأخذ كبير البصاصين جانب الحياد ، إنما جهر بالعداء حتى بعد تيقنه من قتل الحاكم ، وهذا عين الغباء ، تسبب فى إيذاء جمع كبير حوله ، التصرف الأمثل هنا ، الصمت ومراقبة العامة ، حتى لا يحشروا أرواحهم فيما يدور من صراع ، فينحازوا إلى جانب هذا أو ذاك نضع لهم آلاف الاعتبارات ، وسيتحدث كل منا عنهم فى جلسة أخرى ، وعندما تستقر الأمور يبدأ ممارسة عمله ، وإقامة ميزان العدالة ، وربما عدنا من هذه النقطة إلى نقطة أخرى ابتدأنا فيها ، كيف يكون البصاص محبوبا من الناس ، برغم كراهية الخلق لمهامه، لعمله .

كيف يكون البصاص محبوبا من الناس ؟

من خصائص البصاص الأعظم ، البصاص الصفوة ، قدرته الفائقة على اكتساب قدرات الخلق كلهم ، طبيعة البصاص تقضى عليه التداخل والتعامل مع جميع الناس ، مع عدد كبير من الأجناس ، آلاف البشر المختلفون فى طبائعهم ونزعاتهم ، لا يوجد شبيه للآخر ، والبصاص الحق ، البصاص المكين ، هو من استطاع جمع خصال البشر أجمعين وهذا صعب، ربما يبدو محالا ، لكنه سهل علينا يسير ، يجب على البصاص أن يكون فحاما عندما يتحدث إلى الفحامين ، عطارا نابغا فى العطارة عند

حديثه إلى العطارين . ساخطا عند استماعه إلى الساخطين . حشاشا عندما يأتنس بالحشاشين ، خاطئا عندما يسلك طريق الخاطئين . مستغفرا تائبا عندما يسجد بين التائبين . راضيا مع الراضين . يجب عليه أن يتنقل بين إظهار الكراهية والإعراب عن الحب فى غمضة عين ولابد أن يقنع فى كلا الحالين . لابد أن يتقن لهجة الأغنياء ، متواضعا يخالط الفقراء . سفيها محببا إلى السفهاء . حتى إذا جالس النساء عرف طريقه إلى قلوبهن وعقولهن الناقصة . هذا ما نراه فى البصاص المكين . ومن أهم ما نقيس به مهارة بصاص . هو اتساع علومه ومعارفه عن الأشخاص . كلما تبحر البصاص فى العلم ، جمع الأصول ، وأتقن الفنون ، كان أكثر قدرة على النفاذ إلى أحوال الدنيا وأسرارها ، طبعا هذا يستحيل على كل بصاص . من هنا قلنا بعدم ضرورة إلمام البصاص بالعلوم كالمتبحر فيها ، إنما عليه الإلمام بفكرة عامة ليست سطحية ، عن كل تاريخ وعلم وفن ، فكرة خاصة الطابع ، جليلة المظهر ، من أجل هذا قمت باعداد مناهج خاصة فى سائر العلوم التى فكر فيها الإنسان ، ندرسها فى مدارسنا ، لكى يستوعبها رجالى فتنمو قدراتهم ، ولا تعجبوا يا إخوانى البصاصين العظماء ، يا من تملكون سر الكون إذا أخبرتكم عن بصاص شاب من رجالى يمكنه مجادلة أمتن العلماء فى أشد ما يمسهم من اختصاصات بدون فكرة سابقة عما يناقشه ، وطريقته تعتمد على الذكاء الحاد الوقاد ، وأخذه لبعض الكلمات والأفكار من المتحدث ، ثم تحويرها بشكل خاص والنطق بها على أنها أفكاره هو ، ولو شئتم أحضره إليكم وأتركه لمناقشتكم ، ومن أغراضى التى أنوى إنجازها قبل رحيلى عن الدنيا ، الوصول بكل بصاص عندى ، إلى مستوى يفوق هذا الشاب .

إلى جانب ما ذكرناه ، نطبق طريقة أخرى فى النفاذ إلى خبايا الدنيا ، للوصول إلى جوهر الحقيقة ، الاطلاع على الأسرار الأولية ، خصصت لكل طبقة وجماعة ، أفرادا بصاصين ، يتشربون عاداتهم و تقاليدهم ، وسائر ما يخصهم ، وكلامى هذا منصب على البصاص الأصلى ، إنما هناك

جانب اخر ، هو البصاص (المستصنع) وأقصد به البصاص المنضم إلينا من نفس البيئة ، بمعنى إذا أردت جمع معلومات معينة عن النحاسين قمت بضم واحد منهم إلى ، بدلا من اللف والدوران ، وإرسال شخص غريب لابد من وقت حتى يصبح واحدا ، المهم مراعاة السرية التامة بالنسبة للبصاص المستصنع وتمرينه تمرينا متقنا ، بحيث تطوع قدراته لعملنا ، وبالنسبة للمستصنعين يجب اختيارهم من بين أكثر الناس أمانة وثقة واستقامة ، إذا نجح البصاص الأعظم فى ضم مثل هذا ، فرنه نجاح عظيم، أخبرنا كبير بصاصى بلاد الصين العظيمة أنه نجح فى ضم أكابر العلماء إلى صفه ، والأعيان ، والكهنة خدمة البوذا الأعظم يعملون معه ، يسعون إلى ركابه ، وطبيعى أن نلقى من أمثال هؤلاء مقاومة لظنهم ضعة مهامنا وعدم اتساقها مع الشرف والأمانة ، لكننى أقول واثقا إنه ما من إنسان فى الدنيا يستعصى على البصاص المكين . لنمسك ظروف كل إنسان وحياته . وننفذ من خلالها إلى ما يمكننا من تطويع وتليين جامد فكره . بشرط أن يتم هذا كله بهدوء ؟ ودون قسوة . وعندى الآن مثال حى . إنسان هو فى أوهج فترات العمر نعد له من سنوات . وسوف أقوم يوما بكتابة رسالة مفصلة للعملية التى نجريها . عندما أصل إلى غايتى التى وضعتها منذ البداية . بل أوقن أنه سيشارك فى كتابة جزء من الرسالة . يكشف ما جرى له . وما حدث ، بعد أن كان لا يطيق سماع اسمى . ولا هم له إلا تهييج العامة على أولى الأمر . وهنا لابد من تحية وسلام أوجهها إلى زميلنا الأعظم بصاص مملكة الفرنج الغربية على نجاحه فى ضم أطفال المملكة إلى صفوفه . لقد زرع روح البص فى عقولهم وأطفالهم منذ تعلمهم نطق الكلمات ، فلا يسمع الطفل كلمة من أبيه أو أمه إلا ونقلها . وأصدق الخلق هم الأطفال . وشهادتهم لا تكذب أبدا ، وهكذا لو نجح كل واحد منا كما نجح زميلنا الأعظم . لتوصلنا إلى تحويل البشر أجمعين بعد سنين إلى بصاصين . وهذا أمر جليل يتطابق مع كل ملة ودين ، ولزميلنا الأعظم الحق فى الاحتفاظ بأسرار طريقته التى حولت الأطفال إلى بصاصين فهذا

لم يتوصل إليه فى غمضة عين ولكن بعد جهد سنين . لكننا نرجو الاستفادة منه واسمحوا لى أن أبدى إعجابى الفائق به . وبأحواله . لنجعل غايتنا وهادينا فى دنيانا وهدفنا تحويل البشر أجمعين إلى بصاصين . إن ما نبغى الوصول اليه ، سر الحقيقة . برهان الحق . وهذا شاق وفظيع . فما أكثر الطرق إليه !

كيف نصل إلى معرفة الحقيقة الأولية ؟؟

ما أتلوه الآن تسمعونه حضراتكم . وعند خروجكم من القاعة ، إذا اختلى واحد منكم بصاحبه . واستعاد ما قلته . هل سيقوله بنفس اللهجة ؟ نفس الألفاظ التى قلتها أنا ؟ بالقطع لا . محال . وعندما نذكر مجلسا . أو صحبة أو رحلة . فلا يمكننا استرجاع ما مررنا به تماما . إنما نحكيه فى عبارات لا تقرب ما حدث . لا تقوله كما جرى بالضبط ؟ وعندما أتسلم شخصا متهما بتهييج العامة . سينكر فى البداية كيف أعرف الحقيقة إذن؟ يمكننى ببساطة ذبح أى مخلوق ، فزماننا لا نسأل فيه عن مصير إنسان ، لا يحاسبنا أحد ، لا يطالبنا بدية ، لكننى لست جلادا ، أو غشوما ، أنا أحاول الوصول إلى الحقيقة ، وعندما تتكشف ، ستفصح عن أمور أخرى أعم وأدق ، ربما تندثر لو أزهقتنا روح قائلها منذ البداية ، ومعرفة ما جرى أمر صعب ، الزمن الماضى ليس موجودا فى مكان وزمان معين يمكننى الذهاب إليه فأستعيد ما جرى ، الأمس أوالسنة الماضية فى صورة موجودات ، إنما نلقاها هنا ، فى أذهاننا ، فيما يصيبنا من تحولات وتغيرات ، ولكى أصل فعلا إلى الحقيقة الأولية ، لابد أن يلفظها الإنسان نفسه ، تلفظ بالقلب والعقل ، بالإقناع والصدق وتؤكدها الأدلة والقرائن . ولكى يلفظ الإنسان الحقيقة يحق لى استخدام ما أراه مناسبا من كافة ألوان الأساليب التى تؤدى لنطق الإنسان بالحقيقة ، ومن هنا فكل ما يقوم به رجالنا من مهام وما يطبقونه من وسائل فى سبيل كشف الحقيقة أحلته الشرائع كلها وأذكر هنا بالاحترام رسالة كبير بصاصى مملكة البرتغال الأفرنجية، المتضمنة لوسائل جديدة لإنطاق الإنسان بالحقيقة ، والحق أن

جميعها أمور مستحدثة فى مجالنا ، أضافت إلينا أبعادا طالما تمنيناها وطال اشتياقنا إليها ، وهنا ، اسمحوا لى بذكر ما نتبعه هنا ، من تطويع الظروف نفسها لخدمة رسالتنا .

كيفية تطويع الظروف ؟؟

نبدأ بمتابعة الإنسان فى حياته ، وليس فى سجوننا ، وننفذ إليه من ثغرات ضعفه ، نفسح هذه الثغرات ، نقوض الأسس والأبنية ، وكما ذكرت، سهل جدا قتل ألف إنسان ، لكن ليس هذا مهما ، ما يهمنى تغيير ما فى المخ والقلب ، وهذا صعب ، وللصعاب دائما نتصدى ، إذا ثبت لنا شذوذ شخص عن الخلق ، إذا ثبت أنه يهيج الناس ، يفتح عيونهم على الكبراء ، فبدلا من الترسيم عليه ، ورميه فى المقشرة ، والمقشرة يا سادتى العظام من أبشع سجون الدنيا ، وأنا شخصيا أتفاخر به ، وأدعوكم إلى زيارة وجولة تطلعون فيها على ما أعددناه للمساجين به ولن نخفى عنكم أمرا ، نعود إلى حديثنا فأقول ، نبدأ بدراسة حياة الشخص ، أرقب ظروفه ، ثم أصب مائى على نار الهياج فأخفف لسعتها ، وفى لحظة بعينها أنفخها فأجتر حرارتها من قلب الرماد ، أمد سكين الزمن إلى عقله فأنزع منه ما يجعله شاذا عن بقية الخلق ، حتى لا ألقاهم جميعا منطوين يوما تحت كلماته ، يرجمون أميرا ، أو يحرقون قصرا ، أو ينهبون سوقا ، أو يهاجمون موكب السلطان ، وكما قلت ما من إنسان فى الدنيا يستعصى أمره على التغيير والتبديل ، يا أصحاب العظمة ، يا كاشفى الحقيقة ، هذا ما نعيه هنا ، ونؤصله عندنا ، ما من مخلوق يظل على حاله ، ما من زهرة تبقى متفتحة ، ما من شجرة تظل سامقة ، ما من امرأة تدوم شابة إلى الأبد ، ما من طائر يعلو بلا حد ، ما من نشوة تحيا أبدا . الشمس تشرق لتغيب ، النهار يطلع ليشيخ ثم يعتصره الليل ، والقمرلا يبقى فى العيون مكتملا ، النهر يبدأ لينتهى ، والغيث بعد حين ينقطع ، والمسافة مهما طالت تقصر وتنتهى ، سادتى ممسكى سر العالم ، ما من إنسان قط يبقى كما

هو ، والزمن وحده ليس سببا ، نحن ندعمه ، إذا وجدنا فى نفس المرء ثغرة خوف برغم اشتهاره بالشجاعة ، أحوم من بعيد كطائر محلق على ارتفاع شاهق ، كطائر الحدأة عندنا ، لا أنقض غارزا منقارى ومخالبى ، إنما أدوخ، أدور ، أنزل إلى ارتفاع معين ، ثم أطير مرة أخرى حتى اختفى ، وأعاود النزول سهما خاطفا ، وشهابا ثاقبا ، كلمح البرق ،كصاعقة أنقض، كخاطرة عابرة، هنا تنتهى مرحلة ، وتبدأ أخرى ، يا سادتى العظام ، ما من إنسان فى الدنيا إلا وفى ميدان نفسه حفر وجراح ، ثغرات وقلاع ضعيفة متهاوية يقع على عاتقى واجب النفاذ منها ، مرة أنفذ على مهل ، متحسباً متسللا لا يسمع لى صوت ولا أنفاس ولا فحيح ، فجأة أبذر منجنيقى ، أنصب مواقعى ، أبث رماحى السامة أشهر سيوفى ثم أهجم مرة واحدة ، أطوق . أحرق . أهدم ، أحيل البناء أنقاضا والعمار خرابا والأمان يأسا والآمال فشلا منبوحا ، والميناء الصالح لرسو السفن أجعله غير صالح لإيواء ورقة شجر ، إذا كان فى صرح الشجاعة نقطة خوف أحولها إلى بركة ثم محيط، لو فى قرارة القلب حب مخلوقة ما ، أحيله إلى كراهية لا تحد ، أجعله بغضا ، لو وجد بين الحبيب ومبتغاه عقبات يأمل هدمها ، أجعل منها مستحيلا لا يمكن تخطيه . أقيم الحدود والحواجز . أحفر الخنادق وأبث كمائنى فأصيب النفس بجراح تبقى طرية حتى بعد الممات . أبث فى الروح عكارة لا تروق أبدا ، إذا سخط الإنسان لفقره بذرت له آمال الغنى والجاه ، أذيقه نتفا من حياة الرخاء يتعود عيها ، حينئذ أحيله مسخا فى عيون الخلق لا يقدر على العودة إلى قومه ولا يمكنه حتى التطلع إلى الأمام .، وهكذا بدلا من بتره حيا أحوله وهو يمشى على نفس قدميه ويحرك ذراعيه ويتحدث بلسانه يناديه الناس باسمه لكنه فى الحقيقة شخص آخر وانسان ثان لا علاقة له بالوليد الذى انزلق يوما من رحم الأم أو الفتى اليافع الذى اختال وزها بين أقرانه ، حتى رجولته أقلبها أنوثة ، أضيع معالم الشارب واللحية ، لا أحلقهما لا أثقب أذنيه وأعلق فيها الأقراط ، لا أبتر عضوه ، كل ما فيه يبقى على حاله لكنه لا يبقى ، هنا

سيفكر لكن كما أريد أنا ، يثير الناس أيضا ، لكن كما أهدف أنا وليس كما يحب ويشتهى ، هذا ما أتمه فى الحياة نفسها ، وإذا انتقلنا إلى الفترة التى يمكن للإنسان قضاؤها فى السجن ، هنا أسمح لنفسى مخالفة زميلى كبير بصاصى البرتغال الأعظم فى بعض ما ذكره فى رسالته ، كان تركيزه كله على ألوان العذاب البدنى ، أبدا عندنا الآن النموذج الذى أشرت إليه ، ما الذى نفعله معه ؟ على سبيل المثال نفتح الباب عليه فجأة فى آخر الليل ، يضحك رجلنا فى وجهه ضحكة معينة ، ضحكة مدروسة يسأله بلهجة كاللحم البارد الذى تجلط عليه السمن « هل تريد خدمة » نقدم له كل يوم فى ميعاد معين ربع كوب ماء .. ماء عادى جدا لكن وقعه عليه أفظع من كى الأصابع ، دبرنا موقعا بحيث أجبرناه على رؤية حبيبته السابقة التى هام فيها وجدا وهياماً وأنشأ فيها القصائد ، رآها عارية تماما .. يخور فوقها زوجها . زوجها وليس أى إنسان آخر وكانت تأتى من الحركات ما جعل شعر رأسه يشيب فعلا . لحظة الضرب أو التعذيب نفسها لا تؤلم يا ممسكى سر الكون . إنما ما يؤلم انتظار الانسان لهذه اللحظة بعينها ، عند تعذيب شخص ، ما الذى ينتظره أكثر من هذا ؟ لكن المهم أن يعيش فى انتظار دائم هذه اللحظة ، اللحظة المقبلة سيحدث ، ترى لماذا لم يحدث ، ما مغزى كوب الماء هل تغير طعمه ؟ طعمه فعلا متغير ، ربما وضعوا فيه سائلا أو عقارا ينسينى زمانى ومكانى ربما أرادوا إفقادى رجولتى ربما يقتلوننى ببطء . سادتى العظام ، لقد أجرينا تجربة منذ فترة وجيزة تقدر بأيام على إنسان عصبنا عينيه لامسنا رقبته بحز الموسى حزا خفيفا بحيث لم تحدث به إلا جرحا طفيفا جدا لكننا أمسكنا بأنبوبة رفيعة تصل بقربة صغيرة بها ماء دافىء ، صارت القطرات تنزل منسالة ونقول له ، قل أين أموالك ونوقف الدم ، توهم فعلا أن رقبته تنزف دما غزيرا ، قال لنا كل ما نريده ، بل أكثر ، دلنا على أمير صاحبه اشتهر بظلمه ونهبه للأموال ، صار يزعق ، أوقفوا الدم أوقفوا الدم ، ونحن نحدث أصواتا نوهمه اننا نحاول فعلا إيقاف الدم ، لقد مات الرجل بعد لحظات ، مع أنه لم ينزف دما

. لكنه توهم الماء الدافىء دما . وأن شرايينه جفت وخلت ومات ، أننى أعصب عينى السجين ، يمشى دائما متوقعا ضربة مفاجئة تأتيه لكن متى، أين ؟ هذا ما يتساءل دائما عنه، وفى ليلة معينة أدخل إلى زنزانته الضيقة النظيفة . (هذا نظام جديد للسجون ونضعه فى سرية تامة) أدخل عليه أحد رجالى على أنه سجين . ولا تمضى ساعات إلا ويدب الشجار بينهما يتشاجران على أتفه الأمور هذا ما أجريته على الشاب الذى حدثتكم عنه ، أمرت رجالى بالالتصاق به أثناء نومه ، قام مفزوعا ظنا منه بنية أضمرها الرجل ليزنقه ثم يناله غصبا، وهكذا أحيل الحياة إلى جهنم أبطنها بشوك فيصبح الموت أملا مرتجى ومتعة بعيدة المنال .

رجــاء

أثارنا المطلب الطريف الذى قدمه كبير بصاصى دولة كاجورا الفتية الخاص بما يوده لمهامنا فى الأزمان المقبلة ، وأرجو السماح لى بإضافات بسيطة إلى أفكاره ، كما أعددت ملاحق خاصة جدا حول عدة مشاكل نواجهها سأقوم بتوزيعها عليكم كل منها مترجم إلى لغات حضراتكم ، وأقول متمنيا لا يوجد أمر على الله ببعيد ، ما نراه مستحيلا اليوم . يدخل باب الممكن غدا . وغدا بالنسبة لنا دون حد ، إننى أرى يوما يجىء فيمكن للبصاص الأعظم أن يرصد حياة كل إنسان منذ لحظة ميلاده حتى مماته ليس الظاهر فحسب ، إنما ما يبطنه من خواطر ، ما يراه من أحلام . بهذا نرصد كل شىء منذ مولده نعرف أهواءه ومشاريه بحيث نتنبأ بما سيفعله فى العام العشرين من عمره مثلا ، فنستطيع منعه أو دعمه قبلها وإذا ما سئل إنسان عن الحقيقة الأولية فأنكرها يمكن للبصاص استعادة الموقف كاملا من الزمن فيواجه به إن أنكر ، أرى يوما يجىء فيمكن للبصاص معرفة الهمسات . الآهات ، تأوهات الجماع بين الرجل وإمرأته . إذا ما جرى حديث بين رجلين فوق قارب يجرى فى النيل أدركه هنا ، ويمكننى التدخل فى الحديث عند الوقت المناسب وتوجيهه ، أرى يوما تنزع فيه

الأعضاء من جسم الإنسان لتسأل عما فعلته ، فلا يمكنها الإنكار ، أرى يوما تطلق فيه على الناس أرقام معينة ، فيحدد البصاص لأهل كل حارة أرقاما ، هذا رقم (١) هذا رقم (٢) بحيث لا يحمل شخصان رقمين متشابهين ، وهذا أمر ناقشته بتوسع وإفاضة فى أحد ملاحقى التى ستوزع عليكم وهذا يساعدنا فى حصر الخلق، بدلا من تعدد اسمائهم وتشابهها .

(وبعد)

فما ذكرته أخيراً أخيلة تراودنا ، لكن عندما يصير الأمر حقيقة ، فسوف يقول بصاصو الأزمان المقبلة انظروا ، كان أسلافنا أبعد نظرا وأشد عزما .

« وعليكم سلام الله وأمانه »

« كبير بصاصى الديار المصرية »

زكريا بن راضى

* * *

ذيـــل (١)
مطلب فى كيفية إعداد طعام المساجين وطرق نومهم وأفضل اللحظات اللازمة لإقلاق راحتهم .

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين بعينه

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بالمقر الرئيسى لبصاصى القاهرة
٩٢٢هـ ـ ١٥١٧ م

ذيـــل (٢)

مطلب فى الوسائل المقترحة لترقيم الناس ، بدلاً من الأسماء ، ونص فتاوى شرعية تبيح هذا فى ســـائر الأديان .

لا يطلع عليه إلا كبير البصاصين

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بالمقر الرئيسى لبصاصى القاهرة
٩٢٢ هـ ـ ١٥١٧ م

ذيـــل (٣)
مطلب فى كيفية الرقابة على الرقابة
أى كيف يرصد بصاص بصاصاً
آخر ..

حظر وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بمقر محتسب الديار المصرية
٩٢٢ هـ

ذيـــل (٤)
مطلب فى كيفية إقناع الناس بوجود
ماهو غير موجود

حظر وأبيح لكبار البصاصين دون غيرهم
رجاء تسليم هذا الذيل بعد دراسته وقراءته

قام بالترجمة ديوان الترجمة
بمقرمحتسب الديار المصرية
٩٢٢ هـ

الوقت ذاته من كل عام ، البيت يفتح للمريدين ، طلاب الحق الجوابين الساعين حبا فى أهل البيت ، بعضهم التقى فعلا بالنبى الياس عليه السلام ، لم يفن ولم يمت ، النبى الياس شرب من نبع الحياة فما عاد الموت يقربه ، عاش الشيخ أبو السعود على أمل اللقاء به ، التزود من حكمته ، الاستماع إلى قصص أجيال اندثرت . الشيخ الكرمانى حكى له ما لا يتطرق إليه الشك ، عندما اجتاز فى أول الشباب بلاد فارس ، حيث عبد القوم يوما النور والظلام ، والتهبت نيران المجوس ، عند البحر التقى برجل يلبس البياض ، أبيض اللحية ، والشارب وشعر الرأس ، يمشى فتياً عفيا كأنه ابن عشرين ، الشيخ الكرمانى كان على وشك النزول فى قارب ليعبر البحر الكبير ، سلم عليه الشيخ ، من عينيه ينسال بهاء غريب ، حذره من ركوب البحر ، قال « الدردور عمال ومن ركبه هلك » ودواب هذا البحر لا ترحم من يلقى به حظه العاثر إليها ، رجع الشيخ الكرمانى ، واختفى الشيخ الأشيب ، ذهب الرجل ، وبرق الخاطر فى عقل الشيخ الكرمانى ، من التقى به وحذره ، هو ، هو بعينه ، سيدنا الخضر عليه السلام ، فيما بعد عرف هلاك القارب ، انتابته حسرة ، كيف لم يبق معه ، كيف لم يقتف خطواته ، بعد أن قضى ثلاثة شهور يستقطر حسرة لا تنبت أملا ، عزم فتوكل ، بدأ طوافه ، عسى أن يلتقى به ، يصحبه ، لكن محال ، المرء لا يرى سيدنا الخضر مرتين ، مع هذا لم يضع منه الرجاء ، الشيخ أبو السعود لم ير سيدنا الخضر ولم يشهد النبى الياس ، فى السرداب ترق الأحزان ، توخز النفس كنصل ، سيف حاد ، النبيان الخالدان هجرا الأرض التى يحيا فيها ، رأى الكثير ولم يرهما ، ارتعش قلبه بمنظر الموتى فى غزوة بربرية ، مدن خيم عليها وباء حصد وأفنى ولم يبق ، عندئذ يطرق باله سؤال الحيرة الأبدى ، لماذا يموتون بلا ثمن ؟ لماذا جاء الإنسان وعاش وعرف الألم والأمل ، إذا كان ذهابه بسيطا هكذا ؟ فى السرداب سمع ثقة أهل مصر فيه ، سمع كل ما أتاه الزينى من رفع بعض الأسعار ، من

القبض على أشخاص ، ارتقاءه فى المناصب مبرر معقول ، ألا يقول دائما ، لولا ثقة مولاى وامامى الشيخ أبو السعود الجارحى لما قبلت ، أحد المريدين أخبرهم بوقوف الزينى خطيبا فى أهالى الصعيد القصى ، أخبرهم بأن الشيخ أبو السعود يدعو لهم ليلا ونهارا ، إنه يأتمنه على الأرض والناس ، إنه يوصيه بالعدل والخير وما هو إلا منفذ لتعاليم مولاه ، بعد فناء عمر طويل يجىء من يستبيحه . لو جاءه النبى الياس المعاصر لكافة الأزمنة فسيقول له . أنت المحق . لم تعرف زمنك . لم تغص فيه لتعرف كوامنه . لكن لا النبى اليأس . ولا الخضر عليه السلام سيرشدانه ، فى السرداب خيل له أن الهاتف صاح عليه ، والهاتف يسمع ولا يرى ، ولا يجىء إلا للصالحين ، إما مرشدا أو محذرا منجيا ، أو لا ئما ، أى أسى يطرق القلب الوجيع المحسور، كيف ينفذ بصره إلى الحقيقة ، يقولون ، مولاه باركه أول سنة لكن لم يهتف الخلق باسمه نسوا وأصبح موقفه عنوانا لكل ما يجرى ، آه لو يصل إلى شجرة الحقيقة ، حدثه النساك الزاهدون عنها ، من أكل ثمارها لا يعرف الضلال أبدا ، لو وصل إلى الحقيقة كل أمر مهما لف والتوى ، لم يصل إلى الشجرة ، لن يرى طيفها ، جاءه درويش عجوز صعيدى بحبات التمر ، سطل اللبن ، أكل وشرب ، يميل عليه هامسا ، مولانا فى الباب رجل اسمه الدمراوى . لا حجاب بينى وبين الخلق .

جاء الدمراوى ، فيما يبدو ميسور الحال .

جئت ساعيا على قدمى يا مولاى .

من أى البلاد أنت ؟

منفلوط يا مولاى .

إلى منفلوط سافر الزينى بعد رحيل السلطان إلى الشام ، جمع أهل الناحية كبيرهم وصغيرهم .. فى البدء حكى عن كل شىء عن حقيقة الأخبار . الغدر الذى يطل من ابن عثمان . قال فيم قال إنه موقن من تحرك

ابن عثمان ليأخذ مصر . لكن جند السلطان وفرسان الإسلام سيتولون أمره . قال . مصر محمية بأولياء الله . وصعب أخذ بلاد تضم سيدنا الحسين وسيدى أحمد البدوى وسيدى عبد الرحيم القناوى . وسيدى الفولى والقطب إبراهيم الدسوقى وسيدى الرفاعى والأولياء أصحاب الأوتاد ومولاى صاحب الكرامات النورانية أبو السعود .

أجرى الدمع من عيون الخلق ، يا مولانا ، ثم قال إن خزانة السلطان فى أمس الحاجة إلى دراهم ، ورجاهم تقبل ما سيقول ، جمع ضرائب عام واحد مقدما غير السنة التى نحن فيها ، ولما كان الحال صعبا ، والدنيا متشطحة مع الناس ، ضجوا وأعولوا ، فتحدث إليهم بلين الكلام ، قال من يملك شيئا ليبيعه ، حاش عنهم أذى الأمراء والمماليك ولو تركهم لجاءوا بسيوفهم ، وباعوا أولادهم وبناتهم كما تباع الماشية ، وهذا ليس غريبا ، حدث من قبل مرات ومرات ، وبين الكلمة والأخرى يذكر وصية مولاه الشيخ أبى السعود له ، فصارت الناس يا مولاى ، آه سامحنى يا مولاى .

بكى الدمرواى ، يولى سيدنا الخضر عليه السلام وجهه بعيدا ، يزعق المريدون ، تعلو الهمهمات ، « بعد أن صرف الناس ، استبقانى مع أربعة من أهالى البلدة ، أخبرنا بأمور عديدة عن أموالنا فعجبنا فيما بعد ، كيف وصلته ، ثم قال إنه سيفرض على كل منا مبلغا قدره ألف دينار ، قال لابد من الدفع ، العجيب يا مولانا ، ضياع اللين فى حديثه نتر فى وجوهنا ، أظهرالقسوة قال إنه يمهلنا شهرا ، ولو تأخرنا سيدعو علينا مولاه .. فتخرب بيوتنا .

صرف الدمراوى . ورأى السماء مقطبة الجبين . الآن يرجع الفلاحون إلى ديار الطين ، الآن يوقد عساكر السلطان النيران فى سهول حلب ، الآن يتوه ملاحون فى البحار الغربية ، يجىء سيدنا الخضر يرشدهم إلى السلامة ، الآن يضيع صواب الضالين فى الصحراء ، ينزل الليل صخرا وحجارة ، لا يدركهم إلا النبى إلياس ، وفى لحظة معينة من الليل لم يعرفها

أى إنسان حتى أشد الأولياء ورعا ، فى مكان مجهول لا تطرقه دابة ، يجتمع سيدنا الخضر وسيدنا الياس ليلقيا نظرة على بلاد يأجوج ومأجوج، حتى لا يكسروا السد ، ويغرقوا العالم . خاطر يضيق به صدر الشيخ . هل نفذ بعض اليأجوج إلى دنيانا ، وتنكروا فى هيئة البشر ؟ سيهجر السرداب حينا ، خلا البيت من مجىء سعيد .

« يا فرج .. »

جاء المريد الشيخ . لا يعرف الطريق إليه إلا مرة كل سنة ، فى ميعاد بعينه . امض إلى الزينى بركات ، ارتد شال عمامتك الأحمر ، ناد عليه ، قل له أن يأتى عندى الليلة .. لا تدعه يغب .

* * *

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر مقدم بصاصى القاهرة
عاجل وهام

تقرير مرفوع إلى الشهاب الأعظم
زكريا بن راضى ، كبير بصاصى السلطنة

فى الجزء الأخير من هذه الليلة ، توجه الزينى بركات بن موسى ، استدار الذخيرة ومتولى حسبة الديار المصرية ، والى القاهرة ، والمتحدث عن الوجهين القبلى والبحرى إلى كوم الجارح ، بعد استدعاء الشيخ أبوالسعود الجارحى العارف بالله ، وعندما دخل اليه أجلسه بين يديه ، مال الزينى عليه ، لكن الشيخ لم يراع هذا ، ونتر فى وجهه ، يا كلب .. لماذا تظلم المسلمين ؟ لماذا تنهب أموالهم ، وتقول كلاما تنسبه إلى . أبدى الزينى دهشته حاول الانصراف ، لكن الشيخ قام ، نادى أحد مريديه (درويش اسمه فرج) .. أمره بخلع عباءة الزينى عنه ، تجمع حوله الدراويش أحاطوا به ، أمر الشيخ فضرب رأس الزينى بالنعال حتى كاد يهلك ، ثم أمر بشك الزينى فى الحديد ، ثم أرسل إلى الأمير علان .. وأيقظه .. وقال له : اطلع شاور نائب السلطان الأمير طومانباى فى أمره ، وأعلمه أن هذا الكلب يؤذى المسلمين ، وفى الحال طلع الأمير علان الدوادار الكبير إلى نائب السلطنة ، وأيقظه ، وأخبره بما جرى ، وقال الأمير طومانباى ليفعل الشيخ أبو السعود ما يبدو له ، وحتى ساعة كتابة هذا ، ما زال الزينى بركات بن موسى محتجزا عند الشيخ أبو السعود ، وقال الشيخ لمريديه « أبقوا الأمر سرا يوما أو يومين حتى أستخرج منه ما نهبه من أموال الغلابة ، ثم نشهره على حمار ، ونخلص الدنيا منه » ،

وحتى الآن لا يعلم العامة بما يجرى ، وإن تساءل البعض عن عدم ركوب الزينى لصلاة الفجر كعادته ، ومن ناحيتنا ، بادرنا فأرسلنا العيون والأرصاد فى كل فج ، وخاصة كوم الجارح ، ونُمِيَ إلى علمنا ، أن دراويش الشيخ ومريديه ، وكافة أرباب الطرق الصوفية ، والفقراء فى بر مصر سيعلنون الخبر ويهيجون الخلق .

عليكم أمان الله تعالى .

(مقدم بصاصى القاهرة)

الجمعة ١٥ شعبان ٩٢٢ هـ
ديوان سر نائب الشهاب الأعظم
زكريا ، المختص بأحوال ابن عثمان
وأموره

مصـــيبة كبيـــرة

بعد تضارب الأخبار ، وكثرة القيل والقال ، ورد إلينا ، منذ لحظات حقيقة ما جرى ، فبادرنا بإرسال الأخبار إليكم ، ونأسف لعدم تمكننا من الحضور بأنفسنا لانشغالنا باستقصاء الحقائق ، لقد وقعت كاينة عظيمة ، طمت وعمت ، وتفاصيلها ، أن السلطان الغورى دهمته عسكر سليم العثمانلى يوم الأحد خامس وعشرين رجب (وهو يوم نحس مستمر) ، وكان السلطان قد صلى صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه إلى تل الفار . وقيل هناك قبر داود عليه السلام فركب السلطان وصار يرتب العساكر بنفسه ، فكان أمير المؤمنين على ميمنته ، وحوله أربعون مصحفا فى أكياس حريرصفراء على رؤوس جماعة أشراف ، وفيهم مصحف بخط الإمام ، عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وحوله أيضا جماعة من الفقراء ، هم خليفة السيد البدوى ، ومعه أعلام حمر ، والسادة الأشراف القادرية ، ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى ومعه أعلام خليفته ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها ، بأعلام سود ، وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب الحلب .

قيل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القراصنة دون الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا ومعهم جماعة من النواب ، فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة ، وأخذوا منهم سبعة صناجق ، وأخذوا المكاحل ، التى على العجل ورماة البندق ، فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان ، وقتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان . كانت النصرة لعسكر مصر أولا ، وياليت لو تم ذلك. بلغ المماليك القراصنة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا أو خلوا

المماليك القراصنة تقاتل وحدها فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال . وبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكى سودون قد قتل فى المعركة . وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فانهزم من الميمنة من المعسكر . ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة . وأشيع بين الناس أن خاير بك نائب حلب كان موالسا على السلطان الذى ظل واقفا تحت الصنجق فى نفر قليل من المماليك صار يصيح فى العسكر ، يا أغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعلى رضاكم . فلم يسمع له أحد قولا وصاروا يتسحبون من حوله شيئا بعد شىء . فالتفت إلى الفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : ادعوا إلى الله تعالى فهذا وقت دعاكم . وصار ما يجد له من معين و لا ناصر فانطلق فى قلبه جمرة نار لا تنطفىء وكان ذلك اليوم شديد الحر. كثيف الغبار . كان نهاراً غضب من الله تعالى على عسكر مصر . ولما تحقق السلطان من الهزيمة نزل عليه فى الحال خلط فالج . فأبطل شقته . وأرخى حنكه . فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة ذهب شربه ومشى خطوتين وانقلب من على فرسه إلى الأرض ، فأقام نحو درجة ، وخرجت روحه . ومات من شدة قهره . وقيل فقعت مرارته . وطلع من حلقه دم أحمر ، ولم يعثر على أثر . ولم يعلم له خبر . فكأن الأرض انشقت وابتلعته فى الحال .

ولم تستغرق هذه الواقعة إلا من طلوع الشمس إلى بعد الظهر . وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى . تحول ابن عثمان عن مرج دابق إلى حلب فملكها من غير مانع . واستولى على مال السلطان وتحفه وأسلحته التى خرج بها من بر مصر .

هذا ملخص ما جرى فى الشام ، نسأل الله أن يقينا شر ما يجىء من أحوال ، وسوف نرسل ما ورد إلينا أولا بأول .

عليكم أمان الله تعالى

نائب الشهاب الأعظم

المختص بأحوال ابن عثمان وأموره

* * *

لماذا أرسل إليه ؟؟ هل انكشف أمره وافتضح ؟ أو انكسار العسكر واقترابه وكثرة الإشاعات واضطراب الأحوال ، حتى بيت ابنة الخبيزة لا يستطيع المضى إليه شحت يده بعد امتلاء ، المأوى فى الرواق ضاع ، لا يجمعه إلا بيت واحد من أهالى البلدة ليلة أو ليلتين ، ثم يمضى إلى غيره لتقابله العيون بالنظرات نفسها ، لا يعرف ما سيقوله مقدم بصاصى القاهرة ؟ لكن هل يتنبه إلى أمره مع كل هذه المشاغل والأمور المضطربة ؟ لا يدرى ، الآن يعبر حارات العطوف ، يخاف لو رآه أحد المجاورين ، حتى من حرصوا على صحبته يوما خوفا وخشية ، جهروا له بالعداء هذه الليلة وجد نفسه ضائعا فيها ، قابله خارج الرواق كل من ينام بجواره ، بالقرب منه ، زملاؤه فى حلقة الدرس ، شوام ومغاربه وأفغان وقفوا يرقبون ما يجرى ، حزمة ثيابه ربطوها تحت قدميه ، قال الشيخ حمزة أكبر من فى الرواق سنا وأقدمهم فى طلب العلم وتحصيله ، امض عنا يا شيخ عمرو ، لا ترنا وجهك ، يد حجرية هوت فوقه ، كاد يزعق فيهم ، أتعرفون إلى من تتكلمون ، إلى من يزعقون ؟ فى هذه اللحظة رأى نفسه .. يجلس أمام بصاصى القاهرة ، كان إذا جلس إلى التجار . إلى المجاورين ، يزهو اذ يسترجع حديث المقدم إليه ، يأسف لأنه لا يمكنه التصريح بذلك ، زهو داخله كلما رأى إنسانا ، باستطاعته إرسال أى شخص إلى المقشرة ، هل نسوا عرقا غزيرا انبثق من جلده ، بلل ثيابه ، ما الذى جرى يا شيخ حمزة، وأطلقت العيون شررا ، صاح الشيخ صلاح الصعيدى : امش يخرب بيتك كما خربت بيوت الناس ، تقدم الشيخ بهاء الحق ، خلع مركوبه، منعه الشيخ حمزة « آذيتنا وعددت أنفاسنا ونقلت سكناتنا وحركاتنا » ، «ذنب الشيخ سعيد ، والشيخ مبروك فى رقبتك » يوم لم يعمل له حسابا ، ما الذى جرى له ، يذهبون إلى شيخ الجامع يوقعون فى أمره كل ما لم يجرؤوا على قوله من قبل ، يأمره بطرده من الرواق ومن حلقات الدراسة ، من الأزهر، بفضحه ، نظر إلى مدخل الرواق ألن يجتاز عتبة الباب أبدا ،

ألن يصغى إلى أنفاسهم ، إلى هلوسات أحلامهم ، ما الذى سيكتبه إذن فى تقاريره ؟ آه ، لن يرحمه الرجل ، فشل ولم يتقن إخفاء نفسه، وهذا يساوى الموت بالنسبة للبصاص ، إلى أين يمضى ؟ تطل عليه أيام بعيدة طاف فيها بالبيوت . يستجدى الدراهم بتلاوة القرآن ، لن يجرؤ على دخول بيت منها ، بقجة ثيابه ، إلى أين ؟ أيعود إليهم ، يطلب الصفح والسماح ، يحكى لهم عن أمه التى لا يعرف مقرها الآن ، سنوات مرت على خروجها ، لا يعرف الطريق إليها ، لم تهتد إليه ، ربما تصل إلى الرواق ، لاتلقاه الآن، تسعى حول المسجد كسيحة عمياء كسيرة الفؤاد ، لو حكى لهم عنها ربما رقوا له ، أدرك أنه نسى وجه أمه ، صورتها ، لو قابلها فلن يعرفها ، لو تعيش فهى ميتة فى قلبه منذ سنين ، حمل ثيابه ولى هاربا ، الطرق عليها كمدة ، كأن الدم المسفوح فى مرج دابق غطى تراب القاهرة ، الناس جروحهم طرية ، فى كل بيت مناحة ، أما جرحه فنافذ حتى النخاع ، سب الشيخ حمزة ، لعن المجاورين ، بل لعن فى سره البصاصين . من يدرى ، ربما كشفوا أمره لغرض فى عقولهم ، ربما أشاع مقدم البصاصين بالقاهرة حقيقته ، أشرف على فضيحته ، مرة سمع الشيخ حمزة يسب كبير بصاصى السلطنة ، أهمل ولم يرفع ما حدث ، أهو الكسل ؟ الآن يتمنى لو عرف الشيخ حمزة بموقفه ، ارتعش ، توقف مكانه . سمع صرخة غامضة غريبة طالعة من أحشاء العطوف ، ربما يذبح إنسان ، لا قيمة لذهاب رأس واحد ، فما أكثر الرءوس التى راحت فى مرج دابق ، لو أمسكوه الآن فى هذه الساعة لظنوه يجس الأحوال ، يراسل ابن عثمان ، الرجم مصير هين عندئذ ، لن ينقذه زكريا نفسه ، ربما يدبر له مقدم بصاصى القاهرة ملعوبا ليتخلص منه تماما ، يمسكه بعض البصاصين الآن يزعقون عليه « بصاص لابن عثمان » إذن فليسرع ، كل شىء يولى ، كأنه لم يذهب إلى ابنة الخبيزة ، لم يضاجع لطيفة الحلوة ، كأنه لم يستمع إلى هيفاء اللذيذة ، لم يدرس العلم ، لم يحفظ الحديث ، آه لو بقى فى البلدة بجوار أمه ، يعمل فلاحا ، عنده زوجة وأطفال ، تصر البوابة عند فتحها صريرا ثقيلا ضبتها الضخمة توجعه ، نفس المر ، عبره مرات ،

ارتجف ، هل سيخطو فوقه راجعا الليلة ؟؟ لا يعرف ما سيفعل به ، فى أولى حجرات البيت طالعه نائب مقدم بصاصى القاهرة .

« اجلس »

لم يلامس ظهره مسند المقعد ، رأى نفسه بعين الرجل ، أدرك نحول بدنه ، اصفرار وجهه .

« فضحت نفسك .وفضحتنا »

انعقد لسانه ما الذى سيفعل به ؟؟ عندما وصل إليه الرسول فى الفسطاط ، أعد كلاما يقوله ، كل ما يرجوه تدبير المأوى ، يمكنه العمل خادما ينظف الحشايا ويغسل الأوانى ، ألم يبذل الجهد كله فى خدمته ، هل خاب تقرير واحد أعده من قبل ، ألم يتسبب فى كشف أمر عشرات المهيجين ، الآن لا يجد كلمة واحدة فوق ما فكر فيه ، قام نائب مقدم بصاصى القاهرة ، لاحظ عمرو أنه متعب ، تمنى لو قال له « استرح .. لا تتعب نفسك » لو بادله عادى الكلام ..

« سوف تسبب لنا متاعب » ..

قلب عمرو حمامة ابتل ريشها ، يلمس ما تقرر فى أمره ، من خلال كلمات الرجل وحركاته ، أثناء مشيه ومجيئه فى الحجرة ، ضرب قبضة يده اليمنى براحة يده اليسرى ..

« ستبقى عندنا وقتا حتى يبت فى أمرك » .

« هنا » ؟؟

ورأى عمرو ظلام الليل أبديا ، طاف حوله خيال هائم ، لا يدرى أين صاحبته وتمنى لو اقترب من النائب وهمس برقة « اهتم بنفسك ، صحتك على غير عادتها ، فيجاوبه النائب ، قائلا .. « رعاك الله يا عمرو وأبقاك..».

* * *

سعيد الجهينى :

بخرقة ممزقة قديمة ، أقبل حمزة بن العيد الصغير ، ينظف الموضع المعتاد من الدكة .. « لك وحشة يا شيخ سعيد .. سنتان وأكثر .. هانت عليك العشرة » .

ضيق سعيد عينيه ، تعب البصر وامتنع عن تمييز القريب من الأشياء، أيصدق حمزة فى قوله ؟؟ أو يتظاهر ؟؟ أحقا يجهل ما جرى ؟؟ ألم يبلغه الأمر ؟؟ وإذا تجاهل فلابد من غرض خفى يستحق تظاهره ؟ ألم يسمع صدفة حديثا تبادله بعض المجاورين المترددين على دكانه ، حمزة يدعك يديه بعضهما البعض ، فى الترحيب حرارة لا تخفى ، هل أوصوه بافتعالها ؟؟ أيصدر عن نظراته ما يدفع الريبة والشك إلى قلبه ؟؟

« غيبته لم تطل يا ريس حمزة .. »

فى كلمات قليلة رد ، ليفهم حمزة أو أى بصاص آخر يقف قريبا منه ، يختبىء فى الدكان ، فى أى مكان لا يراه ، إنه لا يبدى الشكوى مما حدث ، سعيد عليم بمراقبتهم له ، فى مكان بعينه ، فوق مساحة أرض بذاتها ، فراغ محدد يقف إنسان يرصد كلماته ، الناس الذين يلقاهم ، العبارات المتبادلة بينهم ، كل ما يقوله ، يرفع ويوضع تحت تحليل عميق ، لا يمر معنى خفى إلا وأدركوه ، ومهما مضت السنون ، حتى ولو بقى فى عمره يوم واحد ، يمسكونه ، يحاسبونه حسابا عسيرا وهم قادرون على إذاقته فى يوم ما لا يذوقه إنسان فى مائة عام من آلام ومواجع ، يبذلون جهدا لتصحيح مساره وتقويمه ، ألا يضرب الأب أولاده ؟ يقسو عليهم ؟ يرقب الطرقات ، الشتاء يورث القلب حسرة ، دفقة دم ، تعيد إليه وقع أقدام مقبلة فى طرقات طويلة لا نهاية لها .وجوه ترمقه بهدوء ، ببرود . وعيون تنفذ إلى نسيج أحلامه ، أرهقهم كثيرا ، فاهتموا به طويلا ، أخبروه بألفاظه التائهة القليلة التى يطلقها عادة أثناء نومه فى الرواق ، زمان أحد أصحابه أخبره بها ، كثيرون يتحدثون وهم نيام ، ألفاظهم مبهمة ، أما هو فلا ينطق

إلا لفظا أو لفظين « الأول » ، « الآخر » ، « الأمس » ، « غدا » ، « المثنى » ، « المفرد » سألوه عن معانى الكلمات شهرا بأكمله ، فى كل مرة يقسم أنه لا يدرى ، رحموه وصدقوه ، ترفقوا به وصدقوه ، ترفقوا به ، فى مرات استعادوا أحاديث تبادلها مع آخرين على فترات متباعدة فى حياته ، توالت عليه الأسئلة حول مغزى الكلمات توضح الشروح ، توضح الفروق ، تضاهى الحروف حروف الجر ، وعلامات الاستفهام طلاسم تسد أبوابا فى نفسه ، فكوها مع ظنه الدائم باستحالة هذا ، أزالوا أرصادها . نفذوا من أضيق الثقوب ، أغلقوا طاقات ، ردموا ممرات وساحات ، الآن ينتبه إلى نفسه فجأة ، كيف يفكر فيما فعلوه به ، ربما أدركوا وعرفوا ما يفكر فيه ، يفهمون أنه يحاول تشويه أعمالهم ، أنه ينسب إليهم فظائع لم تحدث ، نعم لم تحدث ، ألا يوجد عقار ما يمنع الإنسان من التفكير فى أمور بعينها ، الآن تتدافع إليه أصداء صرخات مجهولة ، آدميون يتألمون ، حناجر تعجز عن تفريغ طاقات الألم ، ركود فى الهواء فى الحفر المغلقة ، ملمس السلاسل ، يهز رأسه ، ينفى الخواطر ، يبيد الأفكار ، ما مر به أحلام ثقيلة ، فعلاً أحلام .

« بالصلاة على النبى .. اللهم اكتب لنا الستر .. »

الابتسامة على وجه حمزة بن العيد الصغير ، كانت كلماته تبدو طيبة ، الود المتسال من عينيه ، الآن لا يدرى القصد والهدف . فى نفس هذا الموضوع رأى سماح ألف ألف مرة ، ذكراها تدفق الدم من الأوردة والشرايين ، سماح كيف أحبها يوما ؟ كيف عانى ما عاناه ؟ لفظ الاسم بصوت عال من الطاقة . سمع ورأى ما يسقط النجوم الأعالى ، ما يهوى بالنفس من شموخها ، أدرك العطن جوهره . ظن أنها لا تمس ، دب الخراب إلى وجه مليح ، بارت الأرض . أفنى الوباء آمالا . ظن يوما أنه سيعبر المحيطات ويمشى عبر الريع الخراب من العالم ، يعلو جبال قاف ويمضى إلى واق الواق ، يرسو فى جزر لا يسكنها أحد ، يأكل الحديد

ويشرب النار . فقط لو تصحبه الآن يتساءل ؟ كيف ، كيف أحبها يوما ، لا يدرى أين هى ؟ أين تسكن ؟ فى القـــاهرة أم رحلت إلى الأرياف مع الراحلين فى الأيام الأخيرة ، لابد أنها أنجبت طفلا يقول لزوجها يا أبى ، يقول لها يا أمى ، لابد ان معالم وجهها تغيرت ، يدها غلظت ، كأنه يذكر شخصا غريبا عنه يعيش وراء المحيط ، عرفه يوماً غير أن عكارة فى قرارة الروح ، نقطة عنبر أسود لا تروح . لا يدرى ما الذى دفع إليه الآن ذكرى رجل عرفته القاهرة كلها منذ أعوام قضى سنين لم يقرب امرأة . وعندما اشترى بماله الذى أفنى العمر فى اقتنائه جارية حلوة صغيرة . لكنها بعد أيام استغاثت منه . استعانت عليه بالزينى ، الزينى خلصها من الرجل . طاش عقله وراح يدور الشوارع فى عينيه حيرة ولهفة وقع به خبل ، ياه كانت سماح حرية مغروسة فى قلبه لم يعرفها . وأراق الدمع من أجلها . يقول الآن . الحمد للّه إنه لم يتزوجها . كأن شخصا آخر حكى له ما جرى ، قصه عليه . أما هو فلم يعرفه ، قرب كوز الحلبة . الطعم مغاير فى الحلق ، هل نسى المذاق؟ لو اشتهى الحلبة عندهم لجاءوه بها ..

« اللهم استرنا واحمنا يا كريم »

فى البداية أقبل عليه ، لكن أسى الوجه الخفى ، الصد الذى لا يبين فى عينيه ، حفر رفيعة طويلة حولهما ، كأنه قام من النوم توا ، كأنه يعانى حزنا فادحا ، أو انتهى فورا من بكاء طويل ، حمزة بن العيد الصغير ، يرى حاجزا يقوم بينهما .

« آنستنا يا شيخ سعيد .. »

* * *

فى الجو غليان ، انه يمشى على الرصيف المحيط بصحن المسجد المكشوف من وراء الأعمدة ، ينظرهم ، لا يقرب حلقات المناقشة إلا وقت الدرس ، حتى وقتئذ ينأى بنفسه ، لن يدع العيون تبرق والعشرات

يخرجون إلى ظاهر القاهرة ، يشيلون أحمال التراب ، يحفرون للمدافع التى اجتهد السلطان طومانباى فى صنعها ، رذاذ الحديث ينفذ إلى أذنيه .

« لو خرج طومانباى وقابلهم فى الصالحية وهم متعبون ولا طعام عندهم لكنهم استراحوا يا مشايخ ، والآن يسعون إلى الريدانية .. »

« أنا أرى أن يخرج طومانباى ويلتف من الصحراء .. ويباغتهم عند بلبيس . لكن أن يحفر فى الريدانية وينتظرهم هنا فهذا ما لا تحمد عقباه..»

« ربما أقنعه الأمراء بهذا لغرض فى أرواحهم » .

« هل شك واحد منا فى خاير بك من قبل ؟ »

« فى الجو رائحة نتنة يا مشايخ »

إذا سأله أحد جاوبه بهزة رأس لا يعنى شيئا ، ابتسامته موجزة تبتر الحديث ، يعرف أن أصحابه رقوا له ، يختمون ما جرى له ، لا يهمه ما يقولون ، يرجو ألا يثيروه بالحديث ، كل كلمة تقال وتضيع فى الهواء لا تغنى عندهم ، يقطع الممر الطويل المبلط برخام قديم ، يداه وراء ظهره ، يروح ويجىء ، فيه خوف غامض من الخروج إلى الفراغ ، كأنه لو مشى فى خط مستقيم سيختل ميزانه ، يسقط مرفوع الذراعين مرجوف الوجه ، يطلب نجدة لن تصل أبدا ، وغوثا منقطعا ، ومددا لا أمل فيه لو أكثر من التجول لرأته ألف ألف عين ، كل عينين لإنسان واحد ، لو أنه حدد الناس الذين يمضى بينهم ، فى الليل إذ يوشك شيخ الرواق على إغلاق الباب ، يقوم من مرقده تتتابع انفاسه بسرعة ، يكاد ينطق رجاء مكتوما فى صدره ، ألا يغلق الباب ، كأنه لن يفتح أبدا ، لا يأتيه النوم إلا بعد دوار رأسه ، انكتام نفسه ، ضياع حسه ، لا ينام نوما ، إنما يغشى عليه ..

«فى الجيزة خمسون ألفا من العريان ..»

المجاورون يروحون ويجيئون ، ثمة جدد فيهم أصغر سنا ، جاءوا بعد ذهابه فى الرحلة «كما يسميها بينه وبين نفسه » فى حلقة كتلة صلبة

كالبندقة ، لو أن ما يجرى الآن جرى منذ عامين فقط ، عامين ؟ كأنهما عشرات السنين ، زمن قائم بذاته ، هل سيقف هكذا ؟ يتجنب الاقتراب من حلقات المناقشة ، ما يدفع طعما مرا إلى دمه ، ما يحيره ، كيف يسمع الآن باقتراب جيوش ابن عثمان ، تكاد تلامس أرض الريدانية ، خيولهم تدوس الديار المصرية ، طاحت سيوفهم فى رقاب أهالى الشرقية وبلبيس ، ربما اجتاحوا فى طريقهم بلدة ، قرية ، سماح لجأت إليها مع زوجها ، استباحوا عرضها فى صحن جامع قديم ، العرض الذى لم يهتك فى خياله يوما ورآه متمرغا تحت سليل الأمراء فى لحظات قهر ، سعيد يتقلب فوق حصير شائك ، ما أبعد المسافة وأنأى الترحال بينه وبين زمن ترعشه فيه مظلمة بسيطة، ضرب إنسان فى عرض الطريق ، تتكاثف الحيرة والحسرة ، كيف لا يحركه ما يجرى من أمور ؟ انتفض الشامى والمغربى ، القريب والبعيد، الحريم يهتفن بالدعاء لطومانباى ، حتى العيال الصغار ، ربما يخشى أن يفهم حماسه خطأ ، لو زعق ، لو جهر بالدعاء ربما تضايقوا . يريدونه هادئا وادعا ، إذا هتف لطومانباى من يدريه أن الدعاء سيسمع بنصه ؟ رأى نساء الجمالية الفقيرات فى العطوف الجوانية والروم الباطنية يقفن أمام مشهد السيدة نفيسة حسيرات ، تعلو أصواتهن بنصرة طومانباى ، ورفعة جند مصر عسكر الإسلام . فى داخل المسجد رءوس معممة ، يقيمون الصلاة فى غير أوقاتها يقرأون البخارى ، شبان صغار عاب عليهم يوما انقطاعهم ، وترددهم فى مواجهة جور الأمراء ، الآن يبدون همة لا يدرى من أين جاءتهم ، أحقا لامهم فعلا ؟ لكنه لا يخطىء الوجوه المنكسرة ، معالم الغربة يراها ، حتى فى أبنية الحوارى .

* * *

لحظة الغروب تجسد الموت ، الأسى رقراق ، عبثا صفاء النفس ، الآذان حزين يدفع بالعمر مائة سنة ، يعمق الغربة لمن لا بيت له ولا زوجة ولا أمل يرتجى ، كأن الريف البعيد محى من المكان والزمان ، الأشرعة

لا تهدى القوارب إلى بر الأمـان ، تمضى امرأة تلتف فى حرير أصـفر ، حتى الخيال لم يعد قادرا على تجريد الثياب ، لو جاءت بلقيس ، لو رقصت أمامه فى حجرة مغلقة نائية ، لن تهتز حتى جذور شعيرات رأسه .

* * *

طفل ضئيل ، صغير الجسم . دامع العينين . الأصبع فى الفم . حيرة أول العمر . يبحث عن أبيه ، لا يدرى سعيد ، الطفولة المخوزقة فى عينيه أثارت خوفا غامضـا ، فى قلبه شفقة تتسال . توقف يرقب الطفل . انتبه إلى خطورة مـا أقدم عليه . بأى كلام يفسر وقفته المفاجئة أمام الطفل . طفل صغير يبكى رأى نفسه ممدداً فوق حشية قديمة . أطفال يصيحون . نساء يلطمن الخدود ، آه لو يرثى الإنسان حيا ، لأقام النعى وجاءته الندابات من كل فج عميق . لو يصلب نفسه على باب زويلة . يقضى دامع العينين . كهذا الصنم الواقف فى جزيرة لم يرها أبدا وسط البحر المحيط . كلما اقترب منه إنسان يلقى الدمع هاطلا من عينيه . السوق خال . الحركة خفت من الطرقات . كأنها أوردة القلب الخالى . التفت وراءه . الطفل الباكى يتوسط الطريق . قدماه رفيعتان كقلم البسط . تنوءان بحمل جسمه . كل اهتزازة منه تجسد أول العمر الشقى لا يعرف ان يمضى ؟ رأى بعينى عقله امرأة وقعت بين القفف فى سوق الليمون انتابها خلط فالج ارتمت على ظهرها لا تدرى مـا حولها . تطفطف ربما من فمها زحف إلى ثديها طفل يتلمس سريان الحياة منه . متى رأى المنظر . متى انتابه غم ؟

* * *

بحرص عظيم استقصى أخباراً ، يقينا علم بخروجه ، فى الرواق خطر له أن ينسرب تحت الظلام ، يطلع عليه ، لكن هذا أسهل الطرق لانكشاف أمره ، كلما انقضى يوم ، يطلع فيه إلى كوم الجارح ، أدرك أن المسافة تنأى ، ربما لن تطأ قدماه صحن البيت ، لن يتنسم هواءه المبلل بماء الورد ، منذ أعوام لم يخطر بباله قط ، لم يكن يقبل أى تصور ليوم كهذا ،

لم يطلع إلى كوم الجارح ، لكنه فى حذر راح يستقصى أحوال مولاه ، عرف أن الأمراء عرضوا السلطنة على طومانباى تمنع ورفض ، لم يجدوا أمامهم إلا الشيخ أبى السعود ليقنع طومانباى بتولى السلطنة ، سعيد يراه بوجهه الصافى ، ربما أخذه التردد . لا ينسى تدخله إلى جانب الزينى بركات . ثم خيبة رجائه ومسعاه ، أبدا أبدا لم يخب رجاؤه ، بعد عودته من الرحلة طلب منه رجل أتاه دائما هناك ، جالسا أياما طويلة ، طلب منه الذهاب إلى دكان حمزة كالمعتاد ، ولو جاءت سيرة الزينى أمامه ، لو تساءل الناس عن سر اختفائه يقول (رجاه الرجل بأدب) إن الزينى فى مكان قريب ، يعد العدة ويجمع المال والسلاح ، ولم يمانع سعيد ، وأى مأخذ فى هذا ، تساءل الناس فى الدكان عن غيبة الزينى قال « انه يرسل الأتباع إلى بلاد مصر . يستنفر مشايخ العربان لإرسال رجالهم إلى القاهرة » يذكر يوما شخصا افرنجيا بدا مصغيا لكل ما يقال ، استراب فى أمره ، بعد أيام عرف الناس الحقيقة ، الشيخ أبو السعود نفسه قبض على الزينى ورماه فى بيته ، خجل سعيد من نفسه . خالف أمرا أتاه مولاه ، لكنه معذور لم يدر ، ثم إن الرجل رجاه بأدب ، مطلب بسيط ، لم يخطىء فيه ، أرسل الشيخ إلى الأمراء ألا يخونوا مولاهم وألا يغدروا ولا يخامروا عليه وأن يساندوه فى تصديه لابن عثمان العازم على أخذ مصر ، يعرف سعيد أن كثيرا من المريدين ، قدموا من كافة القرى والانحاء ، يلفون رءوسهم بشيلان حمراء وخضراء سيدى أحمد البدوى ارتداها يوما ، مد يده فأحضر الاسرى من بلاد الكفر ، الشيخ أبو السعود يخرج يوميا إلى الخلاء يحمل المقاطف مع العسكر ، حتى تباكى الخلق لما رأوا ما بيديه من نشاط لا يناسب أبدا لحيته البيضاء وشيبته ، كبر العامة وهللوا ، لو رآه مولاه فسيسامحه ، يحرقه الشوق إلى رؤيته لكنه لا يدرى رد الفعل هكذا أطلقوه وتركوه لا يحددون له مسارا .

يطلب سعيد كوز الحلبة المعتاد ، يطحنها حمزة الآن ، يضيف إليها البندق المبشور ، ولو طلب الزبون يحمرها فى السمن تصبح إفطارا حلوا

شـهـيـا ألذ من أكل الفـول النابت فى مطعـم المراغى أمـام زاوية العـمـيـان ، العسكر يعبرون الطريق ، شـىء ثقيل يقع فى مكان قريب ، لم يبدأ سـعيد شرب الحلبة ، صاحب وجه غريب يقترب منه ، لم يره أبدا ،

«شيخ سعيد؟»

«أيوه»

«لو سمحت .. معى لحظات ..»

الريح صائب ، أيبدأ رحلة من جديد ، أيعدو ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟

«أبدا .. مقدم بصاصى القاهرة يطلبك . ليس المفروض أن أقول لك . لكننى أشفق عليك ، أعرف رقتك وما يمكن أن يطوف بك .. » .

يطل حمزة ..

«لم تشرب الحلبة يا شيخ سعيد ، لم تشرب الحلبة ، لا حول ولا قوة إلا بالله ..

* * *

نـــداء

يا أهالى مصر
يا أهالى مصر
يا ساكنى مصر
الجهـــــاد
الجهـــاد
الجهـــاد
« وما النصر إلا من عند الله »

* * *

زكريا بن راضى

لم يتوقف لحظة واحدة من المقطم إلى بركة الرطل ، الحوارى مغلقة . الناس يسرعون إلى غير هدف ، فى الصباح الباكر ، انطلقت إشاعة فى المدينة كالنار فى العشب الجاف ، أقسم البعض أنهم رأوا جيوش ابن عثمان تجىء من ناحية الفسطاط ، تفاجىء طومانباى من الخلف ، ارتعب الناس ، ارتجفت قلوبهم ، لا أحد يصحب زكريا غير مبروك ، يمشى مجاورا له ، العتمة فى الضوء ، زعيق الجند العابرين يجسدون فى نفس زكريا شيئا خفيا ، يدرك أنه يعايش الآن أحداثا جساما لا تتكرر إلا مرات فى عمر الدنيا ، من قبل يتغير السلطان ، يجىء آخر ، لكنهم أفراد جماعة واحدة ، أما الآن فالجماعة نفسها مهددة ، آخرون غرباء لا يوقفهم أحد ، يرثى لطومانباى ، يعرف أى وضع صعب يلاقيه ، عكارة تشاؤم تأوى إلى روح زكريا ، هو الوحيد فى مصر العالم بحقيقة ما سيجىء . لا يستريح إلى وقفة جان بردى الغزالى بجوار طومانباى ، وعنده أدلة وشواهد ، ابن عثمان وباء جاء فى غير ميعاده ، وباء لا علاقة له بانخفاض ماء النيل ، شر مسلط ، عسكره همج ، يعرف زكريا ، أحوالهم بهائم لا نظام لهم ، أسرع الخطى، يهرب من إدراك نتيجة يراها محدقة ، هذا ما سيناقشه مع الزينى بعد قليل ، هذا الزينى الذى نفذ إلى عمره ، فكره وروحه ، فحول ما حول وأبدل ما أبدل ، عندما قبض على الزينى أدركته دهشة بل مسه خوف ، سنوات طويلة يكيد فيها للزينى ، فى زمن هيج عليه مصركلها عند واقعة الفوانيس ، لن ينسيه شىء أبدا أن الزينى دفع إلى بيته بوسيلة الرومية ، الزينى أيضا تسبب فى قتلها ، أن يوارى جسدها البلورى وحشة القبر ، منذ شهور أدرك أن الزينى لم ينشىء نظاما خاصا به يجس الأخبار والأحوال ، لم يتبعه بصاص واحد ، إنما هم رجال المحتسب العاديون ، سنين طويلة وزكريا يجهد نفسه ، يبذل طاقات لا أول لها ولا آخر لكى يعثر على بصاص واحد يتبع الزينى . لم يستطع رجاله ، أيقن من براعة رجال الزينى فى التخفى . عمل لهم ألف حساب وحسابا ، أدرك زكريا أنه خدع خدعة عميقة ، تمنى زكريا لو وجد نظام بصاصين فعلا يتبع الزينى ، وألا يدرك أن الأمر كله إشاعة أطلقها الزينى ، بنى نظاما فى الهواء أوجده ولم يوجده ، عانى زكريا مرارة الخديعة أياما لكنه أضمر فى نفسه إعجابا خفيا للزينى ، فعلا أن

يوجد زكريا بمفرده فى زمن واحد أمر لا طعم له ، كل منهما مخلوق لصاحبه ، وجود الزينى أفاد زكريا ، حببه إلى قلوب الخلق بعد كره ومقت ، زكريا طور أساليبه وطرقه حتى يواجه مكر الزينى وخداعه ، غير الفائدة المباشرة التى أبداها الزينى فى عديد من المواقف ، أفكاره الصالحة من أجل تطوير أعمال البصاصين يبتسم زكريا . الزينى الذى عرض عليه كل ما قدمه على أساس انه بعض الطرق المتبعة فى نظامه هو الخاص بمراقبة الخلق ، أى إنسان فى مصر يعلم بوجود جماعتين ، جماعة بصاصين تتبع زكريا وجماعة تتبع الزينى ، هذا كله وهم أشاعه الزينى ، لكن الأوضاع ستجد فيما لو ، لو اجتاح وباء العثمانلية مصر ؟ هذا ما سيناقشه زكريا مع الزينى ، بيته فى المقطم لا يحوى ورقة ، الآن شهاب الحلبى وديوانه وكل ما يحويه فى المقر السرى للزينى بحلوان ،أيضا الدفاتر والجداول التى أدرج فيها اسم كل مخلوق يدب على بر مصر حتما سيحتاجها فى الأيام القادمة ، زمان عندما أمسكوا على بن أبى الجود وتولى الزينى الأمر راح يوزع أوراقه ، قتل معشوق السلطان وغلامه ، حتى الآن لم يصل إلى سر العلاقة المكتوبة ، مات الغلام ، مات السلطان ، فكم يبدو الزمن بعيدا ، سنوات طويلة فى كل يوم منها يؤكد قراره بالإجهاز على الزينى ، فرص عديدة سنحت له، عندما أرسل الشيخ أبو السعود وأحضر الزينى وبهدله ، ليلتها عندما بلغه الأمر، قص شعر رأسه ، لابد من حزم سريع ، هذا أمر لا هزل فيه ، ها هو الزينى بين يدى رجل صالح تقى كلمته لا ترد عند الأمراء ، الكبير والصغير ، باستطاعة زكريا استنفار أعوانه من كل فج عميق يثير الناس على الزينى ، وينشر الفضائح عليهم ، يمكنه إرسال قوائم طويلة بالأموال التى يكتنزها الزينى ، الدر والحجر البلخش واليواقيت والفيروز وأكوام الذهب ، رسالة موجزة تقول لمولانا هذه هى المواضع التى كدس فيها الزينى أمواله ، حيرة اعتصرته ، فى تواريخ طائفة الإسماعيلية قرأ مرة ، الفداوى المرسل لقتل عظيم أو كبير تواجهه فى مهمته لحظات ، لحظات يجب الحسم فيها، ليس ، مهما صحة القرار أو خطؤه ، المهم هو أتخاذ قرار ، ربما أضاع التردد حياة الفداوى نفسه ، المهم اتخاذ القرار فى ذاته ، درس قديم طالعه زكريا ، فى الليلة نفسها قرر ، الزينى يجب ألا يروح

هدرا ، أرسل فى طلب إبراهيم بن السكر والليمون ، المعلم ابن كيفه استنفر آذانه وعيونه المنبثة فى انحاء الأرض ، بذكاء عظيم ، بكافة الطرق عليهم التحدث إلى العامة عن عدل الزينى وتقواه وصلاحه ، تذكير العامة بما أتاه لهم ، ثم ينطلقون إلى ما فعله الشيخ أبو السعود الجارحى ، صحيح ، الشيخ ولى من أولياء الله وفيه بركة ، ولكن ما للمشايخ وأمور السلطنة ؟ ما للنساك وأمور الدنيا ؟ لو انشغلوا بأمورالدنانير لضلوا سواء السبيل ، وعندما شرع الشيخ أبو السعود في تجريس الزينى بركات على حماره، شهره فى الطرقات راكبا بالمقلوب قرر الأمير علان الدوادار الكبير ، شنقه على باب بيت قريبه محتكر الفول فى مصر ، بالفسطاط ، أرسل زكريا مكتوبا عاجلا إلى طومانباى يشير فيه إلى مال جسيم لدى الزينى ولابد من رد المال إلى خزانة السلطنة ، لو شنق لضاع المال ، والبلاد فى أشد الحاجة اليه ، ثم هناك أمور هامة تدخل تحت نطاق السرية معلقة معه وموته يعنى التسبب فى أضرار كثيرة تمس الأمراء والعامة والسلطنة ذاتها ، خاصة فى هذه الأوقات العصيبة مع الرسالة نفسها أرسل خطابا صغيرا يطلب فيه من طومانباى الإقلال من عدد مرات نزوله وظهوره بين الناس حتى لا تضيع هيبته من بين العامه ، ولا يتعودوا رؤيته ، يعلم زكريا تماما أن الزينى يفضل الشنق على إنقاذ زكريا له ، أمثال الزينى يتقبلون ما أقدم عليه زكريا بأنفة ، عندما أعيد إلى بيت الشيخ أبو السعود، ورجعوا فى شنقه ارتاح زكريا ، من يدرى ؟ ربما يتعرض زكريا لموقف مشابه لن ينقذه إلا الزينى ، زمان مضطرب لا يؤمن فيه المرء على روحه ولا عياله خاصة من كان وضعه مثل زكريا ، الآن يقترب من بركة الرطل ، من الطبيعى لم ينزل إلى المدينة ، لم يتجول فى أسواقها ، يرسلون إليه التقارير باستمرار ، حتى من البلاد التى اجتاحها ابن عثمان ، بعض نوابه راح شهيدا ، لم يتصور أنه سيرى الخراب هكذا بين الخلق ، المآذن حروف تجمدت فى الهواء ، ابنه يس وحريمه فى أقصى الصعيد ، يعاوده نفس الإحساس ، يعيش فى زمن يشهد أحداثا كبيرة يندر وقوعها ، بيت الزينى يبدو أخيرا ، بعد قليل يصغى إليه ، ثانى لقاء بينهما منذ خروج الزينى ، ياه ، ألم يكن

غيبا عندما فكر آلاف المرات في الخلاص منه ، ابتسامة خفية على شفتيه ، لكنه أحقا فكر في هذا ؟ أحقا ؟؟

* * *

نـــــداء

نـــــداء

يا أهـالي مصـر

ينهي إليكم الخنكار العظيم

فاسمعوا

من خبأ عنده مملوكا شنق

من داري على أموال مملوك شنق

فاسمعوا وعوا

نـــــداء

نـــــداء

يا أهـالي مصر

يا أهـالي مصر

من دل على مكان طومانباي

له ألف دينار

من أحضره حيا أو ميتا

له ألف دينار من حامي الحرمين ، والبحار

سليم شاه ،

الخنكار العظيم

نـــــداء

نـــــداء

يا أهـالى مصر

يا أهـالى مصر

من رأى منكم

الشيخ أبا السعود الجارحى

من لمح منكم

درويشا من دراويش

الشيخ أبى السعود

الذين يثيرون الفتنة

ويهاجمون العسكر

ليحضره إلى وطاق جند الخنكار

وله الجزاء العظيم

له الجزاء العظيم

نـــــداء

نـــــداء

يا أهـالى مصر

يا أهـالى مصر

من أخفى منكم جوارى ونساء المماليك

شنق بغير معاودة

نـــــداء

نـــــداء

يا أهــالى مصر

يا أهــالى مصر

لا يخرج أحدكم بعد المغيب

لا يرتدى أحد لثاما

ومن ضبط شنق

يا أهــالى مصر

يا أهــالى مصر

استكينوا

استكينو

ومن خالف شنق

السرادق السادس

كـوم الجـارح

للقبر ضمة لا ينجو منها إنسان . يضغط ضلوع المؤمن والكافر ، يمحو الأول والآخر ، يفرق المثنى ، ويشتت الجمع ، يساوى الظاهر بالباطن ، تعرف كل نفس ما أتت ، وتتحدث الأعضاء عما ارتكبت ، أى ذنب جنت ؟ ويعرف سعيد طريقه إلى الوعر ، إلى كوم الجارح ، ينقبض قلبه ، مستقر النبال والرماح ، لم يخطئه هدف فى ساحة المعارك والطعان ومنذ رجوعه يود لو رأى مولاه ، لحظة لا قبلها ولا بعدها ، يسمع لهجته ، يعرف أى الأفكار تدور فى عقل مولاه حوله هو ، شخصه هو ، أتى الزمان الذى لا يعرف فيه الابن أباه ، يسأل الأخ عن أخيه فينكره حتى لو جاوره وقوفا ، أتى اليوم الذى ترمى فيه كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، فى الهواء خمدة ، أهى القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، فى الهواء زمتة ، أهو الدخان الذى يظهر قبل قيام الساعة ؟ الجند الغرباء يقتضون الإبكار على باب جامع المؤيد ، عند القبة التى انحنى فوقها مرات ومرات ، خلع حذاءه ، ودخل المسجد العتيد يملأه خشوع .

ما الذى بقى إذن ؟؟ ربما ظهر المسيح الدجال ، ينزل من المقطم . يطلع من حوارى الحسينية ، يخرج على الناس فجأة من الخليج ، من النيل قبل ميعاد الوفاء ، من جزيرة الروضة ، من الهرم الأكبر ، يركب دابته التى تجس أخبار الدنيا له ، يطول الليل ، يصحو القوم فلا يلقون إلا ظلاما مستمراً عتيماً ، أول خيوط الضوء تدير العقول ، ها هى الشمس تطلع من الغرب ، ليس قرصا من ذهب ، إنما فطيرة رخوة سوداء ، ما الذى بقى إذن؟؟ أظهر أيها السفيانى ، لينفخ فى الصور ، النفخة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، تقبض الأرواح ، ويجىء الخراب ، أربعون ألف سنة ، الوخز فى الصدر ، أى مرض خلفته الأيام ، لكن أى أمر يخشاه ، والروح ساحة خرائب ، البيوت لا تأمن ساكنيها ، ما الذى بقى إذن ؟؟

* * *

نعرف يا سعيد أنك تتمنى رؤية مولاك ، هذا من حقك طبعا .. يا سلام يا أخى من علمنى حرفا صرت له عبداً ، أنت نطقت باسمه مرات أثناء نومك ، يا شعلان .. أى اسم ردده سعيد فى نومه عندما آويناه زمنا ؟

« الشيخ أبو السعود .. لم يذكر غيره .. »

« أرأيت .. اذهب إليه ، لا تخف ، بالعكس نحن نريدك أن تعاود . سيرتك معه كالزمن الأول تماما ، نريدك أن تصبح محل ثقته .

لا تنفره منك ، اذهب إليه ، ارتم على قدميه ، ابك ... ابك فعلا .

سيسألك ، أين غبت عنه بعد عودتك ، قل له منعونى ، لكننى ضربت الآن بمنعهم عرض الحائط وجئتك ، العن أجدادنا ، استمطر الخراب علينا، قل ما تريد يا سعيد .. ما تشاء ، لابد أن تحيى ثقته بك .

أنت ابنه الذى لم ينجب وأنجبه .

* * *

دار حول باب الوزير ، مشهد السيدة فاطمة النبوية ، قدماه تقطعان الطريق ، هذه البيوت لم يرها من زمن ، وهج الآمال ، رغبة الطواف ، الجرى ، الاندفاع ، الحب ، ملامسة يد حنون ، طعام هنى بعد غروب شتوى عتيق ، أبدا ، لم يطف به شىء من هذا ، أخيلة قديمة مخوزقة ، ذكريات بالية كحصيرة عتيقة داستها آلاف الأحذية ، إلى الممرات الطويلة ذهب ، حفر صغيرة بالجدران ، رأى آدميين . « أتعرف هذا ؟ كان أميراً كبيراً عظيماً جليل الشأن ، له فى الحبوس أربعة وثلاثون عاما ، يبول مكانه، يأكل مكانه ، نسى اسمه ، فعلا نسى اسمه ، نسى الألفاظ والحروف وحركات الصوت وسكناته » حفرة أخرى ضمت سجينا صبيا ، لا يعرف الضوء . ولا طعمه ، فى عينيه بريق أزرق كعيون القطط فى السواد العقيم ، عمره عشرون ، كلها قضاها هنا ، ربما بدا خروجه إلى الدنيا كذهابك أنت إلى السجن ، بين حجارة الصخر تذوى الأعمار ، تفنى ،

تغرب ، بين حجارة الصخر ، أو فى الحجرات الضيقة النظيفة المخيفة ، يتمدد صاحبه منصور الآن ، فما الذى بقى إذن ؟

* * *

« ما نطلبه منك . ما نريده . الاستفادة من عظاته وحكمه . أن نعرف ثمين القول الذى يردده . آراءه فى الناس . ما ينويه بالنسبة لطومانباى . منذ دخول الخنكار تعرف أن بقاءه فى البيت . لكن هناك مريدين يمضون إليه . من هم ؟ إلى أين يذهبون ؟ هناك من يزعم بنية الشيخ على الخروج فى أثر طومانباى . لكن هل تصدق هذا أنت ؟ هل يدخل عقلك أن الشيخ أبى السعود ، الشيخ الطيب الصالح ، الورع التقى . يمكنه حمل سيف وذبح رقبة ؟ أنت أدرى الناس به . إذا كانت هذه نيته فعلا . فهذا تغير لابد أن نعلمه . لا لشىء . لنستفيد منه ونفيد . كيف يتحمل العمر الكبير الحرب والهجوم ؟ والكر والفر ؟ طبعا .. لا تخبره عما نريد . أنت بهذا تنقل تعاليمه وحكمه إلى الخلق كلهم عن طريقنا . بقيت مسألة ثانية .

* * *

البيت هادىء مستكين . أحلى العمر قضاه هنا . هنا رتل عمره ترتيلا. غناه عذبا يخطو عتبة البيت . بأى عينين يواجهه . بأى المعانى المتبقية فى حدقتى العين .

* * *

نعرف أنك قادر على هذا . وإلا فلماذا لجأنا إليك . نحن نطلب معونتك . يا سعيد أنت قريب منا . أنت منا . أنت بتاعنا .

* * *

أنت منا .. أنت بتاعنا ..

* * *

« أما المسألة الثانية ، تعال . اقترب .. يا شعلان اخرج ..اخرج لحظات لأن ما سأقوله سر عظيم لن يسمعه إلا سعيد وحده .»

« طبعا أنت ولا أى مسلم مؤمن يرضى عما فعله ابن عثمان بنا ، من هنا عزم الزينى بركات ، وبالمناسبة ، فهو يهديك السلام ، ويعتذر لك ، بوده لو رآك ، لكن عيون العثمانلية تندس حول بيته ، المهم ، عزم الزينى وتوكل على اللّه ، أن ينشىء جماعة تعمل فى السر لا فى العلن ، جماعة من الشباب الشديد المجاهد أمثالك ، تقلق راحة الخنكار ، تهدم أركان الخيانة، ما نطلبه منك يسير ، أن تقدم إلينا أسماء الشباب القادر ، الذى لا يتردد بالتضحية بذاته ، بنفسه ، قدم لنا الأسماء ، ونحن سنعرف طريقنا إليهم ، سنعرف كيف نقنعهم ونضمهم إلى صفوف الجهاد ، أتفهمنى . يا سعيد : أتفهمنى ؟

طيب كرر على .. ما الذى أطلبه ؟

أهكذا عاد يتطلع حوله ، هنا جئنا أمام مولاه ، هذه الأرض ابتلت بماء غسل فيه التمر ، هنا لفظ باسمها ، لا حس فى البيت ، السرداب مهدوم ، أين راح مولاه ؟ ما الذى بقى إذن ؟ آه لو يراه لمحة ، سيقول كل شىء ، يبوح الخفى ، ينثر العطن ، يفتح جرحه ليشفى لو يراه لمحة ، بعدها تفنى الدنيا ، يعرف أن لفظة ود ، ونظرة صفاء ستقابله ، يسمع المولى كوابيسه ، يبنى ما تقوض ، لم يخطر بباله أبدا أنه سيأتى إلى هنا يوماً ولا يلقاه ، ما الذى بقى إذن لو رآه لباح بالقديم والجديد ، آه ، لا فرصة للرجوع ، بعينى عقله يرى مولاه ، أمازال مولاه ؟ يراه ساعياً فى الأرياف ، يستنفر الخلق ، من يدله ، من يهديه إليه ، ذهب مولاه ، ما الذى بقى إذن ؟؟

* * *

السرادق السابع

سعيد الجهينى

آه ، أعطبونى وهدموا حصونى

خارج السرادق

مقتطف أخير من مذكرات الرحالة البندقى .

فياسكونتى جانتى ٩٢٣ هـ

في ترحالي الطويل ، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن ، بعد انقطاعي غامرت ونزلت إلى الطرقات ، في الهواء حوم الموت باردا لا يرد ، رجال ابن عثمان ، يدورون في الطرقات ، يكبسون البيوت ، لا قيمة للجدران . الأبواب ملغاة في هذا الزمن ، الأمان مفقود ، ولا فائدة من أي توسل أو رجاء ، لا يثق الإنسان أبداً من طلوع النهار عليه ، في حارة ضيقة رأيت امرأة مذبوحة ، مقلوعة النهدين ، تلفت حولي ، البلاط المضلع والتراب ، في بيت ناء عاط طفل لم أدر ابن من هو ؟ عند سبيل مياه قرب باب زويله رأيت بشرا انتزعت حياتهم بطريقة شيطانية ، إدخال سيخ محمي في الضلوع ، ينفذ حيث يخرج من الجهة المقابلة ، لسان أحدهم مدلي ، سؤال أبله معلق، لماذا جرى ما جرى ؟

العيون برقوق عطن ، لم يهدأ المنادون طوال الليل والنهار ، اللهاث يشتد وراء طومانباي سلطان البلاد المختفي ، خاصة بعد ظهوره المفاجيء في جامع شيخون ، والتفاف الخلق حوله ، ثم هجومه على ابن عثمان في بولاق ، سمعت أنه بمجرد ظهوره في أي مكان يلتف حوله القوم وكأنهم يعرفون ميعاده ، سمعت أن جماعات كبيرة من الدروايش (رجال الدين) انضموا إليه ، راحو يغيرون على جنود العثمانلية ، الذين يتطرفون في مشيهم إلى حارات نائية ، أو طرقات بعيدة ، يقتلون منهم ما استطاعوا ،

أثار هذا الفزع بين الغزاة ، طولبوا بالتزام الحذر. والمشى جماعات ، صباح اليوم طلعت فوق السطح رأيت الأسى شفيفا كئيبا فوق المدينة ، كأن البيوت نفسها أسالت دمعا ، رأيت وجه صديقى الشيخ محمد أحمد بن إياس قبل دخول العثمانلية بيوم واحد ، فى تقاطيعه رقدت نبوءة بالهزيمة المقبلة ، كان منكسرا ، لم أره من ليلتها ، سمعت ممن أثق به أن طومانباى ظهر فى الصعيد ، وأنه جمع آلاف العربان المسلحين ، وقيل إن وليا من أولياء الله (قديس) كان يقيم فى القاهرة ، هجر بيته وانطلق إلى الريف يقيد فيه نارا حامية يستنفر الشعب ، وأخبرنى محدثى أن عمر هذا القديس يقدر بمائة عام ، بل أزيد ، وأنه أوتى شجاعة عظيمة ، وقال محدثى انه شرب من نبع الحياة ، ومن شرب من نبع الحياة لا يموت أبدا ولا يهزم قط وفعلا انطلق فى أثره مئات من الشبان الصغار ، والرجال والنساء ومعظمهم لم يشاهده مرة واحدة أثناء إقامته فى القاهرة ، وأخبرنى محدثى أن هذا الولى (القديس) يطوى معه بيرقا رهيبا ، يقال له البيرق النبوى ، ومتى نشره تهب أمة مصر من أدناها إلى أقصاها ، فتضع السيف فى رقاب الغزاة ، ولا ترتد حتى تفنيهم ؟ أبديت الشك لمحدثى وسألته ، لماذا لم ينشر هذا البيرق الآن ؟ قال واثقاً إن هذا لا يتم إلا بأمر من عنده ، وأشار إلى السماء ، بكى محدثى وهو شيخ من مشايخ الأزهر ، قال : جاء فى الكتب القديمة . « مصر كنانة الله من أرادها بسوء قصمه الله » . اليوم فقط نودى فى الناس بالأمان قلت لأنزل أستقصى الأخبار ، أدركت مخاطرتى فالغزاة لا أمان لهم يعلنون الأمان وينقضونه وجدت بيت صاحبى الشيخ ريحان مهدما محروقا ؛ لم يدلنى أحد إليه ، سمعت ظهور الرجل الذى تحدثت عنه كثيرا فى رحلتى الثانية ، الزينى بركات ، قال بعض المشايخ إنه يحاول لم الشبان لمجاهدة ابن عثمان لكن أحدهم أبدى شكاً فى مقصد الزينى ؛ خاصة بعد طلوعه إلى القلعة مرات عديدة وجلوسه مع خاير بك أوقاتا طويلة ، وعلمت أن خاير بك (سبق أن تحدثت عنه) أبدى رضاءه على الزينى ؛ فعندما دخل الغزاة مصر ؛ كان

الزينى فى بيته مغضوبا عليه من طومانباى السلطان السابق ، وكان مجردا من كل وظائفه، ينوب عنه فى أهمها أحد نوابه السابقين شخص اسمه عبد العظيم الصيرفى، لم ينقض اليوم إلا وتحقق ما سمعت من أخبار قبيل العصر سمعت المنادى يدق طبلا ، وقفت منتظرا ، رأيت ثلاثة جياد سوداء يمتطى كل منها فارس يحمل فى يده ميزانا وصنجا وعلما رسم عليه شعار المحتسب ؛ سيفا مسلولا ؛ وخلفهم جواد أبيض ركبه « الزينى بركات بن موسى » ووراءه ركب شخص بدين لم أعرفه ؛ الطريق خال ، الخراب الخفى ساع فى الفراغ ، الدكاكين كلها مغلقة ، حول الموكب الصغير فاحت رائحة نتن ؛ تطلع مارة قلائل ، أصغوا إلى دقات الطبل هزوا رؤوسهم ؛ لم يتوقفوا حاذانى الركب ورأيت الزينى يضع لثاما حول وجهه ؛ لا أنكر ملامحه فلم ألتق به إلا مرة واحدة ؛ لابد أن أسعى إليه ؛ صاح المنادى : يأمر خاير بك بتعيين الزينى بركات بن موسى محتسبا للقاهرة ؛ وكل من له شكوى أو مظلمة عليه بالتوجه إليه ، ثم يتوقف المنادى لحظة ويتلو أمراً من الزينى نفسه ، أصغيت ؛ ينادى المنادى موضحا العملة العثمانية الجديدة حلت محل العملة المملوكية القديمة ؛ تابعت الركب المتجه ناحية باب الفتوح عند المنحنى اختفى ؛ وابتعد النداء الخافت فى خواء شاحب .

جمال الغيطانى

الجمالية ١٩٧٠ ـ ١٩٧١

جمال الغيطانى

الزويل

.. ال .. ب .. ح .. ر ..

وصلنا بداية العالم ، عبرنا الصراط ، شربنا اللون الأزرق ، تلون به نخاعنا ، صحنا ، زعقنا ، رمينا أمتعتنا فوق الرمال . احتضن بعضنا بعضا .. صاح ، لم أحبك من قبل كما أحبك الآن يا إسماعيل ، ضحكت ضحكت ، ضحكنا ، جرينا نحوه ، في موجه يذوب تعب الرحلة الطويلة ، ماؤه المالح يتدفق ، يملأ روحينا ، قلت ، عندي الدهان السحري الذي قرأت عنه في ألف ليلة ، ندهن أقدامنا ، يصبح العالم كله قطعة يابسة ، لا يبلغنا الماء ، نمشي في اتجاه الشمس ، ضحك فتحي ، عيناه تبرقان ، بحر أزرق عميق الزرقة واسمه الأحمر ، قلت ربما أضاء الليل بنور أحمر ، شقت يده الهواء الطرى ، فراغ أبريل العذب ، الماء المثلج في قلب أغسطس ، توقفت فجأة ، تصلب جسمي ، فمي مزموم .. فتحي .. البحر من أمامنا والجبل من ورائنا .. هيه .. هيه .. إلى الأمام .. عذوبة المياه ، بحر يفيض رقة كأنثى، العمق ، أي لون أزرق !! خلفنا تعلو الصخور تثقل كل منها الأخرى. قلت لطول المسافة التي قطعناها من قنا حتى هنا ، ظننت والله أن الدنيا كلها صخور وحجارة ، فقدت الامل في المياه ، زعق فتحي ، أرجوك.. أرجوك يا إسماعيل أن تثق في المياه ، في زرقة البحر ، أصغيت ، الصخور لها آذان ، عيون ، الأرض مليئة بعروق يجرى فيها دم ، أخاف

عليها من خدش ، عند اندفاع السيارة . الطريق ثوب طويل من قماش أسمر نطويه ، صخور الجبل ، أشكالها غريبة ، تتغير ، تتخذ هيئة رجل ، وجهه منبعج ، قال السائق : تمرح الأرواح فى الليل ينادى بعضها بعضا .. ضحك فتحى.. هل هذا معقول !! توجد أرواح !! نظرت اليه ، يحاور الموج المتعب . مرة وقفنا عند بحر الاسكندرية ، سأل : هل الموجة واحدة لا تتغير؟ يعنى ، هذه الموجة التى تصدم الصخر هنا هى هى التى بدأت من اليونان ، قبرص، قلت أسئلتك سخيفة . غير أننى حرت مثله ، نظرت امتداد الساحل الموحش المقفر ، أنا إسماعيل : هو فتحى .. صاحبى .. العالم كل ما حولنا .. يحاور الموج ، يمد حذاءه ، لن تدركه المياه ، يتراجع مسرعا إلى الخلف ، زعقت يجب أن نتخذ عددا من القرارات الهامة .

التفت .

سنلف العالم ..

العرق يرشح من صدره ، ملصقاً قميصه بلحمه ..

نبلغ خط الاستواء .. نعايش الزنج ..

ندور حول رأس الرجاء الصالح .. نعشق بنات كيب تاون .

نتوه فى مدغشقر ..

نأكل تفاح الشام ..

نغنى عند عبورنا الجبال إلى نيبال ..

نذوب فى أوروبا ، شارعا فشارعا ، نسمع الموسيقى فى المسارح الكبيرة ، كأننا من علية القوم ، نعبر الألب نجوب القارات ، نوقف العربات ، نهدى الزهور للبنات ، نعبر الأطلسى ، كارولينا ، باسادينا .. كاليفورنيا ، هافانا ، ونمشى تحت الثلج فى طرقات مونتريال . العالم واسع ، وكما طفنا مصر .. جبناها من أعلى إلى أسفل بالطول .. بالعرض . . نرى العالم ..

توافقنى على هذه القرارات .. الفرامانات . بالإجماع .

رفع يده ، فرد أصابعه العشر ، وشت الأمواج ، سمعنا النهار المولى بين الجبال فى السماء الزجاجية ، فوق البحر سرحت عيناى ، أى حدقتان تلوحان ؟ قرص شمس ينسحب من وراء غمام ، سرب جراد يعلو بطيئا فوق الافق ، أى وجه ، أى ذكرى رقيقة ! فجر خريفى ، حادة ، صفعة مفاجئة ، أياد مغطاة بقفاز سميك تمسك شرايين رئتى ، فتحى .. أحب منتهى .. أنا أحب منتهى .. أحملها معى فى البلاد البعيدة . اسمع .. أنا لا أطيق .. نصف حديثك من القاهرة إلى هنا عن منتهى .. منتهى .. الا تذكرها بينك وبين نفسك أبداً ؟ .

قال فتحى :

أنت تستعذب الألم ..

يصغى الجبل ، تنشق الأرض قال فتحى :

أجِّل قراراتك الخاصة بمنتهى حتى نصل قرية المنجم .

هبت برودة خفيفة ، مثقلة بوحدة العصر ، آثار أقدامنا ،أحذيتنا الضخمة فوق الرمال ، أجمع مائة قوقعة صغيرة ، كل واحدة فى حجم الأخرى تماما ، أصنع منها عقدا طويلا بديعا أعلقه .. أعلقه لمن ؟ عيناها تطلان علىّ من مكان خفى هنا ، تدركاننى ، تعرفان ما أفكر فيه لكن أين هى ! حتى لو جاءت الآن ، ألقاها أمامى عند نتوء الأرض هذا ، يلامس حذاؤها حذائى ، أى بعد ، أى عمق سحيق ! لو وضعت نقطة مكان وقوفى، نقطة هناك ، الخط المستقيم أقرب المسافات بين نقطتين ، كم يبلغ طوله ؟ فى أى زمن أعبره ، حتى لو اعتليت البراق فلن نلتقى ، لو ربطت روحى إلى ساق الرخ لن أنفذ إليها ، لن تعرف طريقها إلىّ . آه لو أسافر عبر الزمان ، أقطع الأيام ، السنين .. شخص آخر قوى تمطى داخلى ، يدفع ضلوعى ، لم أسافر مئات الكيلومترات ، كل ما تركته ، بيننا ، أبى ، منتهى ، المدينة ، وراء هذا الجبل ، أطلع فوقه ، أرى كل شىء ، أنام الليلة فى سريرى .

السائق كثير الثرثرة ..

فتح اعيننا على فرصة هى قمة ما فى رحلتنا ..

أى البلاد يحاذينا الآن على الضفة الأخرى للبحر ؟

ربما ينبع ، ربما جدة عندك على الخريطة .

اصوات البحر تعمق الصمت .. الأسى المقطر يغمر الهواء ، عمر النهار يشيخ ، فى هذه اللحظة يقترب الليل من نهايته فى بلاد قصية ، عندما تزحف بداياته بين الجبال ينشع اليود ، تطير الروائح الغريبة ، نرتاد كوكبا نائيا ، ما الذى نلقاه آخر الدنيا ؟ أين نهاية العالم فى المكان ؟ نعبر فوهات البراكين الواسعة نحن فى يوم من أيام الخليقة الأولى ، عصر ما قبل الطوفان ، يغشى الكون بحياة لا تبدو للعين ، تنقسم الخلايا الواحدة . ما الذى يجرَى لو بردت الشمس ، انطفأت ، همد القرص المغلى ، ينقذنا حبيبى البراق ، يطير بنا ، يعبر الآفاق نطرق باب السماء الثالثة ، الرابعة ، يطرق فتحى ، على الأقل خمس بنات يفكرن فيه الآن ، صورته تتداعى حولها أفكار سناء ، سعاد ، آمال ، نادية ، أخريات علمهن عند ربى ، غير أنه كما يقول ، لا يخدعهن ، لا يمنى الواحدة منهن بالوعود ، فهو يقضى وقتا فرض عليه أن يقضيه ، طيب يا فتحى لو قالت واحدة منهن أحبك فهل تجيبها وأنت تعنى هذا فعلا ؟ يضحك ، كل منهن قالت له فى أول لقاء أحبك ، سعاد مثلا جارته ، هذه البنت الرقيقة ، انتظرته فى ليلة شتاء باردة فوق السلم ، مساء الخير ، رد التحية بدهشة . قالت أنا أعرف أنك ستحتقرنى لانى انتظرتك ، وكلمتك ، لكنى لا أستطيع . راح ينظر إليها فى الظلام بعد انطفاء نور السلم الأوتوماتيكى . قالت : هل تذكر ١٦ أبريل سنة ١٩٦٧ ؟ بسرعة قال لا ، انه لا يعرف حدثا كبيرا جرى فى هذا اليوم . لم تسقط فيه قنبلة ذرية على مكان ما فى العالم ، لم يقع زلزال ، لم يمت له أقارب . قالت فى ١٦ أبريل ، هنا فوق السلم ، كنت أنزل ، قلت لى صباح

الخير .. كاد يضحك ، لكنه سكت ، قال . الآن تذكرت كل شىء . اقترب وجهها من وجهه ، أو وجهه من وجهها ، لامس أنفها أنفه ، همست .. أحبك، لحسها مذاق العجين عندما يخمر ، يمشى ، قامته الرفيعة المشوقة، حذاؤه الرياضى الضخم ، أى روعة ، مجرد شاب ، صديقى يمشى على شاطىء البحر الأحمر ، أقصى مصر ، تعتم الأمواج ، يقفز سمك صغير فضى ، خيط رفيع صلب من أسى هش مس نفسى أسى ، على أى شاطىء بالضبط ؟ ما تثيره مقدمات ليل عفى موغل ، تمشى منتهى الآن فى شارعنا الذى تضىء مصابيحه العالية مبكرة ، البيوت رقيقة ، يطل الأطفال ، خادمة تنشر الغسيل ، يتساقط ورق الشجر الأصفر ، يدوى نفير العلم ، آخر النهار ، معسكر قريب ، منتهى تعبر الطريق ، تستدير ، منتهى تمشى فوق الرصيف ، شق الشارع لتمشى فيه ، خلقوا لينظروا إليها ، يدفق وجهها لونه الأسمر الدافىء الحنون ، كوب اللبن المحلى بالسكر ، حنون ، بالضبط خلاصة الرقة الممزوجة بعذوبة مركزة ، أمشى مغمض العينين ، لا أخشى الاصطدام بحاجز ، فتحى يصفر بحس خفيض .

* * *

بعض ما قاله سائق عربة النقل وهو رجل طويل الجسم نحيله ، ممصوص الوجه ، لونه يميل إلى البنى المحروق لم يكف عن الكلام معظم الطريق من قنا حتى القصير ، وكان ـ كما قال ، يجيد لغتين : العربية ، والأخرى نوبية ، أو شبه ذلك !

(لكثرة ما مر فوق هذا الطريق ، فهو لا يذكر بالضبط عدد المرات التى قطعها ، إنه يعرف ملامحه ، نوع الصخور الموجودة عند كيلو سبعة ، شكل الجبل عند كيلو أربعين بقايا البيت الغامض المهجور عند الأرض التى حفرها السيل ، لون الرمال أصفر ، لكن عنده له أكثر من لون ، مائة لون ، فى الصباح الباكر ويبلل الندى الصحراوى يثقل صفرته ، فى الظهيرة

الوهج الذهبى ، قتامة العصر ، تبدو الذرات مثقلة بحزن ، أى والله تحزن الرمال . طوال سنين قضاها على الطريق لم ير إنساناً فيه ، عدا حيوانات الخلاء ، تبدو فى عرض الطريق ، تفر لحظة مرور العربة ، فى مرة لمح ثعبانا هائلا يسحب جسمه عبر الطريق ، داسه ، أحس أنه يمر فوق حاجز مرن ، نظر وراءه ، لمح الجسم الطويل يجرى خلف العربة ، داس بنزين ، فر هاربا . الطريق موحش واعر ، يزمجر فيه الكون ساخطا ، لو حدث عطب للسيارة ، لابد أن يتوقف ، لن يدركه أحد ، حتى يبحث عنه رجال الحدود ، يضيع . مهما زعق لن يلحقه إنسان ، تعجب ما الذى يدفع شابين فى مقتبل العمر إلى السفر هنا ؟ تحدث طويلا عن الطرق الزراعية التى عمل عليها فى الوجه البحرى ، العمل هناك متعة ، الأسفلت حرير طبيعى ، قرب طنطا يركن فى غرزة بها امرأة بيضاء حلوة كالشهد ، سمينة كالزبد ، عشرة قروش وينال منها ما يبغى ، إذ تراه هو بالذات يخفق قلبها ، لا تدارى فرحتها لأنه يريها مالا يقدر عليه الآخرون ، لكن من هى ضمن اللواتى عرفهن ، وقابلهن فى كل بلد ؟ . قال إن الرجال الذين عمل معهم فى الوجه البحرى أقل خبثا من الرجال الذين يعمل معهم هنا ، بعض زملائه ينتهزون فرصة خروجه فى هذه الرحلات الطويلة ويروحون إلى مدير المكتب وينمون عليه ، يقولون إنه ينقل معه كثيرا من الركاب على الطريق ، يكسب كثيرا من هذا ثم قال : من يتصور أننى سألقى ركابا فى مثل هذا الطريق ، حتى لو أخذت معى واحدا ، أو اثنين فلا أطالبهما بنقود، كل واحد وذوقه ، قال لكنى أسكت ، أسكت ، ثم أدير للواحد مقلبا يروح فيه ، قال هل تعرفون ؟ أى عربة نقل يمكنها أن تدهس أى إنسان يعبر الطريق ، لا يدركها أحد ، افرض أنك تسوق فى الليل ، وطلع لك واحد فجأة ، لم تستطع إيقاف العربة، من سيعرف أن عربتك أنت بالذات هى التى فرمته ، قال بعد سكوت مدة . ساد فيها صوت الموتور ، والرياح ، انطوت أميال ، إنه مهما رأى فلن يرى أحلى من نساء القبيلة التى تنتقل بين حدود مصر والسودان ، ابتسم، غمز بعينه ، عند حدودنا مع السودان

يقدر الواحد منكما على الاجتماع بما شاء من النساء ، في أكواخ صغيرة ، تعمل لك الواحدة منهن ما يسمونه سمر ، وتدلك جسمك بالزيت ، اسمهن حبشيات ، أما القبائل فتلقون فيها كل أمر غريب ، عاداتهم لا نعرفها نحن في الحضر ، لم يذكر أسماء القبائل ، لكنه قال إنهم رحّل ، وان رجال الهجانة يعرفونهم ، لوح بيده ، قال ، أنتما شابان تستطيعان دخول السودان بدون متاعب ، بلا جوازات سفر ، في هذه اللحظة تماما كان ضجيج العربة يملأ آذانهم ، غير أن فتحي التقط الكلمات من بين أجزاء الموتور ، استفسرا عما قاله ، سرعان ما راح يحكي الكثير من التفاصيل فبعد تجاوز قرية المنجم بمسافة تبدو فيها الجبال موحشة خالية يصل الإنسان إلى آخر نقط الحراسة المصرية في قرية صغيرة اسمها (أم الشلاتين) هذه النقطة فيها رجال من الهجانة ترمي عليهم السلام ، تقول انك تبغي رؤية السودان ، تقول لك أقارب هناك، تزورهم ، ترجع من نفس المكان ، أقسم ، ويداه بعيدتان عن عجلة القيادة ، أنهما لن يلقيا معارضة ، وهكذا يتمتعان برؤية بلد آخر. سألاه ، ألحا عليه، استفسرا منه عن كل كبيرة وصغيرة فيما قاله ، طلبا منه أن يروي لهما ما رأى خلال زياراته الكثيرة ، أقسم برأس آبائه ، وبتربة أمه أنه وصل حتى شندي ، التي تبعد خمس ساعات بالقطار عن الخرطوم ، عبر النهر في معدية حكومية بقرش صاغ سوداني لا تعبر النهر غير مرة واحدة في النهار ، ثم مشى ساعة بين الجبال ، ورأى هيكل حمار مات من الجوع ، حتى وصل بلدة اسمها نواب، زار فيها بعض أقاربه ، ثم عاد ، لم يكن معه جواز ، ولا بطاقة شخصية حتى ، كل ما يجب أن يفعلاه هو إلقاء السلام ، عندئذ يمضون ، بشرط العودة من نفس المكان .

أنتم يا من هنا .. أنتم يا من هنا ..

أكشاك خشب ، طلاء جيري ، قال فتحي : الغروب ثقيل ، يلمس اللحم يترك آثاراً على الجماد والأشياء ، يتدفق اللون الذي ينقلب إلى رمادية

غامقة بسرعة كما يطلع النهار بسرعة ، فجأة ، تلقى الشمس ، تقرب منتصف السماء ، الساعة لا تتجاوز السابعة صباحا ، لا بيوت عالية تخنق الزمن ، لا طرقات تتوه فيها ، تشحب الأشعة ، أيضاً يجيء الليل مسرعا ساحقا كالمصيبة ، ظلامه حجارة ، ذكريات بعيدة تبعث فى الروح ضيقا وكآبة . تأبى الموت .

قال فتحى : ألم يقل السائق إننا سنلقى عمال المناجم والمهندسين ؟ قلت نسينا أن نسأله عن آخر مرة جاء فيها إلى هنا ؟

تلفت ، وشيش البحر ، هل نقف عند حافة الدنيا ؟ هل نعبر الصراط ؟ كم قطعنا ؟ تقاس المسافة بآلاف الأعوام .

قلت : هذه بيوت تقام فى أماكن العمل المؤقتة ، ربما أقيمت لغرض معين ثم انتقلوا منها ، واضح أنها لم تهجر منذ زمن بعيد ، لا يوجد ما يدل على هذا ، لكن الجدران ، طلاء الجير ، هذه الرائحة ، غطاء براد شاى لمحته فى فناء بيت ، النصف الأسفل لكوب مكسور ، كتلة خيط صغيرة رشقت فيها أبرة ، رباط حذاء تآكل رأسه المعدنى ، قشر بطيخ جف ، تجمد، رعشة الحياة ثم انطفاؤها ، فى وقت قريب أقام ناس هنا ، نادوا بعضهم بعضا ، تقلبوا أثناء النوم ، حلموا ، تواردت آلاف الذكريات .

همس فتحى « البيوت ما فيها ديار ولا نافخ نار ، مع هذا أشعر أنها مسكونة » .

ضحكت . بالجن والعفاريت ، لم يرد ، إن مشى بجوار البحر فى أبى قير لا أنوار على الطريق يبدو سواد البحر مفزعا ، سدا يبدو لكنه غير محسوس ، فراغ يغريك بالتقدم ، المشى ، يمسك فتحى يدى .. يقول :

هيا نبتعد ربما امتدت ذراع مخلوق لا نعرفه واختطفتنا : تهوى بنا إلى القاع ، البحر القريب يقلقه .

قال : تعال نبحث عن مكان نمدد فيها أجسامنا ، سكت .

قال ... لو معنا . امرأة لم أرد ، ارتعشت ، أصوات الليل المقبل فى الفراغ ، أى ضجة فى مدينتنا الآن ، أى هدير أصوات ؟ اسمع صرير عجلات الترام عند المنحنيات ، أبواق المركبات و توسلات الشحاذين ، فرقعة أوراق اللعب فى المقاهى ، طشيش الطعمية المقلية فى الزيت ، رجل يحسم تردده وينادى :

تاكسى .. تاكسى ..

تقول فتاة حلوة لصاحبتها :

دعانى مرتين ورفضت . !

يلوّح شاب مخاطبا رجلا عجوزا . أرسل له خطابات و .. يتقوس حاجبا رجل يرتدى الملابس البلدية ، يسحب نفسا طويلا من الشيشة قرقرة الماء ، أسمع الهمس فى الطرقات المزدحمة ، الصوت الخافت لاحتكاك قماش الفساتين فى ممرات المسارح ، اصطدام الأيدى بالأرداف ، أرى ، أحس ، أذوب فى أنفاس منتهى .

قالت والليل الشتوى يضم البيوت ، الناس عليهم وحشة ، تحوطهم وحدة ، السماء تنذر بمطر لن يكف .. لابد أن أرجع مبكرة .. قالت إنها زعقت لأختها لأنها قلبت زجاجة الحبر ، وأنها جلست أمام التليفزيون ، وان أختها الصغيرة جدا ، جدا ، نامت ، أسندت رأسها إلى يدها ، أغرقها حنان مفاجىء ، تمنت لو ترانى فى هذه اللحظة تماما ، تفجر فى قلبها نبع حنين ، سألتنى ورأسها يومىء هذه الإيماءة القصيرة الموجزة . أنت ما الذى كنت تفعله ليلة أمس فى الساعة .. الساعة . عضت شفتها السفلى ، ثوان ، فجأة ، أتمت كلامها فى الحادية عشرة .. ، وسمعت مذياعا قريبا ، مساومة مراكبى حول قارب ، الصوت الخافت المنبعث من النيون ، قرقعة آلات الطباعة الصغيرة فى الشوراع الضيقة ، أطيط شبشب جارتنا فى الطابق العلوى ، خرير المياه المتساقط وراء زجاج محلات الزهور .. الحادية

عشرة .. الحادية عشرة منتهى .. كنت أفكر فيك ، ضحكت ، قالت: وأنا أيضاً ..

حكيت لفتحى ما دار بيننا ، سألنى ، ألم تقبلها ؟

قلت : هذه خطوة خطيرة لم أقدم عليها بعد .

قال : ألم تمسك يدها ، ألم تعرض عليها الذهاب إلى السينما فى حفلة الثالثة ؟

لم أرد ..

قال إنه لو كان مكانى الآن لاصطحبها إلى بيت أحد أصحابه العزاب أكثر من مرة ..

غضبت .. قلت له :

أنت لا تحس هذا يبدو وجهه متوترا ، يدور بعينيه حوله ، ربما ما يمر بنا الآن أجمل ما سنذكره فيما بعد ، نعم أشياء لا نلحظها الآن ، نرى الموقف كله ، عروق رفيعة من البرد ، سرت فى الهواء .

قلل ؟؟ فتحى : أسمع خطوات

قلت : لا يوجد غير البحر .

قال : عندما نعبر الحدود ، نغنى ونرقص يوما بأكمله ،

قام فجأة ..

هل تعرف أن الفراعنة لهم جذور هناك ، قرأت أن أفراد قبيلة الدنكا جزء من الفراعنة ، وعندما هرب المماليك من محمد على استقروا فى دنقلة فأنتجوا صنفا رائعا مخلطا من النساء ، همست ، ربما صحيح . رأيت الرمال يتغير لونها فجأة تحت وطأة المساء ، هل تتصور حجم العقارب ؟ الثعابين ، الطريشة تدفن رأسها فى الرمال ، لو عرفت أمى أين نحن الآن ؟ لطمت ، عاطت ، نفذ الصوت إلى سلسلة ظهرى . أبر تخز العروق ، طفل يقف ، يبول فى خرابة ، فجأة ، يتحسس أذنه كلب . فمه بارز الأسنان ،

يتبح بصوت عالٍ ، زعقة خفير ليلى مرعوبة فى قرية صغيرة على حافة الصحراء ، عربة تتدفع ، تقف فجأة ، حجارة تدحرجت ، لطمتنا ، ثوان لم يتجسد لعصب النظر ، أحسسنا به ، عينا فتحى مشدودتان إليه .. ربما إلى جزء معين فيه .. غير أنه عاد يكرر ما قال :

ـ السلام عليكم ..

ـ من أنت ؟

ربما أطول منى شبرين ، نحيل ، لونه أقرب إلى البنى المحروق رقيق الفم ، مفرطح القدمين .. أنا زويلى . زويلى إن شاء الله ..

عيناه ضيقتان ، تطلان على شخصين آخرين وراءنا تماما . رأسه مثقل بشعر هائش كثيف يتدلى على ظهره ، وجه فتحى عليه دهشة ، خوف، معه حق . فراغ ، وحدة ، بحر ، ثم إنسان غريب ، لكن .. ربما داخلنى ارتياح ، رجلٍ زويلى ، جماعة ، قبيلة ما ، تعيش بالقرب من هنا ، رجال ، نساء تبدو الاكشاك كمقابر الخفير قلت :

ـ هل يصلح المكان للنوم ؟

ـ لا أمان ، الضباع تجىء فى الليل ، يهيم الغسوق فى الهواء ليمص الدم من الوجوه ..

عندنا لا يمشى الواحد بمفرده بعد العشاء والليلة ما فيها قمر ، صخور الجبل تنصهر فى السواد ، تفح الأرض أرواحا غريبة ، يضيع صوت الموج ، ينزل الليل فوق المدينة ، تعجن الأصوات ، الهمس ، الراديو ، الزعيق البعيد ، صيحات السكارى ، يبدو الرجل رقيقا لولا شعره الهائش ، تلمع أسنانه كالمعدن ، حدثنا عن الذئاب ، سألنا عن النار ..

قلنا لن نشعل ناراً ، استعاذ بالله ، كيف نبعد الذئاب إذن ؟ فتحى ينقل ثقل جسمه من ساق إلى أخرى .

ضيوفى إن شاء الله .

الليل اكتسب مذاقاً مختلفاً منذ ظهوره ، أيضاً الزمن ، يلتقى الإنسان بآخر ، يرى أنه قصير طويل ، أعوج الأنف ، نظيف الأسنان ، لا يعرفه تماما ، فى كل لقاء تتكشف أشياء لم يعرفها ، نوعية الرجل ، ما مر به من أحداث ، ينثر الرمال بطرف عصاه ، يحول عينيه عنا . إحساس غامض انتابنى ، أهذا رجل أم امرأة ؟ أم بين بين ، كدت أضحك ، عدت أنظر إليه ، أحاول تحديد عمر الرجل ، حرت لو قلت الأربعين ، غير مطابق تماما، كأنه تحت العشرين ، يبدو أكبر بكثير ، هذه السمات لا ينطبق عليها زمن ما ، صوت بعيد كئيب فى السواد ، حسم ترددنا ، ساقه رفيعة قوية ، رجل، امرأة ؟

رجل ، جزء متحرك من صخر الجبل ، الليل غطى الأرض ، ثقل ناعم كالمخمل ..

ما الذى يجعلنا نمشى وراءه ؟

ونظرت إلى فتحى بلوم ، ربما سمعنا الرجل .

* * *

اين الزويل؟

قبل التعرض للزويل يجب ذكر القبائل التى تعيش فى هذه المنطقة البعيدة ، والتى لم تجذب إلا القليل جدا من الرحالة الأجانب ، والصحفيين والشبان هواة الأسفار ، ونظرا لبعد المنطقة والظروف القاسية المحيطة بها فقد عاش السكان فى حالة بدائية ، ولا نعرف إلا أقل القليل عن عاداتهم ، طقوسهم أو أحكامهم نظرا لأنه من الصعب جدا معايشتهم ولأن أحدا لم يفكر فى هذا ، وينتقل السكان باستمرار بين مصر والسودان عبر الدروب والمتاهات التى تملأ الصحراء ، ويقال إن الواحد منهم يمكنه المشى بلا انقطاع لمدة خمس ليال متصلة فى الصحراء بدون تزوده بنقطة ماء ، أو كسرة خبز ، ولا يضمهم تجمع واحد ، ولا قبيلة بعينها .. والمعروف تماما من هذه القبائل ثلاث .. هى :

١ ــ البشارية:

أكثر القبائل تخلفا ، يعيشون فى آخر حدود مصر ، يتوغلون مسافة ٨٠ ميلا داخل السودان ، ثم فوق لسان من الأرض على نهر العطبرة .. يتكلمون لغة خاصة بهم ..

٢ ــ الزبيدية :

وحالتهم المادية متحسنة نتيجة قربهم من الحضر .

٣ ــ العبابدة :

وهم أكثر تحضراً لعمل الكثيرين منهم فى المناجم ، ويترددون على المدن القريبة ، بعضهم وصل إلى القاهرة ويعيش بها ..

أما الزويل فقد أنكر الكثيرون (خاصة أساتذة قسم الجغرافيا البشرية بالجامعة) ورجال الإدارة وجودهم قالوا :

ليس هناك قبائل بهذا الاسم . ربما وجد تجمع بشرى لا يزيد تعداده على المئات عرف بالزويل ، غير أن جميع المسافرين بهذه المنطقة يعرفون تماما من هم الزويل ! ولو كلف أحد خاطره وأوقف أى بشارى أو زبيدى وسأله عن الزويل لأجابه بالكثير ، لكن ترجع قلة المعلومات إلى بعض هذه الأماكن ، بالاضافة إلى طبيعة الزويليين التى تأبى عليهم البقاء فى مكان واحد ، إنهم دائما بعيدون عن الحضر كجماعات ، تحيطهم رهبة تبعد عنهم أى قبيلة أخرى ، إلى جانب إجراءاتهم الصارمة فى إبقاء أخبارهم دائما مبهمة ..

* * *

تزور أخته ..

سمراء ، تميل إلى امتلاء ، تجيء فى السادسة ، تفتح النافذة قالت أخته أول مرة تعرفه بها :

منتهى .. منتهى صاحبتى . إسماعيل أخى يا منتهى .

احتوى يدها الرقيقة ، يشرب عصيرا حلو الطعم ، عصا طويلة انغرست فى قلبه ، انسربت إلى دورته الدموية ، فتحى .. إن لم أعرفها .. ان لم أحبها وتحبنى لبقيت بعيدا عن جنس النساء طوال عمرى . فتحى كأنك قضيت عمرك تبحث عن شيء ما ثم .. ثم وجدته .. عثرت عليه فجأة .

* * *

ما الذى يزدحم به الليل فى هذه النواحى ؟؟ ليس هواءً خالصا ، ولا نسمات كأن الصيف والشتاء لم يلامسا الصخور ، الجبال ، ينتصف النهار ، يذوب العصر فى المغيب ، الأسى الغامض يغرق قلبى ، يأكله ، فتحى لا يميل إلى الكلام ، طوال النهار لا يتحدث كثيرا ، قلت : تعال نلف المكان ، قال فلنبق جالسين ، ربما نظرنا بدون قصد أحد حريمهم ، قال اسكت ، تركته جالسا أمام الكوخ الصغير المستدير ، تجولت بعينى ، يعلو مرتفع صغير من الأرض ، يفصل كوخ الضيافة عن البيوت ، الحريم ، المساحة الكبيرة . لو وقفت على أطراف قدمى أرى قمم البيوت المصنوعة من القش ، تصلبها أعمدة أشجار . تستدير من أعلى ، بناء بعيد ملون على بعد ينأى عن الأكواخ ، أطفالهم يتبعوننى ، عرايا ، أتحرك خطوة واحدة . يتحركون خطوة واحدة أضع يدى حول خصرى ، كذا يفعلون ، ضلوعهم عيدان قفص مفرغ ، وجوههم متشابهة ، الخطوط مستقيمة . العيون ضيقة يتجمع عند أطرافها نقط صفراء لزجة ، الملامح لرؤوس رجال بلغوا من

العمر مدى ، ركبت فوق أجسام صغار ، ضاع لون الجلد الأصلى تحت التراب والرمل ، الشعر هائش أشرت لأحدهم ، كشر فى وجهى ، انحنى ، يكاد يرمينى بحجر ، تراجع ، تراجعوا داروا حول المرتفع الصغير ، أمام عينى ينطلق الخلاء إلى السودان فسيحا جموحا كساحة سباق ، يصدم جبالا شديدة البعد ، بالغة الارتفاع ، ربما فى السودان تنتهى السماء هناك، لونها غريب ، فرشاة ألوان مائية رقيقة خطت هذه الخطوط الرفيعة التى تحدد الجبال ، الطريق من قنا حتى قرية المنجم لم نر فيه جبالا بهذا اللون ، التكوينات البعيدة ، فتحى يسندر رأسه إلى ذراعيه ، عيناه معلقتان فى السقف ، لا سقف ، جدران الكوخ المجدولة من العيدان الرفيعه ، ليست بوصا ، نوع خيزران ، تعلو الجوانب من الارض ، تميل حتى تتلاصق ، تنتهى فجأة . حرارة الجو لا نحسها ، وقع أقدام فى الخارج قلت لفتحى .. أصابك كسل ، لم يرد ، قلت لو جاءت سعاد أو سناء .. ستظل نائما ؟؟ ابتسم . قال : أتذكر الآن سناء فى زى المدرسة الثانوى الرمادى . تراجعت إلى الخلف ضاحكا . سررت لأنه عاد يضحك ، يتحدث ، قلت دبرنى يا فتحى .. انتصب واقفاً .. نعم يا سيدى .. قلت أنا أحب بدون أمل ما الذى تفعله لو كنت مكانى ؟ ضحك سنناقش قضية خطيرة جدا ، هل الحب من غير أمل أسمى معانى الغرام كما يقول فريد الأطرش أم لا ؟

* * *

(١)

معلومات عن الزويل :

يعيش الزويل فى المنطقة البعيدة عن الطريق الواصل بين مصر والسودان والمار ببلدة حلايب ، ويتجنبون لقاء بعثات المناجم ، أو البترول التى تصل هنا ، غير أن بعضهم ثبت فعلا فى سجلات شركة مصر للتعدين أنهم عملوا كحمالين فى مناجم الفوسفات ، وهذه هى الحالة

الوحيدة التى تقدم فيها بعض أفرادهم إلى عمل معروف بصفتهم زويليين ، غير أنه هناك شواهد قوية تدل على أن كثيرا منهم عبروا الطريق الواصل بين البحر الاحمر وقنا ، دخلوا صعيد مصر فعلا ، تجولوا فى مدنه ، باعوا الفاكهة فى قطارات الصعيد ، وقد انتقل بعضهم فعلا إلى ممارسة أعمال أخرى ، كالملاحة فى المراكب النهرية التى تنقل أوعية الفخار من صعيد مصر حتى الدلتا ، أو بناء المنازل الريفية الصغيرة فى القرى ، حيث يقيم البناءون طوال مدة بناء البيت على نفقة صاحبه ، يأكلون ويشربون ويقبضون أجرا ضئيلا .. أيضا عملوا فى جمع البلح من فوق النخيل ، يجىء الواحد منهم إلى صاحب الحقل ، ويقول له أجمع لك البلح كله مقابل كذا ، والمعروف أن هذا العمل يتطلب مهارة معينة فى التسلق وابقاء الجسم ثابتا أكبر مدة ممكنة فوق هذا الارتفاع ، ويقال إنهم استخدموا هذه المهنة فى التجسس على البيوت المنخفضة المحيطة بالنخيل، عمل بعضهم على الشواديف ينقلون المياه من الترع المنخفضة إلى قنوات الحقول ، ينشدون المواويل الغامضة الحزينة ، وأيضا فى تشحيم القطارات، وبيع الشاى داخل عربات الدرجة الثالثة ، التجارة فى الثياب القديمة واستبدالها بالأوانى المنزلية ، وهذا يتيح لهم فرصة الدخول إلى أكبر عدد من البيوت ، مناقشة السيدات لأطول وقت ممكن ساعة الصباح ، أيضا تجول عدد منهم فى حوارى القاهرة بلهجة تميل إلى لهجة المغاربة . أفتح الكتاب .. أفتح الكتاب .. وكثيرا ماتصيح عليهم بعض السيدات فيطلعون ويستطلعون الغيب ، من خلال الغمام ، ولهم مقدرة على هذا ، يلاحظ أن أيًا منهم لم يستمر فى عمل واحد مهما طالت المدة به ، يظل فيه فترة معينة ، فجأة يختفى . فيظن صاحب المركب مثلا أنه غرق ، ويضطر إلى إخفاء الخبر حتى لا يجر على نفسه المتاعب ، خاصة أن الزويلى طلع للعمل . لم يعرف له بلد ، ولا أهل ، أما بقية الأعمال الأخرى فلا يلاحظ فيها الاختفاء ، ويقول البشارية إن الشيخ صهيج الملثم ـ الذى لم يطلع على وجهه إنسان ـ هو الذى يرسل جماعات الزويل وراء الصحراء . ينتشرون

في المدن ، يعايشون ناسها ، يعودون بعد غيبة طويلة قد تمتد سنين ليختلى الواحد منهم ساعات طوالا بالشيخ الملثم ينقل له ما لا يعرف سره أبدا . ويؤمن البشارية الزبيدية ، ومعهم العبابدة ، أن الزويل فى كل مكان ، حتى بين جماعاتهم هم التى يعرف فيها كل منهم الآخر ، فيتحاشون ذكر الزويل بالسوء لانهم على يقين من وجودهم بينهم . وفى لحظة معينة يظهر الزويلى. يفرقع الحصى تحت أقدامه . تلين له الحجارة . وينكسر الشوك — هكذا يقولون ـ ولا يذكر أحد سببا واضحا لارسال هؤلاء ـ الطوافين الزويل ـ كما يعرفون ، لكن المؤكد ان الزويلى لا يجرؤ على مغادرة جماعته ، أو عشيرته إلا بإذن خاص من الشيخ الملثم . ويقال إن موقع الواحد منهم أثناء طوافه يكون معروفا للشيخ . فاذا وصل الواحد منهم المنيا مثلا يكون معروفا وراء الجبال أنه هنا أو هناك . ولا يعرف الزويل باسم واحد حتى عند القبائل والجماعات القريبة . بل يذكر اسمهم مقرونا بلقب آخر . يختلف بين سكان القبيلة الواحدة . فبعض البشارية يسمونهم جند نجور زويل ، ويسميهم قسم آخر . الفولاند زويل ، أما العبابدة فيطلقون عليهم سونغاى زويل أو موسزويل ، ولا يعرف سبب لهذه الأسماء الغريبة والمعتقد أنها مستمدة من لغة قديمة ، ربما لغة الزويل الحالية ، ويستثنى الزبيدية من هذا ، لأنهم يسمونهم زويلا فقط ، ويضيفون بسرعة بسم الله الرحمن الرحيم وعرف عنهم تميزهم بهذا الجلد العجيب ، أنهم يعيشون دائما فى حالة مجاعة فالطعام قليل جدا ، ويحدث كثيرا أن يقابل الزويلى شخصا من البشارية فيقول زاعقا ، والله لنا أربعة أيام ما أكلنا ولا شربنا فيقدم له البشارى الماء . ولو معه طعام ما بخل به أبدا ، فالزويليون تحيطهم رهبة غامضة تجعل الجميع بعيدين تماما عن الاشتباك معهم فى قتال أو التعرض لهم ، لو مر واحد من الزبيدية راكبا جمله أمام زويلى لترجل بسرعة ولا يبدو على الزويلى أنه لحظه ، برغم أنهما بمفردهما تماما فى الصحراء ، وكثيرا ما تقع بعض الحوادث الغامضة كأن يختفى طفل بشارى ، أو يقوم رجل زبيدى فلا يجد امرأته الشابة بجواره ، وحكى

كثيرا فى مضارب العبابدة عن عريس صغير زف إلى امرأته بعد أن عقدوا لها عليه وعندما فتح عينيه فى الصباح عبثا حاول أن يجدها صرخ ، زعق، بكى عند قدمى شيخ القبيلة ، لكن الجميع قالوا له ما نقدر نعمل لك شيء ، وجرؤت عجوز على القول بأن العروس الضائعة كان يرغبها زويلى، وأنه حدد اللحظة التى ينال فيها العروس فى أول ليلة لها ثم ينتزعها من باط رجلها ، المهم أن العروس راحت على زوجها ولم يختلف فى أمرها اثنان ، لكن لماذا نبتعد ونورد ما يتردد على ألسنة البشارية أو العبابدة ألا نذكر هذه الحادثة عندما شرع ثلاثة رجال أوربيين فى رحلة من مدينة أسوان قاصدين السودان متخللين المتاهات والدروب عبر حلايب ، وصحبهم دليل قيل بعد ذلك إنه من الزويل ، المهم أن سيارة الجيب مضت عبر الدروب ، وتأخرت عن الوصول إلى نقطة الحراسة المصرية عند أم الشلاتين خرجت دوريات الحراسة المصرية تبحث عنها ، وبعد جهد كبير وجدوا السيارة وقد سلكت طريقا جانبيا وعرا ـ حار الكثيرون فى السبب وكيف طرقته ـ وعلى مسافة ثلاثمائة متر وجدوا جثة أحد الأوربيين ، أصبح هيكلا عظمياً أثبت التشريح أنه مضروب بطلق نارى، بالقرب منه جثة زميله الآخر ، مطروح على ظهره ، يداه مرفوعتان إلى أعلى يحوش خطرا وهميا ، وبالقرب رقد هيكل الدليل الزويلى ، الثياب القديمة الجافة العباءة القصيرة تغطى الهكيل، لكن الغريب أن التشريح أثبت أن الفك والجمجمة لرجل أوروبى ، فهل هى جثة الأوربى الثالث ، ولو فرض صحة هذا فما الذى جعله يرتدى ملابس الزويل ، وإذا لم يصح ، فأين راح الرجل الثالث ، الذى عثروا على آثار قدميه فوق الرمال ولم تستطع الدوريات تتبعها بين الجبال الموحشة والكثبان المتحركة باستمرار ، لقد علقت الصحف على الحادث كثيرا ، وتساءلت ، ما الذى يربط الأوربى الثالث فى هذه المنطقة وإذا كان قد اختفى ولم يعثر على جثته . فأين راح؟

* * *

قلت لفتحى . الليلة تكلمت معها عشر دقائق . بمفردنا . ابتسم ، أصغى ، نسيت تماما ضجة المقهى .

كالمعتاد جاءت ، تضم كتبها إلى صدرها ، تمشى على أطراف أصابعها ، عيناها الواسعتان ، تحتوينى ، ترقبنى ، كأن أختى أحست فخرجت تعمل لنا شايا .. بسرعة سألتها ، أنت فى أى مدرسة ؟ بدهشة قالت ، أنا زميلة نجوى فى نفس الفصل ، صوتها له مذاق عصير العنب ، شفتان لون رمان منفلوط ، طعمه السخى ، قلت لنفسى ، أنت سخيف وهل هذا سؤال . وتذكرت جرأتك مع البنات ، ابتلعت نفساً عميقا ، هل أنهيت المقرر كله ؟ اهتز شعرها وهى تجيبنى .. تقريبا ، قلت لو كنت ضعيفة فى اى مادة أنا . أنا أساعدك .. ياه .. ولم أسمع واحدة تنطق حرف السين بهذا الحلاوة خاصة اذا كان يتوسط كلمة ـ مرسى ـ !!.

يوم حار أشرب فيه ماء مثلجا ، فرحة الدقائق الأولى عند وصولنا بحر الإسكندرية ، قلت : لك أخوات . قالت ثلاث بنات ، أختى الكبيرة فى الجامعة ، أيه كلية ؟ قالت الآداب ، ياخسارة لو الهندسة لسعيت إليها غدا، قالت انتظر هناك سهير الأصغر منى وفادية .. قلت تعرفين طبعا .. كل اخوتى نجوى .. لم تقل نعم . لم تقل لا ، لم تنطق حرفا ، هزت رأسها من أعلى إلى أسفل .. هذه الهزة القصيرة جدا ، السريعة جدا ، تترك طعما فى الفراغ ، كدت أصيح ، أقفز، دخلت نجوى ، تناولت الشاى .. صبت القهوة . قالت منتهى .. احذرى وش القهوة . فرصة لأشرب اللون الأسمر عندما تحول عينيها عنى ، قلت أنا لا أشرب القهوة ، لم أعجز، ضحكت ، لن أتحرك حتى أرى شفتيها تطبقان على حافة الفنجان ، أراها تحتسى حسوة ، قالت إنها تعودت شرب القهوة من الصغر مع جدتها ، قلبت أختى كراسة كبيرة ، تتشاغل عنا . تساءلت أنا أعطلكما ، لم تردا .. تبادلتا ابتسامة ، وقفت ، قلت لو أنتما ولدان لأخذتكما معى فى رحلتنا ، قالت بسرعة .. الله .. ستسافر؟ قلت سألف مصر .. قالت نجوى : تصورى

يانهى لا يأخذنى معه للسينما ، قلت .. سآخذكما معى ، ضحكت أختى .. ياسلام ..

معلومات إضافية عن الزويل :

عادة يقول الزويل للضيوف الأغراب عندهم فى البداية ، إن مدة ضيافتهم سبع ليال ، وان الغريب يمكن له مغادرة المكان فى شروق اليوم الثامن ، على أن يضمن الشخص الزويلىّ الذى صحب الغريب سلوك الضيف طوال الفترة فلا يسمح له بالتجوال ساعة ما بين الغروب والعشاء، فى هذا الوقت تماما تخرج الزويليات إلى أرض خلاء كبيرة تقع على بعد من الأكواخ والخيام ، يسمونها « الحماد » يقضين فيها حاجتهن ، وإذا حاول الغريب أو غافلهم وغادر المكان سرا ، لسعوا وراءه وأحضروه، وهذا مؤكد ، عندئذ يعتبرونه عدوا أبديا ، ما الذى دفعه إلى الرحيل سرا؟؟

* * *

صمت فتحى ، منذ العشاء لم ألح عليه ، ليال كثيرة مرت فى رحلتنا، بيت الشباب فى سوهاج ، السرير ذو الطابقين ، عربات القطار المعتمة ، نظرات الرجل الشرهة إلى فخذى السائحة النائمة المسافرة قطعا إلى الاقصر ، مشينا ضاحكين على طريق الميكروباس عند قرية البرجاية ، مشينا فوق كوبرى نجع حمادى ، المغيب ينزل هادئا فوق النيل ، إذا قلت إن هذه الليالى كلها متشابهة ، فلست مخطئا ، أما ليلة الأمس فأى شىء يجعلها غير الليالى كلها ، ليست ليلا هل يختلف النهار من بلد إلى آخر ؟؟ ربما ، حتى فى القاهرة النهار عندنا فى كوبرى القبة ، البيوت نظيفة مجلوة، الشارع الممتد كنهر تشقه خضرة خصبة من نفق العباسية حتى روكسى ، مصر الجديدة ، فى ميدان العتبة ، فى اللحظة نفسها طعم النهار يختلف ، التحرير ، الجلاء الكوبرى ، طريق الجزيرة ، نفس الوقت ، لكن النهار غيرالنهار ، ساعات أخرج من البيت ، أعبر نفق المترو ، يتسرب

الصباح إلى رئتى ، تهب نسمة ، نسمة معينة ، أكتشف أنى لم أمر فى المكان أبدا ، لم أعبره قط ، لكن بعد هذا كله يبقى النهار نهارا ، فيه شمس، فيه وهج ، تسطع ذراته ، أما الليل هنا ، الظلام ، عتمة ، أبدا ، يمتلىء الفراغ حولنا بعيون مفقوعة ، عيون كتبة عجائز تغطى رؤوسهم المناديل والطرابيش، ذابت أعمارهم أمام المحاكم ، نساء يلطمن ، خيول تندفع ، تندفع تسقط فى جرف سحيق ، أى ليل ؟؟ تبدو رقة الزويل . يعاملوننا باحترام ، لا .. بحذر، ليلهم حذر مثلهم ، ما الذى يتساقط فى هوائه ؟؟ هل تدرك هذا يا فتحى ؟؟ أى بلادة تحط على يافوخك ؟؟ المفروض أن يطل كل منا على الآخر ، هل تدرك ؟؟ لو طلبت منه أن يبادلنى الحديث لزعق فى وجهى ، لم يعل صوته ولا صوتى ، الطريق كله نضحك ، نتخذ القرارات . بعد رجوعنا قلت ، هل تأملت الرجل صاحب الشعر الأبيض ؟؟ باختصار قال ، لا أعرف ، رحبوا بنا ، بدا شيخهم مغمض العينين ، ليس أعمى ، لا يظهر وجهه لكنى أحسست أنه مغمض العينين ، انحنينا كما نصحنا زيفر أن نفعل ، رجال لهم نفس السمات ، الملامح ، ثمة ما يحيط الواحد منهم تدرك أنه زويلى ، زويلى ، ما وراء الزويلى هذا ؟؟ لا يعرف فتحى لا أعرف أنا ، قبل زيفر يد الرجل الذى يجلس تحت المصطبة التى يعلوها الشيخ الملثم ، قال إننا ضيوفه ، إنه وجدنا فى بيوت الخشب ، يتولى العناية بنا ، يستسمحه فى قضاء مدة الضيافة أحاطنا شيوخ الزويلى ، شعورهم هائشة ، عيونهم حادة ، تلمع أسنانهم ، هل دهنت بالزبدة ؟ سألنا أحدهم عن الطريق ، البعثات الجديدة التى ستأتى إلى المنطقة ، عددها ، هل نحن منها ، طيب إذا كنا لا ننتمى إلى هذه البعثات فما جاء بنا ؟؟ وهل هذا معقول كيف يتنزه شابان فى الجبال ، يعنى ألم يخبرنا أحد بأننا سنلقى الزويل ، ألم تكن عندنا أى فكرة عن وجود الزويل هنا ؟؟ ياه .. ألم نرزويليا واحدا فى الطريق ، فى القطارات ، فى كل المدن ، القرى التى مررنا بها نظروا إلينا بشك ، أقسمنا لهم ، سأل عجوز ، ما الذى يقوله البشارية عن الزويل ؟؟ إذن لم تلتقيا حتى بالعبابدة؟ هل يتردد اسم الزويل كثيرا فى

الحضر ، هل تنوى الحكومة إرسال رجال مسلحين بالبنادق إلى هنا ؟؟ ثم سألنا كهل عن علامات النهاية فى الحضر ، النساء العرايا فى الميادين العامة ، الحديد نطق ، ثم ما الذى يطير فى السماء كل صباح ، قال فتحى. ربما طائرة ، نظرت بطرف عينى إلى شيخهم ، ارتجفت ، مغمض العينين ، لا يرفع النظر عنى مع إن عينيه لا تظهران ، فجأة نطق ، صوته جاف ، قوى، تحار إلى أى سنين العمر ينتمى ؟؟ قال ، لا تبالغوا فى أسئلتكم ربما ظنا أننا لا نعرف شيئا بالمرة عما وراء الجبال ، صمت الرجال ، وضع زيفر يده فوق كتفى ، قمنا ، ارتدينا نعالنا التى خلعناها خارج الخيمة ، أحاط عينى بمنديل ، أيضا فتحى ، امسكت بيد فتحى ، مشينا على صوت زيفر يمين ، شمال ، احذروا حفرة ، نمر فى أماكن الحريم ، يجب ألا نراهن ، حرقتنى الرغبة إلى رؤية البيوت الزويلية ، عضضت شفتى لحظة أن قمت ، نظرة ، لفته ، لمحة ، هذا العجوز صاحب الشعر الأبيض فوق رأسه ، نظرة نافذة تخز كلسعة ، تجسد ما أحسه ، آه لو أعرف ، الطريق ناء ولابد أن يصحبنا زيفر إلى أم الشلاتين .

لمحة فى عقائد الزويل :

لا تعرف بالطبع كل التفاصيل الخاصة بمعتقدات الزويل ، لكن من خلال بعض المعلومات التى تسربت إلى البشارية والعبابدة ، أمكن تكوين فكرة شبه عامة عما يمكن تسميته بـ «الزويلية» إن المصادر المقدسة لديهم ليست مكتوبة أو مخطوطة فى نصوص معروفة ، لقد انتقل هذا التراث المقدس شفاهة عبر الأجيال ، وحاليا تروى على لسان الشيخ صهيج الملثم، وشيوخ العشائر ، من الذين لا تقل أعمارهم عن الطبقة الخامسة (تحسب الأعمار عند الزويل بالطبقة ، فيقسم العمر إلى طبقات ، الواحدة عشرة أعوام ، فيقال مثلا ، هذا فى الطبقة الثالثة أى أنه بين العشرين والثلاثين) ، ولا يخشى الزويل من ضياع التراث لأن الشيخ الملثم ما هو إلا تجسيد ظاهر لروح زويل الكبير ، فروحه تنتقل عبر الأزمان فى أجسام مختلفة قد

يختلف صاحبها لكن الروح واحدة حتى يجيء يوم محدد يظهر فيه زويل الكبير الذى اختفى من حول بعيد لا يعرف مقداره بالضبط ، لكنه لا يقل أبدا عن مائة ألف ألف طبقة ، كان زويل الكبير قد ضاق بما يجرى فى العالم ، وكادت روحه النقية الطاهرة كالندى تختنق فى آثامة وشروره ، تغرق فى بحار ظلامه ، تتوه فى سراديبه ، ارتفع إلى السماء بعد عذابات رائعة وآلام مخيفة ، عانى منها أجيالا طوالا وتوارى فى الغمام ، غمامة بعينها ، (ولهذا ينحنى الزويلى ويقبل الأرض لو رأى الغمام فى السماء ويطرق خاشعا لو سمع الرعد ورأى البرق ، فالرعد صوته ، والبرق سوطه، وقد يتعالى بكاؤه اذ يهطل المطر الرفيع الغزير ، فما هو إلا دموع زويل الكبير ، الذى يبكى لأن الأشياء كما هى لم تتغير منذ أن ارتفع) . راح زويل الكبير يرقب ما يفعله أبناؤه الزويل الذين عرفوا بعد زمن سر اختفائه، فراحوا يعملون ليعيدوا إلى العالم اتساقه ونظامه ونقاءه وصفاءه وفى اللحظة التى يتحقق فيها هذا ، يقوم جند الزويل من كل مكان ، كل من مات منهم على مر السنين يقوم ، يقصدون جبلا كبيرا على هيئة التمساح يقع شمال مدينة أسوان فى جوف الصحراء الشرقية بحوالى أربعين كيلو متر ، يقصدونه فى جموع جرارة تسد عين الشمس وتزحم حلق المغيب، وفى غداة وصولهم يبدو لهم زويل الكبير عند الركن الأيمن للجبل (الذى قيل إنه ارتفع عنه) . يشهر بيده رمحا رأسه مذهب يدفعه إلى شيخ الزويل الظاهر ، الذى يذبح نفسه راضيا ، عندئذ يتولى زويل الكبير القيادة بنفسه، فيذكره الأعزاء وبصيته يزعقون ، أما الأذلاء فيذكرون اسمه بشفاههم ، يهمسون ، حتى الجبال قيل إنها ترتعش يومئذ من شدة الهول، وترتجف ذرات الرمل ، هنا ينبسط سلطانهم على العالم ، يسحقون آخر ما تبقى من شر وإثم وفى كل يوم يصحو الزويلى من نومه ، يولد من جديد ، يتذكر ما سيجرى وما سيكون ويتلو بخشوع مهيب (الحذار) ، الحذار أن يقفو أحدكم لمولانا زويل أثرا ، ولا تكشفوا عنه خبرا ، فقد اختفى لضيقه بشرور العالم ، وآثام البشر ، رأى أن الدنيا تعاسة مستمرة وشقاء متصل

وعذاب مقيم ، نعيمها زائل ، العيش فيها باطل ، نطمع فيها إلى الخير فننال شرا ، نبتغى السعادة فتصيبنا الشقاوة ، نموت ولا تنتهى حسراتنا، الطاهر فيها يلوث ، النقى يهلك ، يسود الجهل المشين ، يكسو الظلام جسم النهار ، أيامنا لهيب وحريق ، يفتح الإنسان ذراعيه للعالم فيدبر عنه ثم يستدير ليلطمه ، يقمعه ، يبطش به ، عندئذ يتحول الصفاء إلى عطن ، الندى يصبح وحلا ، الزهور البريئة نراها عوسجا يدمى ، البكارة عهرا ، والفرح كدراوما أن يجتمع الزويل فى ساحة كبيرة يتلون هذا بصوت عال ترتج منه الصحراء ، يسرى حسهم كالعروق فى الفراغ يدرك البشارى فوق جمله فيترجل ، يسمعه الزبيدى فيصمت ، تقع اللقمة من فمه ، أما الغريب فيقول إنها الأرواح ،بعد تلاوة هذا يتوجهون إلى شيخ الأوان الظاهر ـ صهيج مثلا ـ فينادى أكبر شيوخ العشائر سنا زويل الكبير ، زويل الذى يقهر الشياطين فى السحاب ، يجرى الآمال الصافية الكبار ، يقتحم كهوف الكآبة والاكدار يخرج الأحزان من الأرحام ، يبشر بآمال كالنار تخرج من ألسنة البرق وجوف الغمام ، ويتساءل الشيخ بدمع باكٍ وروح تتعذب وجسد مرعوش ، متى يظهر مولانا زويل الكبير ؟؟ فيقول الشيخ الملثم ، الأوان لم يعد نائيا ، فيتباكى الجمع ويجرى دمعهم ، وقد يشج بعضهم رأسه فوق الأحجار لقد هجر زويل الكبير العالم لأنه لم يطق زيفه وناله الأذى العظيم ، ورأى أن يتطهر قومه من كل خداع ومكر . ولما كانوا هم جزءا من العالم فكل ما يجرى فيه لابد أن يوجد فيهم ، الخداع ، قمع الطهارة ، الخبث ، تلويث النقاء ، لكنهم ، وحتى يظهر زويل الكبير سوف يمارسون كل هذا بوضوح ، فاذا اشتهى الواحد منهم امرأة جاره سعى للحصول عليها مباشرة ، إذا كره الأخ أخاه لم يخفف كرهه ، يعلنه فى كل مكان حتى تحين اللحظة التى يجهز فيها أحدهما على الآخر ، ولو كرهت جماعة منهم شخصاً ما فربما اختطفوه . وقد أباح لهم الشيخ صهيج الملثم سائر البشر المقيمين وراء الجبال فلولاهم لكان زويل الكبير مقيما بينهم ينشر العدل ويملأ الأرض سلاماً ، وبرغم ممارستهم بشاعات

البشر الآخرين بوضوح فهم لا ينسون جوهرهم ، ورسالتهم تخليص الدنيا حتى يظهر الزويل الكبير، ينبثون فى أرجاء الكون طوافون أبدا ، جوالون لايهدأ لهم رقاد ، يلتقون ببعضهم البعض يرجعون إلى مضارب الزويل فى متاهات الصحراء كلهم ، أينما كانوا ينتظرون هذا اليوم البعيد الغائب فى جوف الزمن والذى يطل فيه سيد البرق والغمام .

* * *

آخر الليل وقع قلبى ، فتحى يلكزنى ، صوته غريب ، هل نادى مدة ؟ سألنى هل فهمت لغتهم ؟ ليل كهذا ، استيقاظ مفاجىء لسماع استفسار ولو ضئيلا يثقل بآلاف الأشياء الغامضة ، الكلمات ليست هى ، أهذا وقت تسألنى فيه يا سى فتحى عن لغتهم ؟ . قال أظنها الفرعونية ، قلت تخريف، فى الخارج بدأ صوت بعيد كأن شخصا ينادى آخر فى الفراغ ، استمر الصوت ، أعطى عمقا للسواد ، الليالى وحوش تنوى الأذى ، عيون تقذف شررا ، قال بحدة .. لماذا يتكلمون بلغتهم ونحن معهم ؟؟ قلت ضاحكا ، ربما أرادوا ألا ينشرو اغسيلهم الوسخ أمامنا .

* * *

ربما تدلنا أسماء الزويل على بعض ملامح من ألفاظ لغتهم (يلاحظ أن العبابدة تكلموا فى وقت ما لغة «توريداوى» وهى لغة حاميّة اختفت بعد أن تعلموا العربية . ومن الممكن أن يكون هناك شبه بين الـ «توربداوى» ولغة الزويل الحالية ، ولكن هذا غير مؤكد ، لم يتمكن أحد من معرفة أسرار اللغة لانها غير مكتوبة ، والأسماء المعروفة لنا قليلة جدا ، منها مثلا ، زيفر المذكور ، أيضا الشيخ صهيج ، هناك أيضا ، الدجل ، فازور ، نزه منساف، أتليد شطب ، حراج ، شناد مرزات ، تزاج) .

أصغى فتحي بهدوء . نصحه ألا يكون مندفعا ، قل لها أين تذهبين غدا ، إذا قالت إلى العتبة مثلا . قل والدهشة على وجهك .. لا تنس دهشة حقيقية .. وأنا أيضاً أذهب إلى هناك . هل يمكنني أن أوصلك ؟؟ أبدى ضيقا ، سأطلب منها مقابلتي ، بلا لف شد فتحي شعره ، أنا أعرف البنات أكثر منك ، ضرب المنضدة بيده ، صاح ، ليست مثل البنات ، أنا لا أجيد هذا، لست مندفعا إنما أعبر عن عواطفي كما هي بنفس حجمها ، لن أزيف نفسي . قال فتحي أنت لا تعرفهن .. زعق : هذه عملة نادرة .. لم يصنع منها نموذج ثان .. ضحك فتحي . يا عبيط ..

* * *

قبل أن ينام زار إبراهيم صاحبه ، قابل طلعت ونبيل الذى يعمل فى مصانع أسكو ، أخبر إبراهيم بما نوى ، أما طلعت ونبيل فعلاقته بهما لا تسمح له أن يظهر لهما عواطفه ، سلم عليهما ، أطال الحديث ، تمنى لو دار الكلام ليخبرهما ، تركهما وهو يقول بصوت عال ، لن يعرف إنسان حقيقة ما يجرى فى عقل صاحبه أبداً ، كاد يجرى قافزا الكوبرى الذى يعبر النفق، يحزم روحه بالأمنيات يلقيها تسبح فى الفراغ ، لو يعرف الجميع ما قرره ، حتى بائع السجاير ، يقطر قلبه ماء الورد ، زعقت له نجوى ، إنه الوحيد الذى يرهقها فى البيت ، طالبته بخلع ثيابه ،قفز من مكانه ، قرص ذراعها مداعبا فصاحت غاضبة ..

بعض أنواع الوحوش الموجودة بالمنطقة .

أ ـــ العسبار اللمى ..

له نموذج محنط بمتحف انشاص ، صيد من جهة حلايب . أوصافه : الأذن مدببة مستديرة عند قمتها ، تتشرشر تحت طرفها إلى الوراء ثم تتحدب ولا تلبث أن تتقلص عند قاعدتها ، لونها أبيض يميل إلى صفرة

بالداخل ، الرأس أسود ، أنياب الفم طويلة ، حادة يفصل بين كل منها انفراجة صغيرة ملحوظة ، الفراء من شعر صوفى صلب عليه من الجانبين خطوط سوداء ، يشبه الضبع فى طباعه لكنه أكثر شراسة .

ب ـ جنس الغسوق ..

خفاش بالمنطقة ، بشع لزج المنظر ، رائحته كريهة ، يلتصق بالانسان إذا ما اندفع إليه وأمسك بالوجه ، أذناه كبيرتان متحدتان فى قاعدتيهما فوق الجبهة بغشاء مستعرض منخفض ، العينان دقيقتان رفيعتان جدا ، الذنب طويل يصل إلى نهاية الغشاء الواصل بين الفخذين ، فقراته النهائية عل شكل حرف T .

ج ـ السنور العناق ..

توجد له نماذج محنطة بحدائق الحيوان بالجيزة ، شديد الوحشية ، يشبه نمرا مصغرا ، يميزه جسمه الرشيق وفراؤه المحبوك . لونه العام رملى ،حمر يترصد فريسته لمدة طويلة قد تبلغ ثلاثة أيام ، وبضربة واحدة، ينقض فينهى كل شىء لذا يخشاه الزويل جدا ، خاصةً أنه يهوى أكل الإنسان . وتوجد أنواع أخرى من الحيوانات لم تصلنا عنها معلومات كافية لعدم تمكن الهيئات العلمية من الحصول على نماذج لها ، أما العقارب فكلها سامة . شديدة الفتك .

* * *

ضاع فتحى ، درت بعينىّ ، لو أغمضهما ، أفتحهما ، ألقاه أمامى ، ليس معقولا ، يحدث هذا ، أبدا ، أبداً ، كل شىء معد من قبل ، من دبر

هذا؟؟ مهد لما جرى ، حواسى تدرك ما وراء التلال ، ألقاه ، حجرا رحاية يهرسان كليتى ، أين راح ؟؟ ذهب ؟؟ فتحى ؟؟ ما ظننته يتجسد بشعا مروعا ، يمضغنى . قلبى دم طرى ، فتحى .. درت حول الكوخ ، رأيت حبيبى فوق دكة خشبية بمحطة قطار بنى سويف ، يعبر باب الكلية فى صباح يوم خريفى ، أحسست به يتقلب فى الفراش عندما نمت بجواره ، خروج الهواء من أنفه ، لحظة تقلبه ، فرحة روحه عند اتخاذنا قرار السفر ، يمسكنى من ذراعى لنمشى بعيدا عن سور الأزبكية ، لو وقفت عند الكتب لضاع نهار ، سمعته يغنى ، وقع خطواته فوق سلم بيتنا يوم عيد ، أعبر معه الطريق والأشجار عارية ، الشارع ملىء بدوامات الهواء ، التراب ، وحده ، أسى خفى ينضح من جدران البيوت ، حزن يفرى الضلوع ، ما راح زمن منقض ، حب كره ، ملايين اللحظات ، تدبر ، تضييع ، لم يكن شيئاً من هذا ، أيام فتحى كلها ، أيامى ، أسمعه ، أحسه ، يصرخ فى ميدان التحرير الشتوى وسط المحطة المزدحمة أمام فتاة حلوة جدا باهرة جدا جدا .. يا نساء العالم أضعتمونى يخرب عقولكن ، ضحكت .. ضحكنا . سمعته يقترح أن نذهب لنشاهد فيلم «القطار» يسلم على أختى نجوى وعيناه مسدلتان ، أحسست بقلقه عندما جلسنا ساعتين بالمقهى أمام بيتنا ، ننتظر نزول منتهى ليراها .. فتحى .. فتحى ضاع الزمن الأول، خلل طرأ على شىء كبير لا أعرفه ، سفرنا ، نومنا ، تنفسنا ، يمشى بطريقة معينة ، ترتيب أزلى محكم ، لكن .. شىء مبهم ، غامض ، لا أعرفه ، أعرفه، قلب ، ضيع ، أزال ، عربة نقل داست طفلا ، مسحته ، صرخت ، أغمضت عينى ، أستيكة مسحت خطا من رصاص ، جريت ، احترق باطن قدمى ، عيناى قطعتا صوان ، حتى أولادهم الصغار .. أين هم ؟ الآن .. لحم يحترق .. يسلخ .. زعقت بأقصى ما فى كبدى ومرارتى .. فتحى .. زيفر . فتحى .. زيفر ..

* * *

عادة زويلية ؟،

يصر الزويلى على تقديم مشروب أحمر اللون إلى ضيفه ، يشبه عصير الفراوله ، مذاقه أقرب إلى طعم الرمان الناضج ، عادة يشعر الضيف بهدوء عجيب ، ثم جوع دائم ولا يبخل الزويل بتقديم الطعام . طبعا لا توجد هنا أصناف الطعام التقليدية ، ولا حتى المعروفة فى صعيد مصر الأعلى ، إنما تقدم للضيف أعشاب خضراء مطبوخة باللبن ، كما يقدمون طبقا به سائل أصفر سميك كالغراء غاية فى حلاوة المذاق ، يقولون انه من شجر قريب مقدس ، ويرقب الزويل ضيفه أثناء الطعام بعناية ، ويصر على عدم ترك بقايا فى الطبق مهما كانت الكمية ، وكثيرا ما يطلب الغريب ـ يحدث هذا بخجل أول الامر ـ كميات اخرى . خاصة العصير الذى يجعل الانسان جائعا باستمرار والذى تظهر آثاره بسرعة على حجم الجسم، أيضا وزنه ..

* * *

الميدان يعوم فى عينيها السوسنيتين ، يروح الرجل ويجىء حاملا الصينية المثقلة بأكواب الشاى وفناجين القهوة وعصير الليمون والملاعق الصغيرة وكوب صغير به عيدان النعناع ، ود لو تحدث معه ، عرف حياته ، أولاده ، متاعبه ، يقف الرجل لينتظر .. هات كركديه لو سمحت .. صاح الرجل .. واحد عناب . يرقب مايروح ، يجىء ، يتثاءب ، تدور عربات الترولى ، آه لو يزعق ، يصرخ ، يخرج الكلام من صدره متدفقا ، بقدر ما تمنى أن يبقى وحيدا يسترجع كل ما قالته منتهى ، بقدر ما تمنى أن يلقى فتحى ، سألها ، لك تجارب عاطفية ، ابتسمت ، أطرقت ، أول مرة أخرج فيها مع .. غريب ، استعاد مذاق الجملة ، لا بد أن يعرف فتحى كل ما جرى .. سيرفع السماعة .. يجىء صوته الهادىء جدا .. أيوه . فيصرخ فى عرض الطريق .. لا أصدق نفسى ..

* * *

الليل فى مناطق الزويل

(يقول الرحالة الألمانى فردريك هوفمان ، الذى زار هذه المناطق فى منتصف القرن الماضى ، بحثا عن الزويل غير أنه لم يلقهم فقد رحلوا عند وصوله إلى المناطق التى دله عليها البشارية والعبابدة ، إنه كاد يجن من ليل البلاد ، ولو رموه فى مكان بعيد عن العالم الأرضى كله ، لما لقى ليلا أسود كهذا ، ينزل بشعا ، جامدا كالحديد ، لظلمته لزوجة ، يترك أثرا من سواده على الأجسام ، جدار وهمى أمامك يقول لا يوجد فراغ ، لكنه موح بخلاء قصى وعنيف ، لو صرخت فالصدى مقتول ، ليس ليلا ريفيا فيه خصوبة الزرع ، ولا صحراويا جاف الهواء يستحيل على الغريب التحرك فيه لكن الزويلى ـ كما يقولون ـ يتحرك فيه ببساطة وسهولة كأنه يعرف أسراره) .

* * *

تغوص رأسى فى صدرى . يمس ركبتى . الجنين فى بطن الأم أغلقت باب كوخى ، أسمع وقع أقدام ، صريخ أطفال ، ضحك نساء ، صفير ، فى الصباح طالعنى زيفر حاد الملامح، .. تشكو حريمنا أنك نظرت إليهن .قلت لا ، قال ، حتى تنتهى ضيافتك وتلقى صاحبك ، لا تغادر هذه الدائرة المحيطة بالكوخ . ألقى صاحبى ، كدت أصرخ فيه كاذب، لكنى لم أفعل ، قال لو أردت قضاء حاجتك ازعق بصوت عال أجىء عندك فى أى وقت ، ثم قال فجأة بصوت هادىء .. اعلم أن الزويلية لا تباح إلا لزويلى ، خفت ، نظرت إلى عينيه ، قال ربما نظرت جسم زويلية لكن لو امتدت يدك فلن تلقى روحك، ضيق عينه ، ولو فكرت .. مجرد التفكير فى واحدة من حريمنا .. حاولت أن تعريها فى خيالك .. أثناء نومك فساعرف يا إسماعيل .. عاودنى الخوف فلم أكلمه . أقاوم النوم ، قرصنى جوع ، خطأ يتمادى ، رمى ظله ولم يرتفع ، هذا الوقت تماماً أول أمس ، كان فتحى يتمدد هنا ، ألمسه ،

أدفع عمرى لو أراده الآن ، أعرف أنه يعيش ، يتنفس . لم يعل بخار لحمه فى الهواء ، احتضنت الراديو الترانزستور ، أدرت مفتاحه ، وشيش صغير، كأن جسمى ازداد وزنا ، فزعت . عدت أبحث عن الأصوات البعيدة هيه .. تصفيق بعيد .. سيداتى .. سادتى .. التصفيق يستمر يتخذ إيقاعا منتظما .. صوت امرأة . حاضر .. حاضر كل ما تطلبونه .. حفل ساهر من أين؟؟ ربما ريفولى .. مسرح قصر النيل .. يلهو العالم .. لن يعرف أحد أبدا أين أنا ، أين فتحى .. هيه .. هيه ..

طاخ .. تا أأأت .. عندى مفاجأة .. أغنية جديدة ؟؟

* * *

لا تعنى إذاعات الدول القريبة من الزويل بتوجيه برامج بلغة القبائل المجهولة ، أو موجة قوية من البرامج العادية ، لهذا تسمع جميع الإذاعات بصعوبة بالغة هنا وتبدو أصوات العالم مكتومة ضائعة ، ويلاحظ أن الزويل حتى القبائل الثلاث الأخرى ، لا يمتلكون أى أجهزة استقبال .

* * *

كيف لم أفهم من أول يوم ؟ منذ رؤيتى زيفر فى قرية المنجم ، كل ما مر بنا أسلمنا إلى هنا ، الطريق ، القرى الصغيرة ، الفنادق الفقيرة فى المدن الريفية ، النساء الجميلات فى البنادر ، تذاكر السفر ، شارع سليمان، دق قلبى ، فى هذه اللحظات تخرج دور السينما ، سينما راديو .. بنات لحمهن أبيض .. يرتدين المينى جيب ، كل واحدة أحلى من الأخرى ، ليلة الخميس من الصعب الحصول على تاكسى وقت خروج السينما ، الآن تغلق الأبواب الزجاجية ، ربما تتلفت منتهى حولها ، يتأبط ذراعها ذراعه بينما يزحف الظل على الإعلانات الملونة ، تطفأ الأنوار فى الأدوار العليا للعمارات ، يرفع فتحى اصبعه ، تصور كم رجلاً يشرع فى الحب ..

يجيب: مليونا وأكثر يضحك فتحى ، تصفق أكفنا ،.. مليون .. الآن تمرق آخر عربات الأوتوبيس عبر النفق ، مباني جامعة عين شمس الحمراء آه من البلاط المبلول . النيون . طراوة الزهور في الحدائق العامة ، غناء فتحى بصوت أجش تحت مصابيح الطريق ، تنقبض روحى ما مر وهم، كل هذا لم نعشه ، لم يوجد ، لم يدغدغ حواسنا ، وإلا .. أين هو ؟؟ خلقنا لنجيء عند الزويل ويضيع فتحى ، أنتظر مصيرى ، لا أرى امرأة . شارع ، أرقب جسمى يورم ، يسمن ، كله صور في الذهن خيالات ، لو أبكى ، أنوح كالنساء ، لكنى أثق ، أثق في هذه اللحظة تماما يتثاءب جندى الحراسة قرب النفق ،يضحك صديقان راجعان من نزهة طويلة ..

* * *

في الأيام التى راحت تنقضى وراء بعضها البعض ، بدأ زيفر يجلس مع فتحى أوقاتا عديدة ، ويحكى له بعض ما رآه في حياته ، وما مر به .

ـ قال : إنه عندما أنهى الطبقة الأولى من عمره ، ودخل الطبقة الثانية، أخذه أبوه ورماه وراء الجبال البحرية القريبة ، ثم عاد لينتظر طوال الليل ، أيضا لا ينام الشيخ صهيج الملثم حتى الصباح ، فاما أن يزيد الزويل زويليا جامدا كالصخر ، يعتمد عليه ، واما الضياع إلى الأبد ، نزل ليل الجبال الغريبة على زيفر كالحجارة ، هواؤه حيات تلتف حول الرقبة ، الأرض فيه تبدل غير الأرض ، سماؤه صقيع ، وعليه أن يصارع كل ما يمتد إليه ليسلبه الحياة بأيد فارغة من خنجر أو رمح أو سهم مسموم ، عند الفجر تجيء برودة شديدة تزحم الفراغ ، إنها أنفاس زويل الكبير الذى يبارك زويليا جديدا ، تجاوز اختبار البلوغ ، يروح السواد من السماء، تبدأ رحلة العودة ، وعند الوصول تعلو الزغاريد وقرع الدفوف ، وهذا ما جرى لزيفر قال ان الأمر بالنسبة له تضاعف لأن أباه شيخ

عشيرة، لكن عند بلوغه بدأ الشؤم والنحس ، أبوه أنهى الطبقة السابعة من عمره ، ومنذ حول بعيد يسوس أمور العشيرة ، يرفع كل كبيرة وصغيرة عنها إلى الشيخ صهيج الملثم ، أحترمه ، أحبه الكل ، لكن بعد بلوغ زيفر بدأ الشيخ هوندار يظهر ما في روحه فجأة ، هوندار وقتئذ أصغر من والد زيفر بطبقتين ، أظهر طمعه في المشيخة ، ربما أورث الشيخ صهيج زعامة العشيرة لزيفر ، بعد موت أبيه ، اذن على هوندار أن يعمل ، في عصر يوم بعيد جاء وصاح على والد زيفر ، أنت رجل خرفت ، وما عدت تمشي الأمور ، كثير من الاحداث لا تذكرها لمولانا صهيج ، هكذا كف الناس عن احترام أسرة زيفر فجأة ، راحوا يرقبون الصراع ، منذ هذه اللحظة بدأ الشيخ هوندار يكوع ، أي يجيء في وقت الظهيرة ويمدد جسمه على الأرض ، يسند رأسه إلى كوعه ، ويفكر بصوت عال في مساوىء وأخطاء والد زيفر .. المهم أن الشيخ صهيج الملثم ترك الصراع دائرا فترة كعادته ثم حسمه باعلان هوندار شيخا للعشيرة . قال زيفر : هنا انقلبت أمورهم ، كل من احترمهم صار يسبهم ، لم يرد أبي فهذه شريعة الزويل ، لكن زيفر لم يفهم تماما ، كان يحوش الحجارة عن صدر أبيه ، يدفع عنه الصبية الصغار غير البالغين لو رموه بالشوك وهو يتعثر في الطريق ، حتى عندما قال له ابق يا أبي في الكوخ ولا تطلع لهم ، راحلوا يدخلون عليه ، ينتفون لحيته ، وهو مستسلم لا يقاوم، هكذا الزويل ، كرر زيفر .. كان وقتئذ صغيرا لم يدرك كل شيء ، في مغيب يوم دخلت على أبيه امرأة وضربته ضربا شنيعا ، كانت تجيء دائما لأبيه تفشي له أسرار جاراتها ، بل وتخبره عن الطريقة التي ينام بها كل رجل مع امرأته ، أو فلانة طبخت لزوجها كذا ، أو فلان قال لامرأته أثناء نومها.. افتحي فمك لأبصق فيه .. من اللذة طبعا ، وهكذا ، لم يطق زيفر فشتم المرأة ، عندئذ صاحت عليه أنت ابن حرام ، سحبته ورمته عند قدمي الشيخ هوندار ، حوله جمع من رجال العشيرة ، كلهم يسبون أباه ، حتى أحبابه ، أصحابه السابقون ، بطحه بعضهم أرضا ، تحسسوا جسمه، بعد صمت قال هوندار : اتركوه

لى ، علا صراخ ، عويل ، وصيحات فرح عندما قال خذوا أباه ، وانطلقت النساء يحملن أولادهن إلى أبى . أما الشيخ فقد أدخل زيفر إلى كوخه (قال إنه لن ينسى أبدا منظر أبيه وهم يسحبونه بحبل مربوط إلى عنقه ، وكثير من النساء يضربنه على إليتيه ، كان أبوه سمينا مترهلا) أمسك هوندار بزيفر ، منذ هذه اللحظة عرف بين الزويل كلهم أن زيفر لن يقرب امرأة ابدا ، وأنه يمكن الاعتماد عليه فى حراسة الحريم عند خروجهن إلى الحماد بلا خوف منه ، قال إنه وقف كثيرا عند البركة ينظر إلى بنات الزويل ، فيتضاحكن عليه ويأخذنه ليستحم معهن ، وعندما احتفلوا بدخوله الطبقة الثالثة ، جعله الشيخ صهيج أحد طوافى الزويل ، فى الأماكن القريبة ، يستضيف الأغراب من عالم ما وراء الجبال ، لا يتجاوزها أبدا إلى ما وراءها بعكس الآخرين الذين ربما قضوا أعمارهم يجولون هناك .. قال زيفز إن العالم مليء بالزويل وفى لحظة معينة سيقومون كلهم ليجتثوا الشر ، فما يجرى بين الزويل هو جزء مما يحدث عندكم ، لكننا أصدق منكم مع أرواحنا ، (أصغى إسماعيل خائفا، بينما علا صوت زيفر) الزويل فى العالم كله ، وكل شيء يمضى إلى أوان بعينه .

* * *

يفكر طوال الليل ، كيف يبدو أكثر رقة ؟؟ هل يمسك يدها ؟؟ مجرد أصابعه تلامسها أثناء مشيهما حتى الكازينو ، لا .. ربما تظن سوءا ، يكتفى بالمشى بجوارها ، لا يلمسها لحظة أن يعترضهما زحام ، شبان قادمون ، يمسك يدها ، فكر ، ما الذى يقوله عندما يراها مقبلة ، يمتدح فستانها ؟؟ قديمة ، هل يطرى تألقها ؟؟ يقول لها ازيك ؟ يسلم عليها ، يحتفظ بيدها الرقيقة بين أصابعه دقائق ، يطلق نفسا قويا من فمه ، يتصرف على طبيعته ، يضرب الأرض ، يعلن فرحته ، تماما كما يفعل إذ يلتقى بفتحى بعد انقطاعهما أياما، يقول لها كيف يراها . عيناها كعكتان ، تنضحان سعادة ، صوتها هش ، شيكولاتة تمتزج شيئاً فشيئاً باللبن . بينما يورق الليل حولهما بالرقة . ابتسمت .. قالت .. أهلاً اسماعيل .

* * *

مين يشترى الورد منى

وانا بـ .. وأغنى

صفير ، صفير ، رفيع غليظ ..

* * *

الأغنية التى تلون الصباح ، تبعث أياما بعيدة حلوة لم أعشها ، أيام المدرسة .. حقل قمح أوشك على الحصاد . بهجة السنابل لحظة المغيب ، لم تمر أيام كهذه ، إذ أقوم من نومى أتمنى انقضاء الكابوس ، ألقى فتحى بجوارى ، يزغدنى بإصبعه ، أطلب منه أن يكف ، لم أنم طوال الليل ، درت فى الكوخ ، حركت ساقى بصعوبة ، تسارعت أنفاسى ، حركتى طرأ عليها شىء ، قطعة اللحم بين الأسنان ، حصوة شائكة فى العين ، انتفخ جلدى ، ليس مرضا ، ربما ، لا أعرف ، سمنة ، ورم مفاجىء ، أسفل ظهرى قوة مجهولة أضافت إلى جسمى كتلتى لحم ، عند ركبتى ازداد جلدى تخانة ، ضاقت ثيابى ، علىّ ، كذا فتحة الكوخ ، لم أر وجهى ، ليس معى مرآة لكنى أشعر بضياع ملامحى فى اللحم .

غرزت أصابع يدى فى ردفى اسهال يدركنى ، شعور ما قبل الدخول فى مجهول ، اضطراب النفس ، شلل العصب، انثيال الذكرى ، الزمن ، بلعت ريقى ، فى أى الأيام أنا ؟؟

وصلنا الأحد .. مضت .. ليلة .. ليلتان .. أربع ... خمس .. حفرت فى التراب خمسة خطوط حتى لا تهرب الأيام ، انحنيت ، كدت أتجاوز الباب ، زيفر أمامى ، يهم بالدخول ، ربما لم يغادر مكانه طوال الليل ، قلبى يعلو ، ينزل ، قطار ثبت اندفاعه على سرعة واحدة ، عجلاته ترمى نغما لا يتغير ، صحت :

فتحى لم يظهر له أثر .. وجهه هادىء ، بطن سمكة مفلطحة . صوت تسلخ ، خيط نحيل ينسل ، يرفع ، يتلاشى .. عاد الأولاد يقفون أمامى أصغرهم يقترب منى ، يلمسنى ، دفعته بعيدا بلوم ، نظر زيفى ، إلىّ ، قلت اخرج ابحث عنه ، صوته ماء هادىء ، حركاته بطيئة ،قلت لا بد أن أمشى.. لن أبقى يوماً واحداً مهما بلغت مدة الضيافة ، انقبض قلبى ، استدرت واهتزت زوائد اللحم عند أطرافى ، أخدع روحى ، لن أرى فتحى أبدا ، نثر الرمل بطرف عصاه ، فوجئت بعينى زيفر، نظرة من عينيه اخترقت جسمى، مجرد نظرة ، يقدر وزنى ، تغوص دائرتا عينيه السوداوين فى لحمى ، من الذى نظر إلى نفس النظرة من قبل . ؟؟

عجوز يقف عند محطة الأوتوبيس فى بولاق ، رأيت زيفر فى القاهرة ، زويل آخرين ، منذ أن تكلم معى ولا يتحدث كثيرا ، قال .. ابق هنا وسأرجع، راح أبوك ضحية الزويل ، أيامك عذاب متصل ، مبطنة بشوك يؤلم .. لا تقرب امرأة ، فتحى يضيع ، أفيق أنا أطلع فوق الربوة ، أصرخ منادياً زويل الكبير أن ينزل من بين الغمام ، يكف قومه عما يفعلون ، يعيدون إلىّ فتحى .

تطلع الشمس مهرولة فى السماء ، وجدت هكذا منذ ألف مليون عام ، لم تعرف الغروب . السماء خالية من الغمام .

أين زويل الكبير إذن ؟؟

سمعت الضرب المنتظم الآتى من وراء التلال ، عشرات الأيدى ترتفع بعصى غليظة تهوى بها على شىء ما فوق الأرض ، لو أخطو، أعبر التلال ، أرقب تفاصيل الحياة الزويلية ، خفت ، أغمضت عينى خطأ وقع ، ما الذى فعله فتحى لهم ؟؟

لحظات أرى زيفر وكأنى أعرفه من سنين ، أيضاً الزويل ، واقع عشته من قبل ، أسمع صياحهم المهيب لحظة الغروب ، ليخفق قلبى ، ترجف

روحى بأحاسيس شتى ، أدعو معهم زويل أن ينقذنى ، هو لا يرضى الشر أبداً ، لا أطلب إلا أن يدعونا نمضى .. السودان .. ها .. لن أرى قنا حتى ، أدرت الراديو ، تطلع الشمس فتختنق أصوات العالم . فى لحظة معينة تجف البطاريات ، فلا أسمع حتى همسة .

* * *

إنه الضحى .. فجأة يختفى الأولاد ، ترقبنى عيون خافتة ، لا أفارق مكانى كما أمرنى زيفر ، ينزل ستار من الصمت على المنطقة ، جبل آخر غير مرئى ، يبدأ الأزيز خافتاً ، وهم يتزايد ، الصوت دوائر ، دوائر ، تعلو من أسفل ، تنزل من أعلى ، يبدو جسم الطائرة صغيرا مجنحاً ، لا يتحرك، بعد مداومة النظر يتغير موضعه ، كلما ابتعدت عن الجسم المتحرك ، تقل سرعته ، عند شاطىء الاسكندرية نظرنا مركباً أبيض اللون ، يبدو ثابتاً عند الأفق ، رحنا نتراهن على نوعية المركب ، قال فتحى .. إنها حربية .. أكدت أنها ركاب ، قال إنها تمشى ، قلت لا تمشى ، وبعد دقائق ننظر الأفق ، ناصع الزرقة ، يتنهد البحر كعذراء متشوقة ، اختفت المركب ، خفق قلبى ، ابتلت روحى ، ريش حمامة أغرقوها ماء ، لوحت بيدى ، زعقت بأعلى حسى ، يطير الجسم بسرعة ألف كيلو متر ، ويتمدد الركاب . ينظرون من النوافذ المستديرة ، يلمحوننى ، يرقبوننى ، يعرفون إسماعيل ، ينتزعنى الرخ، لن يدركنى زويلى ولا فى منام ، لا أشرب العصير الأحمر ، الجوع الدائم ، أغمض عينى ، يتحسس زيفر لحمى ، يتشوه جسمى ، تضيع ملامحى ، أبدا ، أبدا ، لن يرونى ، تبدو لهم الأرض من أعلى سهلة منبسطة ، خالية من الزويل ، صفحة فى أطلس ، أكاد ألمح رأس القائد ، أى علامة على الذيل ؟؟ إلى أى دولة تنتمى ؟؟

تصفع أشعة الشمس عينى ، تبهت الألوان ، لو يبقى جسم الطائرة محلقاً أبداً ، أبداً ، تمضى ، تندفع ، نقطة ، لا عائق ، النبات ، الحجارة ،

الصوان ، مغارات الجبل ، عقارب الخلاء ، وقف شعر رأسى ، أى صمت يهدر فى الخلاء فى صدرى ، ضاع فتحى ، ضاع الأمان ، إنسان ، كيان أحلام ، الأمانى والذكريات ، آلاف اللحظات من الضيق ، الفرح ، قرارات سفر ، كله يتركز ملخصاً فى نفايات الزويل ، تلفظ فوق الرمال ، لا شك ، لا جدال ، ضاع فتحى اليوم ، غداً أروح أنا ، أنا ، ضربت الأرض ، أفقأ عينى ، أطحن الرمال تحت ضروسى ، يتآكل قلبى ، يهريه البوتاس ، مغنسيوم يشع لا ينطفىء أبداً ، يحرق ، يأكل قلبى ، يذيب مثانتى ، آه لو أرى منتهى لو تبدو أمامى ، وهم حتى ، طيف ، منتهى الآن وهم ، قبل سفرى وهم ، منتهى لم توجد أبداً ، المسافر على حافة الفناء يلمح الماء فى أقصى الصحراء ، وهم كيف يمشى العالم ؟؟

النخاع فى مجرى عظامى مر ، هجرنى الطائر المجنح ، مات الرخ ، أقبل الأرض ، أناجى الأولياء ، زويل الكبير أناديه ، أتضرع إلى الحسين سيد الشهداء ، خلاصة روحى ودنياى ، يحز رأسى فى كربلاء ، يسفك دمى تشربه الصحراء ، يعلق رأسى فوق البيارق ، تنثر أطرافى فى أركان الأرض ، ليس لى من يجمعها ؟؟ أتوسل لأبى ؟؟ أقبل يد أمى ، أزعق فى وجه الخلق ، هند بنت عتبة تترصد حمزة بن عبد المطلب ، تأكل كبدى ، رموك يا حبيبى ، يا حاضرى ، يا منتهاى ، تحت أسوار الطائف بالحجارة، عذبت فى الهجير ، آه تشج رأسى ، يدمى الشوك قدمى ، تأكل حرارة الصخر قلبى ، أصرخ فيسكت العالم ، ينهد العالم ، ما الذى فاهت به شفتاها ؟؟ قالته آخر مرة ؟؟ أربع عشرة مرة نلتقى ، ما الذى يغير الأشياء، يبدل الجوهر ، الجميلة تمسى عجوزاً ، الجد هزلاً ، الظلام مرآة ، النهار بحر حزن كالقار ، البغض عشق ، يلون الكلمات ، يجفف النظرات ، يبقر القلوب ، ما الذى قالته ، ربما تضحك الآن ؟؟ تمر بلحظة سعادة ، تشرب كوب ماء ، لا أخطر فى ذهنها صورة حتى ، من أين جاء زيفرمن دفع به الينا ؟؟

يترصدنا الزويل منذ الصغر ، سائق النقل ، أهو منهم ؟؟
هل فتحى منهم .
أنفاس السنين ، اختنقت روح العمر ، ذبحت منتهى ، أروح أنا ، أضيع أنا ، اختفت الطائرة ، وبقى صدى الصوت ، حمض الكبريتيك يأكل روحى لو أرى منتهى وأتلاشى ، البحر ، يقتل العالم أحلى وأرق ما فيه . ألحق حبيبى ، صاحبى ، شقيق عمرى ، عالم تحت العالم يتقرر فيه ما ألقاه ، أسلم النفس لزيفر ، آه من موج البحر ، انتابنى العطش ، اندفق السواد القاسى يغمر قلبى ، ما حولى ، وزعقت بأعلى صوتى .. زيفر ، زيفر .

* * *

لمحة من الحياة الزويلية ..

فى وقت بعيد من التاريخ الزويلى كانت النساء يتمتعن بسلطات كبيرة ، وقيل إن الابن كان ينسب لأمه ، لكن مكانة النساء انحطت شيئاً فشيئاً على مر الزمن ، حتى أصبحت المرأة الآن برغم كل ما يغلف هذا .. مجرد مطفأ لشهوة الرجل ، ومنجبة أطفال ، وبرغم هذا ، فهن يقمن بكثير من الأعمال الشاقة ، فى صباح كل يوم يخرج عدد كبير من الزويليات يحملن فوق رؤوسهن أكواماً من نسيج يشبه الخيش الكهنة يقمن بفرده على جوانب التلال الحجرية ، يرششنه بالماء ، ثم يضربن النسيج وقتاً طويلاً حتى يتحلل ويتحول إلى شعيرات طويلة وقصرة يقمن بجمعها ، تعود كل منهن بكتلة شعر هائشة ، فى العصر يقعدن أمام بيوتهن ، يغزلن الشعيرات ، يحولنها إلى خيوط رفيعة ، ينسجن منها هذا القماش الزويلى المتين ، ويرتدونه رجالاً ونساء ، ولا يخلع الثوب إلا إذا تمزق وتهرأ ، وأصبح من المستحيل البقاء به ، وقبل المغيب تخرج الزويليات ، يجمعن بعض النباتات المنتشرة حولهن ، يصطدن الفئران الصحراوية الضخمة التى يزن الواحد منها رطلاً ويشبه الأرنب .

قيل إنهن يصطدن الحيّات الضخمة غير السامة التى تقتل فريستها بالالتفاف حولها واعتصارها ، يصنعن من جلودها أحذية للطوافين الزويل، يتمكنون بها من اجتياز الصحراء التى تفصلهم عن العمار البعيد ، والحب عند الزويل محدد ، واضح ، وصريح ، إذ يتجاوز الزويلى مرحلة البلوغ ، ويباركه زويل الكبير وراء الجبال ، يبحث له أهله عن عروس ، غالباً من أقاربه ، بعد الزواج ينتظر أهل الزوج أن تحمل امرأته ، وفى كل يوم يميل الأب على ابنه يستفسر منه ، هل ظهرت علامات الحمل ؟؟ ويكون أهل الزوجة أكثر قلقاً ، وإذ تظهر علامات الحمل تعم البهجة ، ويمشى الرجل مزهواً ، أما إذا لم يحدث ، فيعقد والد الزوج والزوجة اجتماعاً ، يبحثان فيه ، أين العيب إذن ؟؟ لو ظهر فى الزوجة قضى عليها أن تعيش طوال عمرها وحيدة ، منبوذة ، مهما بلغ جمالها ، وسرعان ما تزحف السنين على وجهها ، يضمر نهداها من بعد امتلائهما باللبن ، ينبت لها شارب ، وتعامل على أنها عجوز مخرفة .. مع أنها لم تتجاوز سن الشباب.

* * *

عن الطريق يفصلهما زجاج .. سحابة بطيئة فوق الميدان ترسل رياحا باردة ، يسرع المارة ، لذة أن يرقب الناس من وراء زجاج ، لو ينزل المطر ، صرت عجلات المترو عند المنحنى الحاد .

عاد ينظر إليها ، أصابعها متشابكة فوق سطح الفورمايكا ، تهوى شرب المثلجات فى الشتاء ، عاد بعينيه إلى الميدان .

لو فتحى معه الآن ، بسرعة عبر الطريق مجموعة من الجنود ، توقفوا قرب محطة المترو ، برز من شارع جانبى بعيد عن نطاق رؤيته لورى ضخم بثمانى عجلات .

قالت انها ترغب فى مصارحته ، ضاعت نظراته فى عينيها ، يذاكر طوال السنين ، يمتحنونه ، يتردد على الكلية كل يوم ، لحظة إعلان النتيجة

لا يشعر بأى شيء ، فرحة ، حزن ، يجف قلبه كصحراء ، إذ تمر اللحظة يسترجع كل ما مر به ، ما فاته بتأن ، على مهل . قالت عيناه : كيف ؟ أدارت الكأس بين راحتيها .

قالت إنها رأته مندفعاً فلم تشأ أن تصدمه .

نظر إليها بإحساس الصائم فى منتصف نهار صيفى ، أطل على باب الحديد .

ضحك بصوت عال أول مرة جاء معها وأعلن أن لقاءات الشتاء كلها ستتم هنا ، أول مرة شربا عصير برتقال ، كلمته منتهى عن أبيها ، حبها له، عن أختها الكبيرة ، ردها عليه صامت ، إغماضة من عينيها فقط .

قالت إنها ليست نادمة لأنها عرفته فهو إنسان طيب ، رفع عينيه ركز نظراته على وردة حمراء صغيرة لها فرع أخضر من البلاستيك تتوسطها نقطة لامعة من زجاج . قالت إنها تتمنى لو ظلا .. أصدقاء .. سألها بلهجة مستطيلة مسطحة كلوح الثلج ، هل تعرفين فؤاد من مدة ؟ . عيناها تسرحان ، سبع سنوات ، فكر ، لابد أنها تتخيله الآن ، تتذكر مواقف معينة بينها وبينه ، تحرك فى نفسه فضول ، يسأل عن شكله ، سنه ، طوله ، هل هو وسيم ؟؟ هل استقبلته فى المطار عندما وصل من غيبته ، ربما يلتقى به مصادفة يوما ما ؟؟ يركب بجواره الأوتوبيس حتى منتهى وهم ، ولم يعرفها، تساءل .. أين يروح ما انقضى ؟؟

فجأة قامت ، وجهها أكثر رقة ، أحلى ، عيناها أوسع وأعمق تحيطهما هالة جمال خفى .. تقف ، لو أطلب منها البقاء دقيقة فلن تقبل .. ياللمصيبة، إنه يحبها فعلاً ، لم يدرك هذا من قبل كهذه اللحظة ، قالت .. أستأذنك ، أغلقت حقيبتها الصغيرة ، أسند ذقنه إلى راحتى يديه ، أستأذنك ، كلمة واحدة ، موجز انباء ، لم تبق دقيقة ، ثانية ، لم يلتفت وراءه، فيم الاستئذان؟؟

كلمة واحدة قالتها ، مقص البائع يقطع عرض القماش بضربة . مطواه تفتح فجأة لتبتر الإصبع ، كلمة واحدة تقولها منذ مجيئها ، كيف يروى ما جرى لفتحى ، أى الكلمات؟؟

بدا تمثال رمسيس فى قلب الميدان علامة استفهام غامضة ، لن يراها أبدا ، هكذا خمن .. أستأذنك ؟؟ مترو يندفع فى نفق يهرس طفلا .. يمحوه.

* * *

قال زيفر، ان عدداً من أشداء الزويل خرجوا إلى النواحى المحيطة ، يجيدون اقتفاء الأثر يشمون رائحة الإنسان على بعد مقداره ربع نهار ، اقشعر جلدى ، اقترب منى ، قعد ، أمسك ذراعى ، مشت أصابعه فوق جسمى ، لا يخزنى لمسها لتخانة جلدى .

ضاقت ثيابى فخلعت القميص وأحطت به نصفى الأسفل انتفخ صدرى إلى أعلى ، لحم ، شحم ، خلايا دهن ، جوع لا يفارقنى يعلو اللحم حول عينى حتى يحجب نظرى .

قال زيفر . إنهم ربما رحلوا إلى الجنوب ، هكذا أعلن الشيخ صهيج الملثم . صوته يصل إلىّ بطيئاً ، قلت لماذا هو ملثم ، قال لأنه شيخ الزمان ، قال زيفر ، بعد موت أبى ، وإذلال الشيخ هوندار لنا ، طاف بذهنى خاطر وألح علىّ ، رؤية الشيخ ، أقصد وجهه ، لكنى سمعت حكاية قديمة تروى عن شاب زويلى عاش منذ أربع طبقات ، أعلن عن رغبة كهذه ، جهر بها ليالى القمر ، حذره الشيخ صهيج ، فأصر، عندئذ جاء شيوخ العشائر كلهم، أدار الشيخ صهيج ظهره للجميع بحيث يصبح وجهه للشاب ، ورأى الجالسون طرف اللثام يزاح فقط ، يقال إن جسم الشاب تصلب فى الهواء وثبتت عيناه على الشيخ صهيج ، أقول ثبت مكانه ، وعندما أدار وجهه كان اللثام قد عاد كما هو ، دفعوا جسم الشاب المتصلب ، وجدوه ميتاً ، زعق الزويل ، هللوا ، ومنذ اللحظة لم يقدر واحد على التفكير فى رؤية وجهه ،

قلت أنا جائع يا زيفر ، يهرش شعره بقطعة خشب ، ينزل العصر خالياً كئيباً . ربما قرصتنى بعوضة ، أصابتنى بهذه السمنة . الدهشة فى عينيه. يتحسسنى ، لا أقاومه ، ينفخ خلف أذنى ، لا يقشعر جسمى . لا أمشى ، يتسلخ بين وركى .

* * *

سماء يناير فوق العمارات الهواء البارد ، الشتاء فى الميدان ، فجأة رأى والده ، قادما من الناحية الأخرى ، تراجع حتى وقف تحت مظلة محل لبيع الزهور ، أبوه يعبر الطريق ، يراه أول مرة .. يلحظ مشيته البطيئة . نحول جسمه ، الشيوخة تنقض حجم الجسم ، حاول أن يخمن ، إلى أين يذهب الآن ؟؟

خرج مبكراً من الوزارة ، كأنه لمح فى مشيه ألمه الذى بدا عليه من أيام، لا يخفى أبداً ما يمر به ، يحكيه لأمه ، من حجرته أصغى ، جاء شاب فى عمر إسماعيل ، مهندس ، اختلفت الادارة على بعض التفاصيل حول تركيب ماكينات الصباغة بوحدة أخميم ، احمر وجه أبيه ، قال إنه يعمل فى هذا منذ أربعين عاماً ، يحفظ الوحدة ، تفاصيل المبنى ، ببساطة قال الشاب، الدنيا تغيرت ، الماكينات التى تعرفها تغيرت ، قال المدير .. هاشم خريج هندسة يا أحمد أفندى وعنده امتياز ، لم يتكلم ، لم يناقش ، هل يعرف الواقفون أن الماشى هناك والده ، انتابه حنين جارف ، يندفع يفسح ممراً بين الزحام ، يعانقه ، يعبر له عن حبه ، قال والليل يرتعش : كنت سأقول لهما إنى فى الهندسة ، لكن ما فائدة هذا عندهم ؟؟ لم يشعر نحوه بحب مثلما يشعر الآن ، أدرك أنه يعيش بعيدا عنه برغم قربه الشديد من البيت ، ثبت مكانه . رن جرس الترام ، مشت امرأة تدفع عربة صغيرة ، يرقد فيها طفل بلحاف أبيض ، رن جرس تليفون فى متجر قريب ، عاد ينظر ، أين راح ، اختفى ، دار بعينيه ، لسبب ما أضاءت لمبة حمراء فى عز النهار ، وكاد يبكى بصوت عال .

* * *

سحبنى زيفر ، نزلنا منحدراً ، يترجرج لحمى ، تسندنى يده إذ أوشك على السقوط ، أخبرنى أنه مشى حتى السودان ، يلف المنطقة عدة مرات فى الأسبوع الواحد .

يستضيف الأغراب أمثالى ، هذا أهون من حماية حريم شيوخ العشائر أثناء قضائهن حاجتهن ، أخبرنى أنه دخل القصير ، توقفت ، يخشخش الهواء فى صدرى ، قال لم يبق الكثير ، عند منخفض أشار ، لم ينقبض قلبى ، لم أغمض عينى ، تواردت على ذهنى صور بعيدة ، ألبوم يقلب بسرعة ، كوبرى الجلاء يلفه الشتاء ، عناوين الصحف المغبشة فى الصباح، العربات المليئة ، إلى الجامعة ، تحركت فى قاع روحى آثار نشوة قديمة لمصادفة رأيت فيها منتهى ، ضمت شفتيها محذرة : لا تزعق الناس حولنا ، أن يلقى الإنسان صاحبه أو صاحبته مصادفة فى مدينة الملايين ، الزحام ، درت متمهلا ، يتمدد الهيكل رمادياً جافاً ، الرسغان مرفوعان إلى أعلى ، يحوشان وهماً لا نراه ، تنثنى الساق أسفل الجسم ، لكن الطول ، الثياب ، لمس زيفر الثوب الطويل ، رفعه ، شخص تقيأ فى فمى ، عنكبوت صغير جداً نسج بين فراغ الساقين ، لم تنبعث أية رائحة ، نظرات زيفر تغرقنى ، قال .. نحن أيضاً فى حيرة ، لم ينقص زويلى واحد ، إذا لم يكن صاحبك فمن هو ! برغم ضياع الملامح ، انسلاخ اللحم عن العظم ، لو فتحى لعرفته ، فتحى أقصر .

إلى هنا أيها السادة ننهى برامج ..

نستأنف ..

لا يخرج جده من البيت ، يقوم مبكراً ، يشرب الشاى ، يرتدى ثيابه كاملة ، رباط العنق ، يقطع المسافة من حجرة نومه حتى الشرفة متوكئاً على عصاه ، يجلس حتى الثانية ظهراً ، بعد الغداء يروح ، يجىء ، ربما كَسر كوباً زجاجياً فجأة ، يتلفت حوله مذعوراً يعتذر .. فى المساء يبدو حائراً ، ترتجف دائرتا عينيه ، بهت السواد فيهما ، يفتح الثلاجة ، يأخذ زجاجات الماء الممتلئة ، يدخل المطبخ ، يفرغها ، يملؤها من جديد ، أمه لا تخفى ضيقها ، نظرة فى عينيها لم تغب عن أبيها العجوز ، راح يكرر ، آسف ، يرص قوالب السكر ، يرقب التليفزيون مغمض العينين ، يقوم

متجولاً فى البيت ، يطل عليه ، إذ تمر أمه يقول بسرعة .. سأنام . سأنام يا ابنتى ، يقف مدة بالباب .. لا يتحرك .. يقول .. تفضل يا جدى .. فلا يرد..

* * *

ضاعت ملامح أبى ، وجه أمى ، نجوى ، أنظرهم من خلال ضباب يوم شتوى ، من عينين تدفقان دمعاً ، أبى يصلى الجمعة ، الجامع مزدحم ، يسلم بعد الصلاة على الجالس بجواره ، يقول : والله المصائب تنزل من حيث لا ندرى ، فيتساءل جاره ، كيف .. ولدى سافر من أسبوعين ولا أعرف عنه شيئاً أبداً ، يسأل الجار . هل معه أحد ، يرد أبى ، أحد أصحابه ، يتدخل ثالث ، يعلن أن الصاحب لا يفسده إلا الصاحب ، يطلب من أبى قراءة الفاتحة ليهدى أبناءنا فهو أيضاً له .... ينصرفون ، لا أذكر حتى وجوه أهل مدينتى ، أتخيلها ، مليئة بالزويل ، ينبثون فيها ، يطلون من نوافذها ، ينشرون الغسيل فى الشرفات ، يقفزون من الأتوبيسات ، يتأملون قوائم الطعام فى المطاعم ، يرشون الطرقات بالمياه ، حاولت استرجاع صوت أبى ، طعمه ، عضضت لحمى ، حنين لدغنى ، حركت جسمى المنتفخ.. آه لو أرى منتهى .. امتلأ حلقى بجراشيف السمك ، لو أسمع وشيش البحر ، صوت منتهى ، أراها من بعيد ، تمشى أمام الفتارين، شوارع الإسكندرية المنحدرة ناحية البحر ، تمنيت العيش فيها مع منتهى أراها ولو معه ، يتأبط ذراعها ذراعه .

* * *

صباح جمعة ، الثامنة صباحاً ، رائحة الإجازة فى الهواء ، تخف روحه ، يمشى فى الطريق الهادىء حتى روكسى ، المحلات أنيقة ، حتى البنات لا يوجدن بهذا الجمال إلا هنا ، آخر جمعة ، بعد آخر مرة رأى منتهى ، قالت له ببساطة تخفى كل ما بينهما .. أستأذنك .. توقف عند محطة المترو . تمتد حدائق الميريلاند ، فجأة تجمع ما قالته، ما عاناه طوال أيام ، يتكثف إحساس بشع بالأسى ، خيل له أنها تحبه ، تذكر تفاصيل

صغيرة ، نظراتها إليه ، عباراتها الموحية ، لكنه أدرك الآن أنها لم تقل له أحبك ، صراحة ، قال فتحى إنه السبب ، هل يندفع شاب فى زماننا هذا إلى فتاة يحبها مثل هذا الاندفاع ، لو عالج الأمر بحكمة لأقبلت عليه ، لكنه فرش عواطفه ، صلب روحه فوق لوح رخامى ، دق المترو جرساً قصيراً ، هب هواء نقى بارد محمل بحزن رقيق حاد كسن الموسى ، عض شفته ، يرقب بعينيه شاباً يماثله عمراً ، يهمس بحديث خفى إلى فتاة بيضاء أنيقة.. تبدو كأنها تذوب ولها فيه ..

رأى الرجل ، ينظر حوله ، محنى الظهر كأحدب ، تهاوى قاعداً فوق رصيف الميدان ، حمال يرمى جوالاً ثقيلاً من الدقيق ، نظر إليه بعض المارة، قال أحدهم بصوت عال .. سرقوا منه أربعمائة جنيه .. أصابعه تتشابك فوق صلعته ، ذيل جلبابه بين أسنانه ، لا يفارقه ، تنفسه عال ، سريع ، اقترب إسماعيل منه ، تقطر جبهته عرقاً ، قال .. اذهب ياعم إلى النقطة .. أمامك هناك .. هبّ الرجل كالملسوع ، ردد .. نعم .. نعم إلى النقطة . اتجه حيث تشير يد إسماعيل ، نفس انحناءة الظهر التى فاجأته صاح شاب من الواقفين ، يا عم انتظر ، فتش نفسك أولا . ردد الرجل ... آه بالضبط أفتش نفسى أولاً ، انقبض إسماعيل ، تراجع خطوتين ، ضحك شاب ، الرجل يصدق كل ما يقال ، زعق آخر ، من يدرى ضاع منه المبلغ أم لا ؟؟ اذهب إلى النقطة . آه .. النقطة . ياعم اقعد . آه لازم أقعد .. شمال ياعم . شمال، يروح ، يجىء . يضحك الواقفون ، والله مجنون .. آه مجنون ، فجأة يزعق الرجل . والله ما هى فلوسى ياناس .. تهمس عجوز حرام ياخلق . تراجع إسماعيل فوق الرصيف ازداد المارة حول الرجل .. قبضت يد خشنة أمعاءه .

* * *

كرر زيفر، أنه لم ير ضيفاً سمن بهذه السرعة ، سحبنى من يدى أمشى متباعد الساقين يترجرج لحمى يتدلى كزوائد ، قال إنه سيصحبنى إلى كوخ عجوز لتعرف حقيقة حالى ، قلت هل أعصب عينى ؟ قال لا ، اليوم سمح لك الشيخ صهيج بالتجوال بين خيامنا كما ترغب ، النساء يقفن، يحملن أطفالهن الصغار أمام الخيام ، بعضهن اقترين منى ، تحسسن ظهرى ، ضربنى صبى صغير على فخذى ، حرقتنى عيناى ، النساء يبتسمن، لون وجههن غريب ، لست غريباً عنهن ، ما المانع فى أن أكون واحداً منكم زويلى ، فلا أضيع، لا أختلف عنكم ، لا تختلفون كأنى لم أغادر مدينتى ، شوارعها ، تزدحم عند الأمسيات بالزويل ، العيون نفس العيون ، شعر الرأس ، ما يفكرون فيه ، يأكلونه ، آه لو أزيح حاجز الرمل بينى وبينكم ، سمح الشيخ الملثم بالتجوال ، لا أعرف كم من الزمن أمارس هذا ؟؟ دخل خيمة ، ضوؤها فى لون الرماد ، جلست ، اقتربت منى عجوز ، شعرها ليفة قديمة ، قلبى نبقة مطعونة حزناً ، لو يرق قلبها ، لو يأمر الشيخ صهيج بمعالجتى ، إرسالى إلى العمار ، زيفر ، جاءت نساء أخريات ، أحطن لحمى ، لمعت أسنانهن فى عتمة الرماد ، زعق زيفر باللغة الغريبة ، فى القناطر الخيرية مجرى مائى ، يتقدمنى فتحى ، بقفزة واحدة يعبره ، أتأخر ثوانى ، غير أنى لا بد أقفز ، الدور عليك يا إسماعيل آه لو أسمع بوق عربة مفاجئا ، يندفع رجال الهجّانة ، يبرق النهار ، يضوى ، تحدثن طويلاً ، يبدو الرضا عليهن ، وجه فتحى قبل ضياعه بليلة ، داخل الكوخ ، قلت والليل فوقنا ، لو معنا .. قام فجأة ، قال اسكت أنت هكذا كالأبله ، أحسست به يطرق فى الظلام ، قال لو تصرفت كأى واحد لنلت منها ما تريد ، لم أعرف، أيسخر ؟ أهو جاد ، لو أنك أخذتها فى بيت أحد أصحابنا العزاب.. لو لم أكلمه ، لم أوقفه ، قال : لم أشأ أن أصدمك هناك. ما الذى يقصده ، عنده ما سيقوله : غير أنه كف فجأة .. قال : إنها لا تستحق . أنت خائب يا إسماعيل فى فهمك للناس . عض شفتيه ، لم أطلب منه تفاصيل ، ربما سألت ، عرفت . لم أطلب تفاصيل ، ربما أخبرنى بما

يجعل الأشياء تتهاوى، تنهار قلت : لن نفتح الموضوع أبداً . استعدت الموقف كاملاً .. ما الذى يقصده . زعق زيفر .. فتح باب الخيمة . أزاح جانباً كاملاً من جوانبها . عيون ضيقة حادة تطل من فوق بعضها البعض، أطفال ، رجال، دخان يملأ الهواء ، لمحت قشاً أحمر اللون يتطاير فى الفراغ ، امرأة تمسك سعف النخيل الأخضر . بنات صغيرات شبه عرايا ينفخن فى قواقع صغيرة . منذ وصولى لم تراودنى رغبة فى امرأة ، أغرق جسمى عرق له بخار ، ارتعشت أطرافى ، زعق زيفر للمرة الثالثة ، الألفاظ لا أفهمها ، تراجعن خطوات ، أحاطتنى العجائز ، خلعن ثيابى ، تحجرت عيناى ، ثبتتا فوق دائرة صغيرة خضراء ، وشم يتوسط ذقن بنت زويلية خارج الكوخ تنظر إلىّ ، لا تشيل عينها من علىّ ، أرعشت الذكرى روحى . أين فتحى ما الذى يقصده ؟ قلبى ينزف دمعاً ، لو أرى البحر .. منتهى .. أسمع صوتها. كلمة واحدة .. أستأذنك .

(٢)

مضبوطات الدكتور جعفر البيبانى

مقدمة

ألف وسبعمائة وثمانية وتسعين بالتاريخ الإفرنجى

التاسع من مايو

فى هذا الزمن البعيد ، بدأ طوافو الزويل يرصدون مجيء جعفر البيبانى ، بدأوا بتتبع جده السادس تاجر العطور الواردة من أركان الدنيا الأربعة ، الرجل الطيب ، التقى ، إذا مامضى إلى الصلاة لا يغلق دكانه أبداً ، يتركه فى رعاية جاره ، يمضى إليه سكان الحى ، عنده يحلّون منازعاتهم ، يصلح الغاضبة على زوجها ، يعيد الابن الضال إلى أبيه ،

وعندما جاءه ملاك الموت لم يعلم أن كل شهيق ، زفير ، عد عليه ، خطوات قدميه فوق البلاط المضلع ، ركوعه سجوده ، المرات التى لامست أصابعه حبات مسبحته ، والجد السادس لجعفر البيبانى أول من وضع تحت أعين طوافى الزويل بعد أن تجمعت أدلة قوية وشواهد مؤكدة حوالى عام ألف وسبعمائة وتسعين بالتاريخ الإفرنجي ، تشير إلى أن هذا الجد السادس هو أحد طوافى الزويل الذين أرسلوا إلى عالم ما وراء الجبال فى إحدى المهام الخاصة المتعلقة بقومه ، ويبدو أنه تعرض لغواية ما ، أو إغراء معين ، وربما عوامل خفية لم تبد واضحة وقت حدوثها لكن لو طال غموضها قرونا فلابد أن تُعرف ويُكشف عنها كاملة ، وتمكن هذا الطوّاف الزويلى من الإفلات والاندماج فى حياة الحضر البعيدة تماماً عن الحياة الزويلية ، ويبدو أنه مارس عدداً من المهن والأعمال حتى استقر تاجراً للعطور فى درب ضيق بالمدينة الكبيرة ظناً منه أنه لن يكشفه أحد ، وبمجرد اندماج الزويلى فى حياة الحضر «لم تحدث هذه السابقة إلا نادراً كما يؤكد شيوخ الزويل» يصبح معادياً لقومه الزويل ، وربما اشترك فى أعمال تضرهم أو تلحق الأذى بالطوافين المنتشرين فى الدنيا كلها ، من هنا وجب البحث عنه، والكشف عليه ، إن مات هو ، فمن الضرورى تتبع أبنائه ، ورصدهم ، لا فرق بينهم وبين أبيهم ، أليسوا من نسل الزويل ، تجرى فى عروقهم دماء زويلية . ومن خلال المراقبة الدقيقة والتقارير المقدمة من المجموعات الزويلية المختلفة ، يمكن استخراج الحقائق ، وتحديد اللحظة الحاسمة بواسطة الشيخ الملثم نفسه منه السلام ، واللحظة الحاسمة تعنى استرداد الودائع الزويلية الآدمية فى عالم الحضر حتى لو كان المقصود لا يعرف أن أصوله زويلية ، وأن أباه ، وجده وجد جده ينتمون إلى زويلى آثر الهرب من عالمه خلال تكليفه بإحدى المهام المتعلقة بقومه ، ويعتبر الزويلى استرداد الزويلى أو ابنه أو حفيده حتى الحفيد التاسع واجباً مقدساً ، من هنا استمر طوافو الزويل يجمعون الأدلة والشواهد لمدة ثمانية أعوام كاملة حتى تقرر وضع الجد السادس للدكتور جعفر البيبانى تحت مراقبة دقيقة لا تغفل حتى يتم

التأكد تماماً من حقيقته ، وعندما مات بدون اكتمال الدلائل وضعوا ابنه تحت المراقبة التى دعمت تدعيماً جديداً وتنوعت أساليبها ، ثم واصلوا تتبع الأنباء حتى رصدوا عمر البيبانى ، بدأ موظفاً صغيراً فى وزارة الأشغال ، تدرج فى المناصب ، تولى تفتيش الرى فى المنيا ، قضى بها زمناً ، بعد عام من زواجه بابنة تاجر غلال أنجب فرحة عمره الأولى ، ذكراً أسماه جعفر ، ومنذ مجىء جعفر الصغير إلى العالم ، أحاطته عيون الزويل الفاحصة ، بدأ هنا عام ألف وتسعمائة واثنين وأربعين بالتاريخ الإفرنجى . « ***الموافق للحول الألف التاسع وأربعمائة وسبعين طبقاً للتقويم الزويلى والحول الزويلى يوازى أربعين عاماً وستة شهور بالتقويم الميلادى ، ويبدأ تقويمهم منذ اختفاء زويل الكبير فى الغمام*** » تتبعوا صرخاته الليلية ، نمو أسنانه والتقطوا صوراً عديدة خلال نموها فى فرص عديدة مختلفة ، وفى هذه الفترة استطاع الطوافون الزويليون تحسين وسائل الرقابة على الأشخاص بحيث لا يغيب عنهم الفرد طوال الليل والنهار ، راقبوا أصحابه ، عرفوا كل شىء عن حبه الأول فى كلية الطب ، بلغ من حرصهم على إخفاء أنفسهم أنه لم يشعر بهم أبداً ، مع أنه يراهم كل يوم ، عند باعة الفاكهة ، قاطعو تذاكر فى دور السينما ، موظفون بالمكتبات العامة ، جيران يسكنون العمارات المواجهة ، تبادل معهم التحية والمودة ، لم يعرف أبداً ، حتى حانت لحظة معينة ، حددها الشيخ صهيج الملثم ، بعد أن تجمعت أدلة قوية وحقائق دعمتها التقارير الواردة بلا توقف عبر السنين من طوّافى الزويل ، والتحليلات الدقيقة التى أجريت على ما ورد فى هذه التقارير من جيل إلى جيل زويلى ، بالضبط تمام السادسة وأربعين دقيقة ، مساء أربعاء حزين الوجه ، بعد بلوغه عامه السادس والعشرين بثلاثة أسابيع ويومين ، المكان ، منتصف المسافة بين متجر يبيع الأقمشة الصوفية بميدان الأوابر وجامع قديم ، عند ناصية شارع يتفرع من الميدان ، سكانه معظمهم نوبيون، به مطعم تخصص فى تقديم السمك المقلى ، ومتاجر تبيع الأدوات الكهربائية ، مقهى دائم الازدحام ، فى نفس

الزمان والمكان ، تقدم طوافو الزويل ، واحد منهم كلف بأن يحاذى الدكتور جعفر البيبانى ، يجاوره تماماً بحيث لا يتقدم عنه أو يتأخر خطوة ، يضع يده على كتفه ، يقول كلمتين ، عدد حروفهما تسعة .

«تسمح معانا»

كأن يداً من حجر صدمته فوق رأسه ، تساءل فيما بعد ، ردد كثيراً بينه وبين نفسه ، كيف لم يصرخ لم يطلب النجدة من آلاف المارة، نظرة الطوّاف الزويلى ، ثلجية ، باردة ، تقول إنه لا فائدة ، العالم حوله خلاء رغم ضجيجه ، لا عاصم له ، لو صاح فلن يقترب منه رجل ولا أنثى أو طفل حتى ، سيولون عنه رعبا ، يبتعدون فزعاً ، مضى لينا ، طيعاً ، خواطر صغيرة عبرت ذهنه ، المرضى الذين ينتظرونه ، أمه المترقبة عودته فى شرفة البيت ، هل يرى هذه البيوت مرة ثانية ؟؟ هل يعود ليمشى فى نفس الطريق ، لم ينتقلوا به مباشرة إلى مضارب الزويل «فى هذه الفترة انتقلوا إلى منطقة محاذية تماماً للبحر الأحمر ، تقع على بعد ثلاثين كيلو متراً غرب برانيس» بقوا أياماً فى أحد بيوتهم الخاصة التى يقيمون بها فى منطقة المعادى الهادئة البعيدة عن الحركة والضجيج ، وفى هذه الفترة قام فريق منهم فى إعداد مطلبين مفصلين ، الأول يحوى المضبوطات التى استطاعوا الحصول عليها من حاجاته ، ثم إيضاح سريع لما يغمض ويعسر فهمه ، أما المطلب الثانى فيوضح خطواته خلال الساعات السابقة على رحيله إلى عالم الزويل .

٥

«المطلب الأول ويتضمن المضبوطات»

١ ـ صورة ، حجم كارت ، الظهر موضح عليه التاريخ ، ٤- ٦-١٩٦٦، المكان يتضح من ختم الاستديو «الأمل - رمل الإسكندرية» الدكتور جعفر

يقف مرتدياً (مايوه) ، فى عينه نظرة ضالة ، ملامحه كأنه يحلم ، تضىء روحه رقة البحر وصفاء الهواء ، بعكس هذه العتمة التى لم تفارقه طوال الشهور الإفرنجية الأخيرة ، شعره أكثر غزارة ، غير مصفف ، بجواره شاب فى العشرينيات ، ربما يكبره بعام أو اثنين ، قصير ، غليظ العنق ، فى خلفية الصورة مبان بعيدة كلها من طابق واحد ، لا يعرف من هم ساكنوها ؟

إيضاح

- إذا ما سألت عنه أقول اننى ولدت فوق هذا الرصيف وعندما فتحت عينى وجدته فوق الرصيف المقابل .
- كنتما لا تفترقان .. لماذا هو بالذات ؟؟

، مقتطف من تقارير المراقبة ،

يلاحظ أنه فى الشهور الأخيرة ، باستمرار ، يبدو تائهاً ، يحلم خلال يقظته احلاماً تبعث فى نفسه مشاعر قاتمة ، تراجع مادة الأحلام المسجلة فى ٢٧ - ٣ - ١٩٦٦ ، وحلم الظهيرة فى ٣ - ٩ - ١٩٦٦ .

- آخر ليلة سهرنا حتى الصباح ، طفنا الحسين ، دخلنا حماماً شعبياً، خرجنا نتأمل البيوت القديمة المتعبة ، قلنا إن كل ساكنيها حزانى مفجوعين ، وإلا لماذا ينامون بعيداً عن الشوارع الخالية ، هل هان عليهم فراغ الطرقات ، أنا قلت سأعيد البهجة إلى الدنيا ، لم يعترضنا جندى ، أحيانا بائع فول عابر إلى مستوقد قريب يسوى فيه الفول ، كان صاحبى حزيناً ، نادى بائع الفول ، قال له تصور يا عمى أننى سأبلغ الثلاثين بعد أيام ، تصور ثلاثين مضت ، ابتسم البائع ثلاث ابتسامات صغيرة متوالية وتركنا مسرعاً ، قرب باب النصر القديم اتخذنا قراراً ، ألا نضحك حتى

بلوغه الثلاثين ، ليلتها نقيم مأتماً ، نفقد وعينا ، حتى لو أخطأ واحد منا وابتسم ، فالتعبير على الشفتين حزن أصفر ، مناحة ، شهدت علينا حجارة السور ، وأرواح الموتى تحت شواهد القبور ..

ـ من اقترح فيكما خطة الحزن الدائم ؟؟

ـ أنا .

ـ حرمت صاحبك الابتسامة ..

ـ رحل حزينا ..

٢ ـ نصف تذكرة ، تبين دخول السينما ، ٣ ـ ١٠ ـ ١٩٦٨ ، دار العرض ، راديو ، حفلة العاشرة صباحاً ، التذكرة مرقمة ، عليها علامات الصف ورقم المقعد بقلم غليظ الخط .

٣ ـ ثلاث تذاكر ، صغيرة من الورق المقوى ، ٢.٥ سم × ٥ سم ، القاهرة ـ حلوان ، الدرجة الأولى ، التواريخ محفورة مختلفة .

٤ ـ صورة فتاة من مجلة بالإنجليزية ، عيناها سؤال غير منطوق ، تبوح بسر غامض ، كأنها النظرة الأولى إلى أرض جديدة لم يطأها بشر من قبل ، أنفها دقيق ، عبير وجهها فيه رقة الهواء في جبالنا الزويلية ، نبض ليلنا ، نداءاته ، شفتاها صغيرتان ، تنتهيان فجأة بلا امتداد ، تحت الصورة بخط مضطرب ، «تشبه ثريا تماماً ..»

٥ ـ قصاصة منتزعة من كتاب ، ورق مصقول ، حروف سوداء بنط ١٢ ، عليها الجملة الآتية ، «وما أردت إلا الخير ، لكن سوء البخت ، وميل حظى ، حال بينى وبين ما أردت» .

٦ ـ ثلاث صور منتزعة من ثلاثة كتب ومجلات ، الصورة الأولى على ظهرها كتابة تدل على أنها ألصقت بكتاب مدرسى ، من الكتب التى تدرس فى المرحلة الثانوية المتقدمة ، الصور لزعيم عاش فى الفترة التى

عاصرها الجد الثالث للدكتور البيبانى ، الزعيم يدعى أحمد عرابى «تراجع القوائم، وشخصيات المستضافين» . الصورة الثانية تمثله واقفاً ممسكاً بسيف ، أما الثالثة فتظهر الوجه ، إنه عجوز هنا ، أشيب الشعر ، فى التجاعيد انكسار وحيرة ، هذه الصورة بالذات وجدت معلقة فى إطار لا يعلق إلى الحائط ، وإنما يسند إلى سطح المكتب ، بحيث تظل طول الوقت الذى يقضيه فى العمل أمامه .

٧ ـ أوراق أخرى .

* * ثلاثة أوراق كربون ، إذا ما تعرضت للضوء ظهرت عليها آثار كتابة ، يتم الآن كشف محتوياتها .

* * بطاقة استعارة من مكتبة عامة .

* * مجموعة من الخطابات ، بعضها خطابات عادية يتم تبادلها عادة بين الأصدقاء ، أربع خطابات من فتاة طالبة بكلية الصيدلة واضح أنها تراسله ، تعرف بها بعد نشر اسمها فى ركن هواة المراسلة بمجلة «المصور» الأسبوعية الملونة ، واضح من الخطابات أنهما فى سبيل اللقاء ، والمؤكد أنهما لم يتقابلا أبداً ، تخبره أنها جميلة ، متفوقة فى دراستها ، وأن علاقاتها بأسرتها علاقات عادية ، لها إخوة أشقاء لكنهم ليسوا أصدقاءها ، تحب الموسيقى الهادئة ، وتميل إلى المرح ، تقرأ جيداً بالإنجليزية ، على الرغم من دراستها العلمية فهى تعشق الأدب ، وأيام إجازتها ، وأوقات فراغها تقضيها مع القصص والشعر، تتمنى لو تسافر إلى الخارج ، تتزحلق فوق جبال الألب ، وتزور بلدة صغيرة فى ريف سويسرا ، أى بلدة لم تحدد ، مهما طال بها العمر تنوى تحقيق هذه الأمنية ، اسمها فادية ، عمرها تسعة عشرة عاماً .

* * دفتر تليفونات ، تراجع القائمة المرفقة بتقارير المراقبة المنفصلة

والحاوية لأسماء وأرقام جميع من ورد ذكرهم بالدفتر ، ولا يستثنى أى شخص ورد من ناحية الأهمية . خاصة هؤلاء الذين تبدو أعمالهم، أو اهتماماتهم بعيدة عن عمل الدكتور جعفر ، « يراجع أيضا ملحق س١٠»

* * حوالى مادة وتسعين كتاباً ، هى الكتب التى اختارتها مجموعة الطوافين الزويل الذين توجهوا إلى منزله لحظة استرداده من الطريق ، والتى تولت تفتيش منزله ، وكتبه ، ومكتبه ، بحضور أمه ، تراجع أيضاً قوائم الكتب المنفصلة والمرفوعة إلى الشيخ هنداو نفسه لإبداء الرأى .

إيضاح

ـ متى تتابع الجديد فى عالم الطب ، إذا كانت قراءاتك من واقع سجلات المكتبة العامة لا تمت إلى الطب ، وأنت بالذات طبيب أعصاب ، يعنى هناك الجديد باستمرار ، هل تقامر بصحة مرضاك ؟؟ هل تضحك منهم ؟؟ تعاملهم بأساليب قديمة ؟؟ ما الذى قرأته فى هذه الكتب ؟؟ ما الفائدة التى عادت عليك ؟؟ هنا لا يجرؤ زويلى على قراءة أو الاستماع إلى نص لم يتله مولانا الشيخ صهيج الملثم منه السلام ، انتظر يا مناف .. انتظر لا تضربه ، سيقول لنا التفسير المناسب لمخالفة عادته الزويلية .. قلت انتظر .. أنا أسمعك يا دكتور ..

المطلب الثـــانى : به نص التقرير الأخير المعد لتقديمه إلى الشيخ الملثم ويشمل ما قام به الدكتور البيبانى منذ الثامنة والربع وقت نزوله الطريق حتى انتقاله إلى أيدى الزويل مساء اليوم نفسه .

مــلاحظة : لم يرد فى التقرير كل ما قام به الدكتور البيبانى ، غير أنه يوضح أبرز ما لفت نظر طوافى الزويل ، والتى تؤكدها تقارير المراقبة

المتعاقبة منذ ستة أجداد سبقوا الدكتور جعفر ، وجميع هذه التقارير تؤكد الآن الأصل الزويلى له ، بالذات بعد الدراسات والاستقراءات العميقة التى قام بها بعض رجالنا الذين تخصصوا جيلاً بعد جيل فى قضية هذا الطواف الهارب منذ أحوال زويلية عديدة ، تراجع الدراسات التى أعدها هؤلاء الرجال عن «طفولة الجد الخامس» «طريقة النطق عند والد الدكتور البيبانى وتشابه مخارج ألفاظه مع طريقة ومخارج ألفاظ الجد الخامس له السادس بالنسبة للدكتور جعفر» « الميول الشبقية والجنسية عند الجد الثالث للدكتور البيبانى» « أيضا «الإحصاءات الخاصة بعدد المشاجرات التى خاضها الدكتور فى طفولته » ومقارنتها بالعدد المماثل فى طفولة الجد الخامس والرابع ، والعدد المماثل أيضا لدى الأطفال الزويليين ، و «طريقة تناول الدكتور الطعام وملاحظات طوّافينا عليها» ويراعى أن نص التقرير الوارد هنا يتضمن ملاحظات الشيخ هنداو شيخ عشائر الزويل ، والاستنتاجات مستقاة من تقارير المراقبة السابقة ، ومن خبرة الشيخ هنداو بالقضية .

١ ـ رفع يده بالتحية ، ثلاث مرات .

عندما توسط الميدان ، نظر إلى الساعة الكبيرة ذات الوجوه الأربعة ، فى عينيه بدا ضيق ، لان كل وجه يعلن توقيتا مختلفا ، لم يشتر الصحيفه». فى إحدى ليالى سهره مع صديقه الراحل ، اتخذ قرارات اثناء تمددهما فى مغطس الحمام ، منها ، عدم شراء الصحف ، لكن بعد رحيل صاحبه شوهد بانتظام يشترى كل يوم صحيفة واحدة من رجل عجوز اسمه مرسى، يجلس على ناصية الشارع ، وكان يعطيه قرشين ، ويرفض أن يأخذ التعريفة الباقية ، لأن الجريدة ثمنها خمسة عشر مليماً يقول خلى يا عم مرسى فيدعو له الرجل شاكراً ، غير أنه فى هذا اليوم بالذات لم يشتر الصحف . »

٢ ـ « طلع عمارة ضخمة تعلوها لافتات نيون ، تعلن عن شركة طيران، تضىء فى المساء بلونين ، أحمر ، أزرق ، دخل مكتباً فرعيا لشركة أدوية ،

طلب له صاحبه (ليس صديقه تماما) قهوة ، دار بينهما الحوار الآتى :

ـ لم أفطر ، يجف ريقى فى الصباح فلا أستطيع المضغ ..

ـ يجب أن تفطر ، من أخطر الأمور أن يلف الإنسان نهاره على لحم بطنه ..

ـ شكراً .. إذا أصررت اطلب لى قهوة (رفض القهوة فى البداية).

ـ مضبوط ؟؟

ـ زيادة ..

سكت ، قضم أظافره (يده اليمنى) سأله صاحبه عن حال أمه ، هل مستمرة فى تعاطى الإنسولين ؟؟ قال ستظل تتناوله حتى آخر العمر ، أبدى صاحبه شفقة ، امتلأ فراغ الصالة بضربات سريعة على الآلة الكاتبة ، تجلس اليها فتاة جميلة ، لم ينظر إليها ، مع ان جزءا عاريا من ساقيها بدا واضحاً من خلال المكتب الصاج الرمادى الذى تجلس إليه ، قام .

ـ إلى أين ؟؟ طلبت القهوة فعلا ..

ـ أنزل .. أحب الشوارع فى هذا الوقت ..

٣ ـ « لم يركب المصعد عند نزوله من الدور الثامن ، نزل السلم درجة درجة حتى الطابق الرابع ، ويلاحظ أن عدد الدرجات التى تصل الطابق بالآخر فى هذه العمارة ست عشرة درجة ، بعد الدور الرابع قفز درجتين درجتين «هل الزيارة لمجرد تبادل الكلمات الخالية من المعنى التى قيلت ؟؟ أم أنها تحوى معانى غامضة نرجو الكشف عنها» .

٤ ـ جلس فى مقهى ، يرقب الصباح السارح فى الطرقات ، شوارع ضاحية مصر الجديدة ، مذاقها الخاص ، كأن الناظر إليها يرقبها من خلال لوح زجاجى بالغ الرقة ، رن جرس التليفون فى صالة المقهى

الداخلية ، اتصل الرنين حبلا غليظا فى الهدوء قطعه الجرسون برفع السماعة ، قوس الدكتور حاجبيه ، بالضبط لحظة بدء الرنين ، نظر إلى محطة المترو المواجهة ، إلى عدد من رواد المقهى ، وعددهم فى هذا الوقت ثمانية عشر شخصاً معظمهم رجال عجائز أحيلوا إلى المعاش من زمن ، نظر إلى حوض الزهور المحيط بعمود الخرسانة الذى يحمل مظلة المحطة ، إلى جندى المرور، إلى طفل أشقر يركب دراجة ، « هل انتظر مكالمة تليفونية معينة ؟؟ خاصة انه دائم التردد على هذا المقهى بالذات ، وتم العثور على رقم تليفون المقهى فى الدفتر المضبوط معه ، وهناك احتمال أنه أعطاه لبعض معارفه مع ملاحظة أن بيته بلا تليفون ، المهم ، هل انتظر أن يصيح عليه خادم المقهى ؟؟ واذا كان ينتظر مكالمة ، فمن أى شخص؟؟ هل رجل ، أو امرأة ؟؟ وبما ان قلقه تزايد لأنه نظر إلى عدة أشياء فى وقت واحد تقريبا ، اهتزت ساقه بسرعة ، إذن فلابد أن هذه المكالمة التى لم تصل هامة، تعنى أموراً لا بد من كشفها» .

إيضاح

ـ طبعا تدل التذاكر المضبوطة أنك ذهبت إلى حلوان ثلاث مرات ..

ـ لم اصحب أحداً .. وحدى ذهبت ..

ـ بالضبط كتجوالك بمفردك ساعات طويلة ، كنت تركب القطار إلى حلوان البعيدة ، تتأمل تماثيل بوذا الوديعة الهادئة فى الحدائق اليابانية ، تتابع السمك البرىء الملون فى البرك الهادئة ، ألم تتابع السمك الملون فى البرك الهادئة ، ألم تطأ الحشائش القصيرة الخضراء ؟

ـ لم أقصد ..

ـ لكنك دست الحشائش ، وتمنيت الإمساك بالسمك الملون .

ـ نعم ..

ـ خفق قلبك ، اكتسى وجهك تعبيراً غامضاً كالغبار فوق سطح مرآه على مرأى من الأطفال الصغار ، لم تغازل الفتيات ونحن نعرف أنك لست خجولا ، هل أنت خجول ؟؟

ـ لا أقدر على الحكم .. لا .. ربما ..

ـ يوم بأكمله لا تنطق حرفاً ، لا تشرب ، لا تأكل ، كيف تسكت نهاراً بأكمله، ما الذى كنت تفكر فيه ، ولماذا حدائق حلوان ، حلوان بالذات ، قدم لنا تفسيراً .. آه ..

٥ ـ الثانية عشرة والثلث ، تبخر الندى ، توهجت الظهيرة ، لوح زجاجى ساخن ، الى المقعد المجاور للدكتور البيبانى ، جلس رجل فى الأربعين ، بعد صمته لمدة سبع وثلاثين دقيقة ، فجأة ، مال إليه ، ممسكاً بنصف ورقة كراسة ، بيضاء بلا سطور .

ـ لو سمحت يا أستاذ .. ممكن تقرأ لى هذه الكلمات ؟؟

الناظر العابر إلى الدكتور بيبانى ، لا يدرى ، أيعرف الرجل أم لا ، بسرعة قرأ ..

ـ والحياة ودعت منها نعيمى ..

اقترب الرجل بمقعده مسافة مقدارها زويليان « **المقطع الزويلى يساوى ٥٥ سم** »

ـ عالم محير يا أستاذ ..

صرّت عجلات مترو ، غنى رجل بلهجة أجنبية فى مذياع قريب ، بدأ حديث الرجل ، وفيما يلى نص ما قيل بالضبط :

ـ سيادتك متعلم ، وتقدر الظروف ، أود لو عرفت رأيك فى فتوى صغيرة .. رأيك .. وجه الدكتور البيبانى جامد ، كأنه يفكر فى شىء بعيد عما يقوله الرجل « هل تصنع عدم المبالاة ؟؟ »

ـ امرأة أحد أصحابى ، واحد من أحبابى الكثيرون فأنا أؤمن أن الانسان منا لا يعيش إلا بمحبة الآخرين ، المهم يا أستاذ تصور أنها تهجره بعد حياة زوجية استمرت عشر سنوات ، أنا أعرف أى اتجاه سيذهب اليه تفكيرك ؟؟ ربما تقول إنه لم يكفها حاجتها ، أبداً والله يا استاذ ، أنفق عليها الكثير ، كل ما تطلبه أحضره لها ، لكن أولاد الحرام التفوا عليها وملأوا عقلها بالكلام الفارغ ..

ـ ربما هناك أسباب أخرى .

ـ إطلاقاً .. أبداً .. يا استاذ .. من الناحية الجنسية صاحبى كامل يا أستاذ ، عينها لم تفرغ يوماً واحداً ، الغريب ، تصور أنها أكبر منه فى السن .. بثلاث سنوات ..

الرجل ينتظر رداً ، تعليقاً بسيطاً ، كلمة لم تأت فاستمر ..

ـ مسكين صاحبى يا أستاذ ، قابلته يبكى ، تصور رجلا يبكى فى الاربعين ويبكى كطفل اخذوا لعبته ، تصور انت ، ما الذى ابكاه ؟؟ أشياء صغيرة جداً ، ربما تضحك منى إذا قلتها لك ، إنه يفتقد رائحتها ، عبيرها، مذاقها يملأ البيت ، صوتها الذى يأتيه من المطبخ عند وقوفه فى الصالة، الطعام الساخن وقت عودته ، الشاى والقهوة تقدمهما له فى المساء ، ذهابهما إلى السينما ، إلى النزهة ، عودتهما آخر الليل فى طريقه خال ، أو تتصور حرقته يا أستاذ ، عندما جاء المساء ولم يشرب كوب الشاى ، كأن نظام الدنيا اختل ، يمكن أن يفعل أى شىء فى الدنيا إلا إعداد كوب الشاى ، أستاذ .. هل تعرف الجهد اللازم لعمل كوب من الشاى ، أن تغسل الأكواب ، تشعل الموقد ، تضع الشاى بمقدار معين ، السكر أيضاً ، تطفىء الموقد ، تنتظر حتى يبرد الشاى ، تشرب ثم تغسل الأكواب من جديد، حتى لو أعده فلن يشبه مذاق كوبها .. أبداً .. أبداً ..

إيضاح

ـ سمعت التفاصيل كلها وأنت لا تعرفه ، احتملت ، لكن ، لماذا أنت بالذات؟؟ لم يحك لأى رجل آخر ، حدثك أنت ، هل بينكما معنى خفى ، مؤقتا دعنا من هذه النقطة ، ما معنى الجملة المكتوبة فى الورقة ، والحياة ودعت منها نعيمى ؟؟ ألم تفكر فيها أبدا ، ألم تحاول معرفة دلالاتها حتى، إذن متى عرفته ، كيف تعرفت إليه ، كم مرة التقيتما ؟؟ قل لنا كيف أنهيت هذا اللقاء .

ـ قمت فجأة .. قلت شد حيلك .. لم أقل كلمة أخرى .

ـ حيله هو .. يعنى انت تعرف ان كل ما قاله يتعلق به هو وحديثه عن الشاى ، الصعوبة الكامنة فى إعداد كوب شاى واحد (رجاء توضيح . هل ينتمى رجل المقهى إلى قومنا ؟؟ أى هل طبق نظام المراقبة الثالث ، وهو تكليف عدة مجموعات زويلية بمراقبة شخص واحد ، يشرط ان تجهل كل مجموعة حقيقة الأخرى ، وشخصيات افرادها ، سيبدد هنا غموضاً ، فالحديث ليس وليد الصدفة ، انه مثقل بآلاف الاحتمالات التى تفتح آفاقا أكثر خطورة بخصوص الدكتور البيبانى ، خاصة أن بعض تقاريرنا فى الأعوام الخمسة الماضية ، تثبت أن هذا الرجل بالذات ، ركب الأتوبيس بجوار الدكتور البيبانى ثلاث مرات ، صحيح انهما لم يتبادلا الحديث ، ولم يبد على كل منهما انه يعرف صاحبه ، لكن هذا يحيط الموضوع بعلامات هامة تؤدى إلى تعميق خط الايضاحات الجارى قيامنا بها ، ولن يحسم الأمر إلا توضيح ، من هو رجل المقهى..) .

٦ ـ همس « يوم الأحد أحسن أيام الأسبوع ، أحب يوم الأحد » يراه شابا، ليس عجوزا مهموم الوجه كالاربعاء الخميس ، خال من جهامة الجمعة ، الأحد مشرق كأفق بلا ألوان ، صاف ، فيه البحر ، ذكرى أصدقاء ابتعدوا ، بسيط كإلقاء السلام ، انطلاق حبيبين فوق طريق خال وسط ريف خصب الخضرة ، همس : « لو جاءنى الموت يوم أحد ، فسأخدعه ، انجو منه وأعيش مائة عام » .

٧ ـ مر بحديقة كثيفة الأشجار ، فروعها نحيلة كالهمهمات ، سمع يقول ، بوضوح ، بحيث يمكن للماشي وراءه ، أو أمامه بمقدار عشرة مقاطع زويلية ان يسمعه « هنا مع ثريا .. دخلنا هنا فى المر المرصوف بالحصا الملون ، لا أذكر المقعد تماماً ، كان جانب منه متسخا ببقايا الطيور المستقرة فوقنا ، مع هذا لا أذكر أى مقعد »

(تراجع التقارير المقدمة عن عمره المحصور بين عامه الثامن عشر والتاسع عشر حتى الثامن والعشرين ، تراجع الأجزاء المثبت فيها نص ما قيل بينهما) . وجهه لحظة نطقه بالاسم ، عينا حمامة جبلية ضلت الطريق إلى عش أفراخها ، هوت فالتهمها سنور عناق جبلى وحشى ، عيناه لون غروبنا الصخرى القاسى ، بدا رقيقاً ، رقة حادة تؤلم النظر ..

٨ ـ نزل دورة مياه ، لم يتقزز من الرائحة الصفراء ، نظر إلى حارس الدورة ، هناك احتمال مؤكد ، صريح انه تساءل بينه وبين نفسه ، كيف يحتمل الرجل العجوز البقاء فى المكان ، فك أزرار بنطلونه ، جاء إلى المكان المجاور شاب يقارب الثلاثين ، يرتدى نظارة طبية ، إطارها ذهبى ، عدساتها ملونة ، تخفى اتجاه نظراته ، يبقى فمه مفتوحا ، يبدو انه يعانى ضيقا ما في أنفه ..

إيضاح

ـ بقية الأماكن خالية ، جاء ليتبول بجواره والعادة ، ان أهل الحضر لا يفضلون مجاورة شخص آخر خلال تبوله ، أنت بنفسك استغرقت وقتا اطول من المعتاد الذى تستغرقه فى أماكن تبولك الأخرى (الأماكن هى ١ـ البيت ٢ ـ المستشفى ٣ ـ العيادة ٤ـ دور السينما خلال الاستراحات ٥ ـ دورات المياة فى بيوت الأصدقاء (لا يستعملها إلا نادراً ثلاث مرات فى بيت فؤاد صاحبه طلب فى كل مرة إخلاء صالة البيت . ثم وقوف فؤاد حتى

يخرج ، وكان مصابا وقتئذ ببوادر إسهال ، تراوحت المدة التى قضاها فى كل مرة بين خمس دقائق واثنتى عشرة دقيقة ، وعقب كل مرة يسمع فى البيت بوضوح ، قرقعة وطرطشة الماء عند نزوله من السيفون ثم صفير الماء فى المواسير وبدا الدكتور يومها محرجاً من صوت مياه السيفون) .

٦ ـ دورات المياه فى القطارات ، وتراجع التقارير الخاصة برحلاته خارج المدينة) دكتور بيبانى ، هل تعرف هذا الشاب ..

ـ أعرفه ..

ـ دكتور البيبانى .. نحن نعرف عنك كل شىء ، أنت لا تعرف الشاب فعلا فلماذا قلت إنك تعرفه ، وإذا كنت تعرفه أو تتخيل أنك تعرفه ، فما هى الأفكار المتوقع أن تتبادلاها ..

٩ ـ وهن النهار أدركه فى الطريق ، شيخوخة الدنيا تتمطى فى الشوارع ، نوافذ البيوت مغلقة لا تعلن عما بداخها ، لم يفكر فى الذهاب إلى بيته ، كأنه يضيق بالعودة ، يود لو يمشى فى خط مستقيم فى [illegible] قفه عائق ، هكذا احس جده الرابع فى بعض أوقاته ، ويلاحظ طبيعة م[illegible] الاحساس الزويلى الخالص ، كان الجد الثالث يقضى ما تبقى له بالذهاب إلى المسجد أو الطواف بأضرحة الأولياء ، أو زيارة الموتى من أقاربه ، أما الدكتور جعفر فقضى آخر أيامه على مقهى صغير بميدان السيدة زينب . به طابق علوى، منه يراقب الميدان والمارة ، يشرب الشاى ، القهوة الزيادة ، يمص قوالب السكر ، وأحياناً يركب أتوبيس من أول الخط إلى آخره ثم يرجع ..

١٠ ـ بيوت فى طريق هادىء ، أغانى راع زويلى منشدة بشجن ، الأشجار همسات مسائية فى ليلنا ، الأزهار آهات واهية خرج من إحداها رجل عجوز ، يحمل على يديه عمراً صغيراً طرياً ، مشى بخطى سريعة ، وراءه ثلاثة رجال ، أربطة عنقهم فاحمة .. طفلة صغيرة عيناها ثمرتا برقوق

عطنتان ، السماء خيمة انهارت فوق الأسفلت ، تجاوزوا الدكتور بأربع خطوات ، تردد لحظة ، مشى وراءهم فى عينيه انكسار ، كأنه هدهد الطفل، ناغاه طوال عمره الموجز ، عالجه ، رأى لحظات احتضاره ، الروح تنسل منه ، عبروا الطريق الوسيع ، فيه مركبات وناس وضباب وغروب ونيون ، الشمس صبغت كل شىء ، تزعق خادمة أمام محل كواء ، يطل الليل يختلط بأرضية الطريق ، علا غناء فيه غبار وصفرة وزمن مختنق اسرع العجوز حامل الطفل ، نزت البرقوقتان دمعاً متجدداً ، وجه الطفلة عجوز ضامر ، الدكتور يمد خطاه ، يحاذى العجوز حامل الكفن ، أنفاسه تتردد بسرعة..

ـ عنك .. عنك ..

توجيه

وبكل دقة زويلية منشودة ومرتجاة ، يجب تحديد الأشخاص ، خاصة الطفلة ، ورصدها من الآن فصاعدا بأكثر من مجموعة زويلية ، يطلب ايضاح دقيق يشمل ويغطى جميع الجوانب عن مدى انفعال الدكتور البيبانى بالطفل الملفوف بالكفن ، أيضا الرجال الثلاثة ، وتستخدم كافة الأساليب الزويلية المعتاد تطبيقها فى مثل هذه الحالات للكشف عن حقيقة الشعور الدافع لحمل الطفل الميت ، فهذا الشعور المركب يعرفه شيوخ الزويل وبالذات مولانا الشيخ صهيج الملثم ، منه السلام .

ايضاح موجز

ـ ليس مهماً أن تعرف كم مضى عليك هنا .. الزمن مختلف عما تعرفه المهم أنك الآن أثقل وزناً ، أكثر هدوءاً ، ما الذى تشتهيه ، ولا نقصد بالسؤال انك ستعدم كالمعتاد فى الحضر .

ـ مهما طلبت . يتحقق ..

ـ بالتأكيد ..

ـ لو .. لو سمحتم لى أن أخرج الى الخلاء وأرى الافق عند البحر ، قلتم إن البحر قريب :

ـ الأفق . وعند البحر بالذات .. لماذا ترغب فى رؤية البحر .. الأفق بالذات.. لا تهز رأسك وأجب على سؤالنا ، لم يوجه سؤال فى تاريخ الزويلى ولم يرد ، الافق والبحر .

ـ لا ألقى عندى إجابة جاهزة .. لكن لو خرجت اليه سألقى صاحبى الذى نسيت ملامحه اسمع صوت أمى التى لا أدرى ان كانت تعيش أو رحلت، أرى ثريا ، عطر الليل ، ضجيج شوارعنا ، سماء بلا نهاية ، لا أحجار شاطىء ، لا أرض تصد العين والنظر .. لو دقيقة . لحظة ..

ملحق ـ س ـ أ

(تراجع أنساب وأحفاد جميع الطوافين الزويل الهاربين عبر العصور وبقدر الامكان ، مطلوب تسجيل انطباعات ، وأحاسيس هؤلاء الاشخاص الثلاثة ، وتصرفاتهم ، وملاحظة الشاذ منها خلال الفترة التالية لاختفاء الدكتور البيبانى) .

١ ـ بهاء الحق علوان مهندس صوت باحدى شركات تسجيل الأسطوانات ت : ١٨٧٠٤٩

٢ ـ اكثم البيرونى لم يحد وظيفته ت : ٩٦٢٣٤

٣ ـ أمان الله التهامى صاحب محلات تحف ونجف ت : ٣٤٦٧٨٩

(تراجع انساب وأحفاد جميع الطوافين الزويل الهاربين عبر العصور وراء الجبال)

ملحق – س – ٢

بعد تحليل عميق قام به الشيخ هونداو ، واستعانته بثلاثة من شيوخ العشائر الزويلية المتمكنين والعارفين بالأصول والفروع ، فانه يرى فى الجزء الخاص بحديث الرجل الغريب عن اعداد الشاى عدة علامات تستوقف العابر ، وتلفت الساهى ، وعلى سبيل المثال فالرجل لم يقل عمل كوب الشاى ، انما قرن الفعل بكلمة اعداد ، وفى المجال ذاته استخدم تعبيراً آخراً ، الجهد اللازم ، السكر بمقدار معين ، وجميع التعبيرات تحتمل اسقاطات أكثر من ظاهرها الحقيقى ، ثم تدرج الى ذكر تفاصيل دقيقة لا يمكن للمنزه عن الغرض ان يوردها فى حديثه ، من هنا يصبح غسل الأكواب مرادفا لمعنى أهم وأخطر خاصة اذا أتبع هذا إشعال الموقد ، ومقدار معين من السكر يوضع فى الكوب ، ويحتمل احتواء هذه التعبيرات الخافية على تهديد غامض لطوافى الزويل عبر عالم الحضر المسكون .

توجيه زويلى

« بالإشارة الى الفقرة الأخيرة (١٠) المطلب الثانى ، نوجه توجيهاً شديداً ، بوضع كافة المشتركين فى جنازة الطفلة تحت رصد حديقة المدرسة أو الحديقة العامة ، بالنسبة للطفلة الصغيرة التى لم تكف عن البكاء » .

(٣)

الحرايبة

تقديم

« .. لا يعرف بالضبط ، متى بدأ « الحرايبة » فى الظهور ، لا يوجد نص مكتوب أو شفاهى متوارث يحدد هذا ، وتحاول بعض التخمينات ادراك الحقيقة ، وطبعا هذا غير موثوق به ، تقول الظنون إن الحرايبة بدأوا عقب صعود الآله زويل الكبير الى الغمام ، حاولوا الهام القوم صبرا جميلا، بتفسير الاسباب والعلل ، الخافية والظاهرة ، ومنذ هذه اللحظات القديمة ، والحرايبة باقون ، يفسرون ويؤولون ، يناقشون ويقنعون ، يتقصون ، يبحثون ، يصدقون ، يكذبون ، وهنا يجب ملاحظة ان لفظ «الحرايبة » ، يقابل بالتقريب فى لغتنا العربية « المبررون » ، لكن لا تعطى هذه الكلمة ، الدلالة الحقيقة لعمل « الحرايبة » ، فطبقا للغتنا ، يعتبر لفظ «مبررون » جمعا للفظ مفرد هو . مبرر ، والأصل « بر » و « البر » بالفتح خلاف البحر ، والبرية نسبة اليه هى الصحراء ، وبر الرجل يبر براً ، وبار

أيضا أى صادق أو تقى ، خلاف الفاجر ، وجمع الاول « أبرار » ، وجمع الثانى بررة » مثل كافر وكفرة ، ومنه قوله الى المؤذن ، صدقت وبررت ، اى صدقت فى دعواك إلى الطاعات ، وصرت بارا دعاء له بذلك ، والاصل بر عملك ، وبررت والدى أبره برا ، وبرور احسنت الطاعة اليه ، ورفقت به، وتحريت محابه ، وتوقيت مكارهه ، وهكذا يحوم القاموس حول معنى اللفظ فلا يدركه ، ولكن اقرب المعانى الى اللفظ الزويلى « التبرىء » ، فعندما يتصدى المبرر الزويلى للبحث والفحص ، قاصدا تأويل حدث ، مسقطا عنه صفات ، كاشفا لعلل لا يراها الا هو ، فانه يبرىء الشىء ليقنع به قومه ، بوعد هذا ، يبقى لفظ « الحرايبة » مبهما غامضاً ، فكلمة « تبرىء » تعنى وجود جرم أو عيب ، لكن (الحرايبة) لا يتصدون للخبيث من الأمور وحدها ، ابداً ، بل منهم من يتبنى رأياً خطيراً ـ كما سنرى ـ ويدافع عنه ، إن العالمين بدقائق اللغة الزويلية ـ وهم قلة ـ لا يمكنهم تحديد المعنى بتقريبه من كلمة عربية ، خاصة ان اللغة المنطوقة تخالف المدونة ، لهذا حاولنا كتابة صوت اللفظ ، اللفظ تقريبا ، « حرياب » ، هكذا ينطق و « حرياب » مفرد «حرايبة » .

وهذا كله غير دال ..

* * *

وحدث منذ مئات السنين ، فى حقبة زويلية توازى العام الثالث بعد السبعمائة « بالتقويم الهجرى » عند المسلمين ، ان سرى هسيس ، بعد عودة بعض اشداء الزويل الطوافين ، اظهروا أمراً لم يعرف من قبل ، فقد تهامسوا بأسئلة ، اثارها ما يردده شيوخ الزويل المعمرين ، حول طواف اعظم قام به الشيخ الحدربى بن الملثم ـ منه السلام ـ اول عمره ، لف الدنيا ، قيل إنه طاف ببقاع لم ترها عين زويلية من قبل ، لم يتنفس هواءها زويلى ابدا ، بلاد يظلها الآله الكبير زويل ، قام الشيخ الحدربى بزرع زويل مخلصين فى هذه الاصقاع والبلاد ، اما المرحلة ذاتها فاستغرقت خمسة

وعشرين عاما ، ولفظ الشبان ما دار فى أذهانهم همسا رفيقا ، استفسارا وجلا .

هل استغرقت الرحلة المدة حقا ؟ .

أين المستزرعون الزويل ، ماذا يفعلون الآن ؟

وقابل الشيخ الحدربى الملثم ـ منه السلام ـ الأمر الجدير بعبر ، بحكمة زويلية مستمدة من جلد أجيال زويلية عديدة على لقاء الحبيب . ساكن الغمام .

« ذكر ما قاله الشيخ الحدربى «الملثم ـ منه السلام »

أجال فيهم عينين لم تواجها بنظرات عفية قط ، يزيد حدتهما لثام شاهق البياض ، كأنه روعة الحقيقة ، يحفه عطر القداسة رهبة ، غموض الانتظار ، الآن .. يدنو النهار من نهايته ، يبدأ الآله زويل الكبير يرقب ما يجرى فى الدنيا ، يسمع الآهة ، رجفة الشكوى ، حزفة التمنى ، آلام الفراق، دبيب النمل فى الجحور ، رفرفة ريش العصافير ، زحف الحيات فى أوكارها ، انجذاب الموجة إلى الموجة ، تزحزح المحارة عن موضعها فى قاع المحيط ، ملامسة ذرة رمال لذرة أخرى ، قوافل السمك إذ تغير اتجاهها ، يغمض الآله عينيه فيجىء ظلام قاتم ، يفتحهما فيلد نهارا طفلا رقيق الزرقة .

الآن ..

عند حد السماء الشرقى ، تكسو الجبال ظلال مجهولة المنبع، صوت الشيخ عمقه سنون الألفاظ مثقلة بمعان ، أجيال عديدة تغنى وتعنى حتى تصل إلى دلالاتها ، الشيخ الحدربى الملثم ـ منه السلام ـ يعرف ما يدور بين قومه ، المقيمين معه هنا فى بؤرة الموطن الزويلى ، أو المنتشرين فى العالم الوسيع ، لم تدركه دهشة ، فخلال الانتظار الطويل الذى سيلتهم

أجيالا زويلية صابرة ، حتى يرجع الآله زويل الكبير ، لا بد أن تبدو ظواهر جديدة ، انه يقبل ما طرحوه مع ان التساؤل مرفوض ، وحق الاستفسار وابداء الشك أمر يجهله الزويل ، ولانه لا يشك فى صفاء نيتهم الزويلية ، وحتى لا تبقى التساؤلات خميرة تفرخ ما تفرخ مع قدوم الأزمان ، فلا ضرر ولا مانع من الاستماع والإصغاء ، مهما صغر الشك ، وضعف التساؤل ...

هم ، يبدون شكا فى الرحلة المقدسة ، فى حدوث الطواف الأعظم ذاته، الطواف بكل ما حواه من تفاصيل ، نصوصه مدرجة الآن فى المتون الأزلية، لن يطلع عليها إلا زويل الكبير ذاته بعد رجوعه المأمول ، وبعد مشاورات عديدة أجراها مع العقول الزويلية المجربة المعمرة ، رأى ان يقوم احد الزويل الاشداء ، عمره يماثل عمر الشيخ الحدربى الملثم ـ منه السلام ـ يوم شروعه فى الطواف برحلة مماثلة تماماً ، خطوات الرحلة ما سيلقاه الطواف الزويلى من زويل مستزرعين ، ما سيرسله من رسائل ، كل هذا سوف يطمس الشكل ، ويعيد اليقين الزويلى الراسخ إلى النفوس ، لكن من سيقوم بالطواف الأعظم !! من ؟!

عند هذا الحد انسل اللون الأحمر من الغمام ، فاستحال رماديا كالدخان ، لملمت الشمس جراحها الأبدية ، ناء الصمت ، الألوان تتبدل بسرعة ، الجبال تفح رهبة ، أى لحظة قد تشهد عودة الآله الكبير . بلا علامات ، لكن يتعلق استفسار من سيقوم بالطواف الأعظم ؟

سيقص شعره ، سيتخلى عن أحلى عاداته الزويلية ، سيلملم الاول والآخر من عمره ، من ذكرياته المودعة ، بؤرة الموطن الزويلى ، زعقة السجود أمام الغمام ، سينشر فى الارض زمنا قدره ثلاثة احوال (تقاس الأعمار الزويلية بالحول ، والحول الواحد يوازى تقريبا ثمانية أعوام ميلادية) . فارق وحيد بين طواف الشيخ الحدربى وهذا الرحيل ، الطواف الأول كان مقدسا خفيا ، الأغراض منه باطنة ، لا يعرفها زويلى ، أما

طواف هذه الرحلة فستعرف الدنيا كلها أخباره ، ليس فى المتون الأزلية ، لن يعرف باسمه الزويلى ، ولا بصفته الزويلية ، يوما سيتضح هذا ، وهذا أمر يعرفه الزويل المخلصون ، أصحاب الأصول والفروع ، كثير من الأعمال قاموا بها، لكن الدنيا تنسبها الى اسماء أخرى ، وشخصيات غير زويلية فى الظاهر ، وهذا أمر شاق لا يتقبله إلا زويلى المنبت ، من هو .. من ؟!

ثلاث خطوات قصيرة قصيرة يتقدمها « درياد » ، ينبطح فوق الرمال ، صمت ، لا حرف يلفظ ، لا نسمة ترف ، يبدو الليل لغزا ، الصمت جبلا ، يعود الحس النورانى متمهلا .

اذن ، سيخرج ابنه درياد ، سينأى عن أيامه الزويلية ، سيمضى إلى مدينة لم يسمع عنها أبدا ، منها بدأ طوافه المقدس ، سيمضى اليها درياد مبتعداً ، كالحمائم اذ تبعد عن أوكارها ، والرائحة الحلوة تتطاير من قلب الزهرة ، الى طنجة ، صفاته الزويلية مستورة ، وكما أوحى الغمام ، يمنح اسماً يذكر به الى أبد غير منظور ، حتى عودة مخلصنا وملاذنا ، يبدل درياد اسمه الى ، أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى ، وتعرفه الدنيا بلقب ، ابن بطوطة ، لقب فيه ملامح زويلية مباركة ، (وهنا سجد الزويل أجمعون) .

انبثقت زعقة ، محمود رمال لولبى ساعة ظهيرة عامدة ، قام أحد الشبان المتسائلين ، انطرح بسرعة مادا ذراعيه باسطاً أصابعه ، قبل الرمل والحصى .

سر نفسى وجوهر دمعى ، وأول وآخر فرحى ، أسحب نفسى ، لست مستفسرا .

صمت المولى يعنى الرضى ، تسحب مرتجفاً فوق الرمال ، درياد بلا حس ، لا يدرى إنسان ما يجول داخله .

(لا تعرف تفاصيل كثيرة عن درياد ، خلال حياته فى بؤرة الموطن الزويلى ، وكل ما وصلنا عنه مستمد من رحلته العظيمة المتداولة بيننا حتى الآن) عموما اتسم درياد بهمة زويلية عالية ، صلبة كالصوان ، منذ صباه بدت مواهبه الحريابية العظيمة ، تجلت فى عديد من المواقف والصور ، مثلا انتظامه فى أداء الفروض الزويلية ، قدرته الفائقة على صياغة الحوادث واعادة روايتها بهيئة مشوقة ، وقرب انتهاء الحول الأول من عمره ، رصد شيخ العشيرة ظاهرة حريابية نقية فى أحاديثه ، اذ قص « درياد » لبعض فتيان عشيرته حكاية معينة ، فى نفس الليلة انتقل الى صحبة أخرى ، روى نفس الحدث ، لكن فى هيئة مغايرة تماما ، بينما خرج الفتيان بدلائل مختلفة، رفع الأمر إلى الشيخ الملثم ، وأدرج درياد فى عداد من سيصبحون يوما حرابية عظاما ، يؤول الظواهر ، يخفف البلايا ، يرى أمورا لا يقدر على استبصارها غيره ، ولاحظ فيما بعد تميز هذا الحرياب بظاهرة متفردة جدا، إذا ما وجه اليه سؤال ، يرد ردا مختصرا ، إجابة موجزة لكنها تحمل اكثر من معنى ، ظاهرها حسم ، باطنها لين ، بل فيه أكثر من تأويل ، وهذا صعب ، ايضا ما من زويلى قابله عن قرب ، مرة أو مرات إلا تركه متيقنا أن درياد صاحبه وخله الوفى ، وكثيرون من الشباب الزويل يعتبرونه المأوى الأمين لصور أحلامهم ، وأفكارهم ، وهذه ظاهرة شديدة الأهمية حرص الحرابية العظام فيما تلا ذلك من دهور على الاقتداء بها ، أن يصبح الحرياب موضع ثقة ، ملاذاً أميناً ، حتى إذا ما قال صدق، واذا ما سأل أجيب ، ولابد هنا من إشارة مؤكدة ، وهى اختفاء صفة الحرابية عن الفرد الزويلى المعد لاداء هذه المهمة المقدسة ،) .

يبرق اللثام الأبيض ، سيفا مشرعا فى مواجهة العتمة .

كما سيحرم درياد ، لا بد للمتسائلين أن يقدموا على تضحية ضئيلة ، سيتركهم سواد الليل ليقروا أمرهم ، طوال مدة الطواف لن يقربوا امرأة زويلية ، لن يجتمع واحد منهم بالآخر ، لن يتبادلوا الحديث مع أى زويلى .

الآن ، لا يرون وجـه الشـيخ الملثم ، نظراته ترعش ، ترجف ، رائحـة الرمـال غـامضـة ، طوال النهـار تستكين لشـمس قـاسـية ربما الحشـائش الجافة الصغيرة .

ـ فى أول نهـار جديد قادم ، سيخرج ابنى درياد إلى طوافه ، حتى لو أبقى واحد منكم بمفرده على تساؤلاته ..

* * *

ثلاثة ، زراب ، فازر، زنيد

تتقارب أعمارهم ، كل منهم ينتمى إلى عشيرة زويلية ، فازر يتقدمهم ، جلده منقوع فى صبغة صـفراء ، ولأنه أكبرهـم عمراً ، جثا أمـام الشيخ الحدربى الملثم ـ منه السـلام ـ فى نفس مـوضع جلوسـه أول الليل ، إنهم يلتمسون رحمـته ، يلوذون بالسناء الأعظم ، لكن التسـاؤلات تحـرق أغوار الحشا ، تلهب المرقد ، لو طال الأمر لخافوا العـاقبة ، إنهم يقبلون مـا أمر به، لن يقـرب واحـد منهم امـرأة أبدا ، لن يلفظ لسـانه بكلمة ، حتى تكتمل رحلة درياد .

« توجيه زويلى »

« بعـد مـجىء القـمـر ، بعـد اكتمـاله مرات ثـلاث ، بعـد أن يتـقن درياد اللسان العربى ، بعد مـعاملته منذ الآن على انه عبد الله مـحمد بن عبد الله ابن مـحمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى ، وحتى يعتاد ، سيخرج ليعيد وقائع الطواف المقدس ...»

الرسالة الأولى

«الحضرة العليا »

أصل الأصول ، المنظر الأكبر ، المثوى والملاذ ، المأوى اللين ، الشفاعة المرتجاة ، باعث الفرح ومبعد الأسى الرقراق ، الظل النورانى ، من يدنى النائى ، منه السلام ..

يوم خميس بدأ خروجى من طنجة ، خميس يوافق الثانى من شهر رجب القرد ، عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، أما عمرى فيوافق اثنتين وعشرين سنة ، اسلمت نفسى وعمرى ، أولى وأخرى إلى الطواف ، الآن اجتاز صحراء وسيعة يظللها المختفى الظاهر ساكن الغمام .

أمام زمانى ،

أذوب ، أفنى وجدا لرؤية صفرة رمالنا ، التى تحظى يوميا بملمس خطواتكم ، ومنكم السلام ..

الرسالة الثانية

أول النهار ، سمع زراب فى معزله ..{بعد خروج درياد لم ير أحد الثلاثة صاحبه ، كل منهم يقيم فى منأى عن عشيرته ، وعندما تصل الرسالة بواسطة الطوافين الزويل ، يبدأ شيخ العشيرة فى قراءتها ، يرددها مقطعا مقطعا ، الكل متراصون امامه ، يبقى المتسائل بعيدا ، ينام بمفرده ، يأكل فى مكان ناء ، يرقب الحياة الزويلية ، لا يحق له الاقتراب ، وعند رحيل العشيرة من موضع إلى آخر ، يبتعد عن المركب ، يبدو للناظر من بعيد ، نقطة منفصلة ، مطلقة غير مقيدة ، لكنها لا تلامس الحروف ابدا ، ولا يعتبر هذا عقابا إنما تعاليم زويلية خالصة ..، صوت ابن بطوطة يأتى من بعيد ، رآه يعبر الأقاليم الزويلية المفتقدة ، يقطع المدن ، تلمسان ، سوسة ، صفاقس وقابس ، يتزوج فى «فاس» ، فى صفاقس يتزوج من ثانية ، امرأتان زويليتان من أصل زويلى بثه الشيخ الملثم فى الطواف الأول، زواج لا يقيم أسرة ، لا ينشىء ابناء ، لا يعد بأحفاد ، إنما يؤكد حقائق

زويلية ، تذوب الأرض الصلبة يتوه فيها . يرى الغمام متنوعاً مهيباً يظلل الدنيا ، قمم الجبال لا تطاوله ، يجيء الليل صخراً مصقولاً ، يستعيد زراب تفاصيل الرسالة ، يرى مدنا ومواكب واطفالاً صغاراً ، يرى ابن بطوطة فى مسجد (مكان العبادة عند المسلمين) . يلتقى بالشيخ برهان الدين الأعرج ، ابن بطوطة يرى فى وجهه صدقا زويليا ، برهان الدين يفارق القطر إلى آخر، فى كل بلدة يتخذ اسماً ، يقول ابن بطوطة إن ملامحه تتغير وهذا من مناقب الشيخ الحدربى منه السلام على قومه ، قبل كتفه ، أظهر وداً زويليا دافقاً ، دمعت عينا برهان الدين لم يتصور أبداً أنه سيلقى زويليا شاباً . أدركته سعادة آخر العمر ، عبير الرمال الصفراء فى بؤرة الموطن الزويلى ملأ أنفه ، سرى فى دمه ، زحم صدره ، صحب ابن بطوطة إلى اسواق دمنهور (المقيم فيها وقتئذ) ، كساه ، أكلا السمك المملح ، شربا الخروب ومنقوع التمر هندى ، تمنى لو قضى الوقت كله مع الشيخ برهان الدين لكن عبثا يحاول ، ربما دخل كل يوم مدينة ، لكنه لن يصل إلى استقرار أبداً ، مواصلة الرحيل فرض واجب ، ما من شىء يدوم أبداً إلا الصبر الزويلى فى انتظار رجوع ساكن الغمام ، أوصاه الشيخ بزيارة اشقائه ، فريد الدين فى الصين ، عجيب الدين فى الهند ، كلاهما طواف زويلى ، تباكيا ، تواعدا، ابن بطوطة يواصل رحيله ، يواجه الليل الغامض فى البلاد الغريبة، يرقب مجىء الفجر الرمادى ، يفرى كبده حنين إلى بداية النهار فى مضارب العشيرة الغمام يخفى انفاسا مباركة تتردد فى الاعالى ، وانغاما زويلية صافية ، وتلاحين مبكية ، وأنواراً رهيفة سنية تبرق فى الغمام النائى نافذة واهنة ، مراكب ترسو فى خلجان قصى ، مجاهدون زويليون يرحلون من واد إلى واد ، يبشرون بميعاد البعث الزويلى ، عندما يجىء العدل عذباً حلواً رائقاً منشداً برقة ، زراب يرهقه أسى ، عمره الحلو يمضى ، شمس تغوص فى المتاهات الغريبة تاركة برودة تفح فى القلوب ، القلوب ، لا يعرف أحوال صاحبيه ، لا وسيلة لديه يدون بها الزمن المنقضى، الرمال لا تحفظ أثراً ، طال اشتياقه إلى الحديث ، فى أول الليل

يقوس جسمه ، كأنه الوليد لحظة انزلاقه من الرحم ، يهمس بخافت المنطوق، لم يخالف نصا زويلياً . لم يأمره أحد بالامتناع عن مخاطبة الهواء، بالنهار يجمع حفنة رمال ، يحاول فصل الذرات عن البعض ، استجلاء السر المكنون فى الصلابة ، فى العصر يصغى إلى الحياة الزويلية ، من حين إلى حين تهب روائح طعام وصيحات أطفال ، يهبط قلبه مقدار قبضة اليد ، ابن بطوطة يتساءل من بعد سحيق عن وجوه الصغار عن لمعة العيون، يود لو يلقى زويليان واحداً يبادله الشجن ، يصارحه بالأمل المرتجى ، يحكى رؤيا المنام ، يلامس بجبهته الأرض تقربا من ساكن الغمام، بعد فراغ ابن بطوطة من رحيله ، زراب لا يدرى ما سوف يحل به ، المؤكد أن عذراء زويلية لن تقبله ، ما يضنيه الآن انتظار الرسائل ، احياناً يثور الخاطر كأعمدة الرمال المتصاعدة إلى الفراغ لحظات قسوة الظهير ، غباء أخرف ، كم حولاً فى عمره حتى يضيع من حياته قدراً كهذا ، أحياناً تفاجئه لحظة ضئيلة كرعشة نجم بعيد ، يود لو يرى آفاقا نائية ، جبالاً شاهقة ، لو يتقن ألسنة أجنبية ، ينفذ إلى أسرار الناس ، لو .. لو .. لو أنه لم يطرح الأسئلة ، لو أن جنين التساؤلات لم يتحرك فى رحم فؤاده ، لصار الآن طوافا عتيداً ، يعمل بعديد من المهن والصنائع ، ينظر فيما هو كائن ، يستبصر الآتى ، لماذا لم يقم هو بالطواف ذاته ، لماذا لم يقم به زنيد ، أو فازر لماذا ، دائماً ينتهى ، يبدأ بوضع التساؤل تلو التساؤل ، فينأى ابن بطوطة ، ويبقى هو ..

فازر

رحمتك يا ساكن الغمام ، طرح التساؤلات عبث ، خطأ فادح ، كيف يتداركه !! قوى خفية أحكمت الحصار حوله ، كمائن أحدقت به . حتى تساءل وقال ما لا يجب قوله ، حام حول المحرمات الزويلية والنتيجة ينوء بها شاب زويلى مخلص ينحر عمره فى الغربة ، درياد يبدى فى كل رسالة

حنيناً محرقاً إلى الموطن الزويلى ، لكنه لم يتوقف أبدا ، فى بلاط صاحب مصر يلقى الآقوش البريدى . أسرع من ينقل الرسائل يقطع المسافة من مصر إلى حلب فى خمسة أيام ، وهى مسافة شهر ، وهذا من مناقب الشيخ الحدربى الملثم منه السلام ، الآقوش زويلى مستزرع ، يصحبه إلى قلعة السلطان قلاوون ذاته ، يمضى معه مسافة فى الصحراء ، فى الجبال يسمع همهمات زويلية ، تتفتح له أرصاد خفية . يرى أنواراً تضيع الدليل وتذهل الخليل ، يفصح له البحر عن مكنون أعماقة ، يدخل شيراز ، اصفهان ، يسجد فى جامع الأبنوس ، يلقاه شاب غريب الهيئة ، يعطيه مصحفاً ، أخذته رهبة ، اختفى ، فى اللحظة ذاتها جاءه طواف زويلى يعرف فارس كلها كما يعرف باطن يده ، أخبره عن الشباب ، وهذا هو الشولى ، (الشولى من غلاة الزويل المستزرعين ، لا يظهر إلا مرة واحدة لكل طواف عظيم) . فازر تقلقه كلمات ابن بطوطة ، بعد الرسالة الرابعة تنفس الغربة مع الطواف الاعظم ، أرسل دمعا ، قام واقفا ، السماء خالية فسحة ، رفع ذراعيه ، زعق طالباً الرحمة من ساكن الغمام ، هنا توجه اليه شيخ العشيرة ، طلب منه الكف عن هذه الأفعال ، رأى فازر فى مجىء الرجل إليه فرصة لن تتكرر ، لم تسنح له منذ بداية عزلته ، رقق لهجته ، خفض صوته حتى صار همساً حانياً ، أبداً ، إنه يقصد التماس الرحمة من ساكن الغمام ، ادرك خطأه ، فداحة جرمه ، رفع شيخ العشيرة يداً مبسوطة الأصابع ، جاء ليحذره ، لن يسمعه . اذا أراد طلب الرحمة من ساكن الغمام ، هناك طرق زويلية يعرفها الوليد الزويلى لحظة إزلاقه إلى جوف الحياة ما يأتيه فازر لن يستثير غير السخرية فى نفوس الصغار ، زعق فازر ، يتزايد همه ، ثقل يؤلم روحه ، من دفعه إلى طرح التساؤلات ، إلى التمسك بما فاه به ، أهو زراب ، أهو زنيد ، لابد أن كلا منهما اهتدى إلى طريقة يسوى بها أموره ، فى عصر اليوم الذى بدأ فيه شيخ العشيرة يتلو الرسالة السادسة ، قام فازر ، صرخ مقاطعاً تلاوة شيخ العشيرة ..

إنى نادم ..

انتظر ، كأن الأمر سينتهى بعد لحظات ، حتماً لابد أن ينتهى ، يعود إلى تبادل الكلمات مع أصحابه ، إلى إغفاءة الظهيرة ، تناول طعامه مع جمع من عشيرته ، إلى السجود فى مواجهة الغمام . إنى نادم .. افعلوا بى ما تشاءون.

صمت كثيف باق فى أذنيه ، لم يصغ واحد لم يهتز جفن ، لم ترهف أذن ، لحظة لو تجسدت لبدت أشد ضآلة من ثقب مخراز ، لحظة لا تعرف إلا هنا فى بؤرة الوطن الزويلى ، يتحد الصخر والأعشاب والسماء والنجوم مع الخرس الانسانى ، حتى وشيش البحر يموت ، روحه تقطر على مهل فى هوة لا يدرك آخرها ، لو يجرى ،ينفذ من اللحظة ، يلقى نفسه أمام المولى منه السلام ، ويصل اليه صوت شيخ العشيرة ، الجمع شاخص ، يرون بعقولهم الابن الزويلى البار فى الغربة .

«بارض نيسابور اشتريت غلاماً فرآه معى طواف من قومى ، خبر المدينة و عرف ما بها ، قال لى هذا غلام لا يصلح لك ، فبعه ، قلت له نعم ، بعت الغلام فى غد ذلك اليوم ، اشتراه بعض التجار ، فلما حللت بمدينة يسطام كتب إلى بعض أصحابى من نيسابور ، وذكروا أن الغلام قتل بعض أولاد الترك ، وهذه كرامة لطواف زويلى أمثل قاسمته الخبز والرقاد..» . {قام فريق من أساتذة التاريخ والجغرافيا البشرية بجامعة الإسكندرية بمقارنة بالغة الدقة بين نصوص رسائل درياد الكاملة والموجودة لدى ، والتى وصلت إلينا شفاهة فى الحكايات المتوارثة عن الزويل بين قبائل العبابدة ، وبين نصوص رحلة ابن بطوطة ، المعرفة تماماً لدى جميع طلاب العلم ، مختلفة طبعاتها القديمة والحديثة . وأثبتت المقارنة اتفاق الأحداث فى كل من الرسائل والرحلة المعروفة المدونة فيما عدا فارقاً بسيطاً ، وهو مخاطبة ابن بطوطة باسمه الأصلى ، وتأريخه أيام الوصول والسنين بالتقويم الزويلى ، وابداءه الشكوى والضيق من رحيله المستمر ، وهذا بخلاف الرحلة المعلنة ، حيث يبدى فيها أكثر من مرة حبه للترحال والسفر}

زنيد

تتعاقب عليه أقمار تبدأ ناقصة ، تكتمل ثم تضيع ، تدهمه الخواطر إذ يوغل الليل ، تأتيه الوحدة صخراً وبحراً لا قرار له ، نفياً أبدياً ، يمضى العمر ، لذة الخلو إلى زويلية لن يعرفها أبدا . عادة الحديث ينساها ، ينتظر رجوع درياد ، لابد أن يراه ، يسأله ، يعرف ما جرى له ، كيف اعتاد الغربة، بأى مشاعر قابل تبدل الأجناس عليه ، تغير البلدان ، عدم استقراره فى موضع واحد ، فى كل رسالة يبدى حزناً عفياً ، يتساءل عن غروب الشمس فى الوطن الزويلى ، عن لون السماء عند بداية النهار ، منذ نصف حول (حوالى سنة ونصف ميلادية) صعد الشيخ الحدربى الملثم منه السلام إلى الغمام ، رحل تاركاً جسده فى الرمال الناعمة ، أرسلت العشيرة دمعاً سخياً مدة ثلاثة ايام ، وأبدت ابتهاجاً فياضاً لثلاث أخر ، جاء الشيخ زويدان تجسيداً ظاهراً لزويل الكبير ، اسدل اللثام ، .. (عندما يموت الزويلى لا يفنى إلى الأبد ، انما ينتقل من حال إلى حال ، يصبح جندياً زويلياً مباركاً وهؤلاء سيرجعون مع الآله الكبير عند نزوله المنتظر).ولا يغيب الجند المقدس عن انظار احبابهم ، انما يظهرون فى الليل، يرقبون الكون ، ويرون على هيئة النجوم ، وفى الأعالى لا ينقسمون إلى أخيا وأشرار ، كلهم جند الآله الكبير ، ولا يعتبرون فى العالم الآخر ، إن العالم الآخر الزويلى ، يبدأ بعد عودة ساكن الغمام ، مع جنده ، فيبدأ زمن السعادة ، وهذا لا حد له ... يرى زنيد السماء حقلا مزروعاً بزويل كثيرين، تفاجئه خاطرة شك ، أحقاً ، يطوف درياد بالدنيا!! من اين تجيء الرسائل ؟ من يدريه أن الامور كلها لم ترتب من قبل ؟! من يؤكد له أن ابن بطوطة فى أرض كلها « اشجار الخرجيل ، والفوفل ، والقرنفل ، والعود الهندى ، والشكى البركى والجمون ، وقصب الكافور ، افاوية الطيب ، جوز النرجيل»، كلها نباتات مجهولة هنا ، لكنها ستعرف يوماً للزويل أجمعين ، آه .. ربما يقيم « درياد » فوق هذه الجبال ، ينزل فى الليل ، يرى زنيد

وجهاً صلباً لا يكشف معنى ، لا ترتعش خلجاته ، فى انتظار عودة درياد ، ها .. عودته هو ، لا يعبأ زنيد ، ولو ، تكتمل أقمار وتتآكل ، تطول المدة وتقصر ، فى لحظة بعينها يدرك الرد .

تتابع الرسائل

يود زراب لو سمح بالمضى إلى الشيخ الملثم ، يطلب رجاء واحداً ، لن يكذب ، زراب لن يقول إن التساؤلات ذابت ، ابداً ، المرارة فى اللعاب ، العكارة فى قاع الجدول ، لكنه يرى أيامه تولى ، لحظات راحة عسيرة المنال ، اغفاءة هنية لا تواتيه ، الاسى متزايد ، والزاد مفتقد ، القلب لم تحمه الضلوع فأدركه وهن ، يود زراب منحه القدرة على استعادة أيامه النائيات ، يتجول صامتاً فى مضارب العشيرة ، رائحة الخبيز ، مذاق اللبن، يسمع نداءات الحريم ، يرى ايدى الاطفال تتحرك بلا هدف ، يذكر بهجة الوجد الذى تبعثه الصلاة امام الغمام ، يستعيد رائحة أخشاب القوارب ، صوت الاشرعة إذ تنتفخ بالهواء ، زحام الاسواق البعيدة ، الهمة ، الآهة ، الرجفة ، اختلاجات القلب الزويلى الحزين ، الآن لا يصغى إلى رسائل ابن بطوطة ، كل ما تنبه اليه منذ حول أو أكثر ، حديث شيخ العشيرة عن الدور الخفى المستور الذى قام به الشيخ زويدان الملثم ــ منه السلام ــ فى الترتيب لرحلة المولى الحدربى منه السلام . جاءت رسائل ابن بطوطة تؤكد هذا ، توثقه ، أكثر من مرة رأى فى سائرالبلدان علامات ، إشارات تعلن ما قام به الشيخ زويدان الملثم ـ منه السلام ـ زراب لا يعبأ بهذا ، آه لو يسمحون له بالذهاب إلى المضارب ، لن يتكلم مع زويلى أو زويلية ، لن يسمع أخباراً أو رسائل ، يتركونه قادراً على الحلم ..

* * *

... فى الصين ، سمعت ان بها شيخاً كبيراً ، قد اناف على مائتى عام، لا يأكل ، لا يشرب ، لا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة ، وأنه ساكن فى غار يتعبد فيه ، توجهت إلى الغار ، رأيته على بابه نحيفا شديد الحمرة ، عليه أثر العبادة ، ولا لحية له ، فسلمت عليه ، امسك يدى وشمها ثم قال للترجمان .. هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر واسم مولاه وشيخه وامامه زويدان ...

ولم يستطع شيخ عشيرة فازرإتمام الرسالة ، فازر نتر جسمه إلى اعلى، يدور يضحك فى مواجهة جهات الدنيا الاربع ، يلعب حاجبيه ، ينحنى إلى أمام وإلى خلف ، يختلط صوته بضحكاته ، لهجة غامضة مبهمة، الامهات يغطين وجوه اطفالهن ، توقف الشيخ لم ينظر ناحية فازر ، وجهه جامد ، منذ احوال عديدة وفازر يبدد صمت الليل ويقل صفاء الصباح يعلن خطأه ندمه ، يقبل كل ما يحل به ، سيقدم اسماء كثيرة وشابات واطفالا زويليين يطرحون التساؤلات سراً ، لم يلتفت اليه احد ، اما الآن فالامر يختلف ، يهب ثلاثة من اشداء الزويل اشارة من شيخ العشيرة، ينصرف الجمع كله عدا الثلاثة ، يتصبب العرق غزيراً من جسد « فازر».

* * *

هذه الرسالة بالذات ، لم تصغ اليها عشيرة « زنيد » ، بقيت مطوية ، مجهولة المعانى ، بلا تفاصيل ، صباح قريب لم يمض عليه قمر واحد ، بدا « زنيد » ، صارم القسمات ، كأنه امتداد خفى للصخر النائى ، لم يرد ، لم يتحرك قط عندما قلبوه ، هاهو ذا الآله زويل الكبير يسترد واحداً من جنده آتى ما لم يأته أحد من قومه ، بدت السماء فى عيون القوم رمادية جهمة موحشة ، لغزاً زويلياً عصياً .

تزاج الساكانابى

لم يغادر بؤرة الزويل أبداً ، لم يرسل طوافاً حتى إلى وادى مصر القريب ، انما عمل منذ بداية حياته فى «الساكاناب» ، واللفظ يعنى تقريب «الاخبار» أو «المعلومات» ، وعندما ينتقل الزويل من منطقة إلى أخرى يقوم الشيخ الملثم بتوزيع «الساكانابيون» فوق قمم الجبال ، فى بطون الوديان ، بجوار المدقات الصحراوية ، يرصدون أى غريب ، وعند مشاهدتهم لأى ظاهرة لافتة يقومون عن طريق نظام خاص من الإشارات شديدة الغموض ، تنتقل بسرعة ، فى لحظات يصل المضمون إلى الشيخ الملثم ، حيث يقوم الساكاناب الأعظم بتحليله وهنا يتخذ الشيخ الملثم ما يراه مناسباً ، وليست هذه المهمة الوحيدة للساكانبيين ، إذ يتولون الطوافين العائدين من الغربة إلى الموطن الزويلى الجديد ، ايضاً يتسلمون وينقلون الرسائل التى يبعث بها الطوافون الزويل عند اقتراب حملة الرسائل من حدود الموطن ، وفى قديم الزمان لم يحتل «الساكاناب» اهمية عظمى ، واقتصر على الواقع الداخلى للعشائر الزويلية ، حيث ينقل كل حرف وهمس إلى الشيخ الملثم ، لكن مع التقدم تعاظمت الحاجة اليه ، خاصة فى الأعوام المائة الأخيرة ، بعد تزايد حركة المسافرين عبر الصحراء ، وبعد تقارير مفصلة عن وسائل نقل جديدة ، توصل اليها أهالى الحضر ، تابعوا كل تطور يحدث ، وصفوا الطائرة وطبيعة عملها فى وقت مبكر جداً ، وفى الفترات المتعاقبة استطاع طوافو الزويل الدخول فى تفاصيل هذه الوسائل الجديدة ، قادوا السيارات، والتراموبات ، عمل عديد منهم كطيارين على خطوط البريد فى فترة مبكرة جداً من بدء الطيران التجارى ، عبروا المحيطات كربابنة سفن ، اتخذ تزاج موقعاً سكانابياً قريباً من مضارب العشائر ، توافر لديه علم بمواقع جند زويل الكبير (النجوم) فى السماء ، قيل إنه يناجيها بعد ادراكه خفايا رموز مجهولة يخاطبهم بها ، يناجيها وتناجيه ، وفى فترة زمنية

موازية لعام الف وتسعمائة وسبعة وثلاثين (بالتقويم الميلادى) ، ضمه الشيخ الملثم إلى معاونى الساكاناب الاعظم ، وظل جانب من مهامه غامضاً، فى نفس هذه السنة أثار تزاج تساؤلا غريباً شغل المجتمع الزويلى زمناً مديداً ، ويلاحظ أن طرح التساؤلات فى هذه الحقبة أصبح امراً عادياً لا يقابله العقل الزويلى بدهشة ، بخوف ، ولا يقتضى أداء تضحية ما ، وفى جميع الأحوال المعروفة لنا كان رجال الشيخ الملثم يبدأون بطرح التساؤلات ...

* * *

عندما كفوا ، تزايد عمق الليل ، ترسل الجبال ريحاً لينة كعبير التمر ، تزاج الآن موضع اهتمام ، يشغله أمر عظيم ، يقلق مرقده ، يغض شهوته قبل اكتمالها ، يطن فى دماغه كذبابة صحراوية كبيرة كريهة . «تزاج» عمل ساكانابيا على المدق الجبلى القريب من الماء الأعظم ، يهوى التساؤل عليه منذ هذه الفترة كحبات الحجارة المنذرة بانهيار جبلى ، كيف أصبح الماء الاعظم أزرق !! لماذا تبدو الزرقة خفيفة فى مواضع ، ثقيلة فى أخرى ، لماذا تتوهج كشهوة امرأة عند الظهيرة ، يتنهد البحر كعذراء زويلية لم يقربها زويلى أبدا ، لماذا يكتئب عند المساء ويحزن ساعة تنأى الشمس وتغوص فيه ، أين تذهب الزرقة إذ يحل الليل ، أى قوة خفية تدفع الامواج إلى الاصطدام بالشاطىء ، وأى قوة أخرى تجعلها ترتد عنه !!

- أنتم لاهون عنى .. ترصون الاحجار فوق الرمال ، تتساءلون عن أسباب انتقالنا من مكان إلى آخر فى الحول الأخير ، دلونى ، قولوا رأيكم ، أهدونى إلى الراحة ..

بعد طقوس أول النهار ، وقف أ فراد العشائر يصغون إلى الساكاناب، (يلاحظ استعمال لفظ الساكاناب هنا بمعنى الأخبار ، يطلق أيضاً على الشخص الذى يقوم بنقلها) ، والساكاناب الرئيسى هذا الصباح تساؤل طرح من معاون الساكاناب الاعظم ، الشاب الزويلى «تزاج».

ما سبب زرقة البحر !!

ربما يطرح البعض تساؤلات مقابلة ، لماذا يقلق «تزاج» لأمر يبدو هيناً لا صعوبة فيه ، ما علاقتنا بالماء الأعظم ونحن لا نقربه إلا كل حولين أو ثلاثة مرة ، لكن تزاج يوضح الأمر ، زرقة البحر امر الامر ، زرقة البحر امر غامض لابد من اجتلاء سن ، فى نصوصنا المقدسة ما يشير إلى أوصاف معينة تحلى بها كبيرنا وقاضينا وزادنا ومنقذنا المنتظر زويل الكبير ، أطلب منكم مساءلة شيوخكم فى هذه النصوص ، ألا يوصف بأنه باهر الصورة ، عيناه كالماء الأعظم ، هل توجد علاقة بين زرقة البحر والعينين الباقيتين أبداً، أيهما يستمد سره من الآخر .

* * *

توجيه زويلى

«إلى سائر الطوافين الزويل فى أنحاء الدنيا ، الناطقين بكافة لغاتها ، المترقبين سيد الغمام ، ليظهروا ويتظاهروا ، مطلوب إيجاد الإجابة على تساؤل طرح فى بؤرة الموطن ، شغل عقولاً ، ربما جاء الجواب من زويلى مخلص أمين يسكن بلاد الثلوج ، أو آخر يأكل طعامه من لحاء الشجر فى الغابات القصية . اذكروا ، منذ أحوال بعيدة قدم ثلاثة شبان زويل أوفياء أعمارهم بسبب طرحهم لتساؤل بسيط ، وانني زويلى مخلص أفنى عمره ليجيب عليه ، اليوم يعاقب كل من لا يفكر فى الوصول إلى رد ، تساءلوا فيما بينكم ، فى صحوكم ، فى نومكم ، فى هزلكم وجدكم ، اخلطوا التساؤل بأحزانكم ، بأفراحكم .

لماذا زرقة الماء العظيم !!

لماذا زرقة الماء العظيم !!

* * *

حوليات طرح التساؤل

تزاج

من يدرى ، ربما تكشف المغيب ، ما بعد ذهاب الأعمار ، ما يحويه هذا الأزرق العظيم ، ألا تبدو السماء زرقاء !! . ربما البحر أصل الزرقة ، ماذا يحويه جوفه الممدود !! نصوص زويلية مقدسة تقول ، إنه لحظة نزول جند زويل الكبير من الغمام يخرج جند آخرون من الماء الاعظم ، إذن ، أى عنصر مفتقد يرقد هناك !! أى معنى تبطنه حركة الاسماك فى الماء ، فى يوم بعيد ركب قارباً ، نفذ بعينيه إلى عمق غير قليل ، البحر هادىء منبسط كيابسة ، يرسل صفاء ، نداء بالاحتواء ، بالضم والتقبيل ، أويتنفسه الإنسان ، رآه غامضاً كطفولة بعيدة مفتقدة ، أيقرر ان أياماً حلوة رائقة لم يعشها ، يعرفها جيداً ، هناك فى العمق ترقد كعروس نائمة ، رأى أعداداً كبيرة من الاسماك ، الواحدة فى حجم راحة اليد ، لونها اصفر كرمال الغروب ، يتخللها خطوط ثلاثة حمراء ، اثنان منها متساويان فى الطول ، الأوسط يمتد من الفم المدبب إلى الذيل المثلث ، يحف الخطوط الحمراء ظل أبيض شاحب كالحليب ، لا يمكن إحصاء العدد ، اتجهت الاسماك إلى جهة مطلع الشمس ، فجأة التوى مسيرها ، عادت فى الاتجاه المخالف ، لم تثبت طويلاً ، صعدت إلى أعلى ، دارت ، تندفع جميعاً فجأة ، لا يدرى أين ذهبت !! هل تخفى زرقة البحر العظيم معنى لهذه الحركة !! هل تتخاطب الاسماك بلغات كما يتخاطب الإنسان ، زويليا أو غير زويلى ، أيتزاورون ، يتشاركون ، يطوفون ، يمرحون ، أيسود جنس منهم على أخر ، ما مقدار الأعمار وإذ تنقضى فإلى أى سماء تمضى وتولى ؟!

* * *

« شاب يتهم تزاج بالخروج على الطاعة الزويلية »

الآن ، زرقة البحر هم وضنى ، شاغل لا يفنى ، وحدث أن توجه صهبى إلى الشيخ الملثم ، تجاوز شيخ العشيرة ، وهذا لا يحدث فى حالة وقوع أمر جلل .

ـ يا سر زماننا ، أنا صهبى ، ابن العشيرة الثانية ، من تفقه أبناؤها فى العلوم الزويلية ، أتهم تزاج الساكانابى بالخروج عن طاعة زويل الكبير...

لحظة صمت ، إذن ليستمر ..

ـ وفى حديث له بالعشيرة الأولى ، تعرض لنص أصلى ثابت نورانى ، فسره بما يخدم دعواه . وهذا النص النورانى الزويلى يشير إلى خروج جند زويليين مخلصين من الماء الأعظم ، قال الساكاناب ، إن جند الزويل يخرجون من زرقة البحر .. وهذا جلل ...

* * *

« النص الزويلى النورانى »

« .. ويتقلص الظل ، يحن الصخر ، يلين الحجر ، تفقد الموجودات عناصرها ، ترسل الأشجار والنباتات دمعاً ناطقاً ، يتحرك جند موحدون ، آمنون ، مترابطون ، متفانون ، ويخرج من الماء الأعظم جند زويليو الشجن، زويليو القلب والفؤاد ، الماضى والحاضر ، الأمل والالم ، زويليو الظل والمرقد ، يمضون إلى اليابسة ، أسلحتهم لم يعرفها مخلوق ، فى البدء ينفضون أعشاب البحر ، يلقون أصدافاً علقت به ، منهم يقطر الماء الأعظم ، القطرة الواحدة دمعة زمنية ، تلخص الحقيقة ، تحكى ما جرى ، تقص الآتى ، تبصر بأمل وشيك الوقوع ..»

* * *

تزاج

« .. عندما قلت بخروج الجند من زرقة البحر ، قصدت ذات الماء إذ كيف يوجد ماء بدون زرقة ، وكيف تنأى الزرقة عن الماء ؟!

* * *

وحدث أن شاباً من العشيرة الثالثة ، قضى ليلة فى مضارب العشيرة الأولى ، أن أثار ملاحظة غريبة :

ـ زرقة البحر ليست أبدية ، عندما عملت ساكانابيا فوق البحر ملت على البحر وملأت راحتى بالماء ، رفعتهما ، اذكر ضياع اللون الأزرق ، رأيت الماء بين يدى هاتين عاديا .. بلا معنى ..

أى جديد يأتى به الشاب !! أيعنى هذا انفصال الزرقة عن الماء ، كيف، هل تتخفى روح غامضة فى اللون الازرق ، أكد الشاب قوله ، ملأ أيضاً وعاء شفافاً جاء به من الحضر ، (زجاجة) ، عندما رفعها فى وجه الشمس ، رآها بلا زرقة ، خالفه ثلاثة زويل من العشيرة المضيفة ، ساروا كثيراً بحذاء البحر الشمالى الفسيح (الابيض المتوسط) ، عملوا طوافين فيه، رأوا الزرقة ملازمة للبحر ، أمر خاص به وحده ، والا فلماذا لا تصبح الأنهار العذبة زرقاء ؟!

* * *

أربعة من المؤمنين بعدم ثبات الزرقة ، تركوا أعمالهم ، داروا بحثاً عن تزاج ، وجدوه ينافس جمعاً من شباب الزويل المعدين للانطلاق إلى عالم الحضر ، زعقوا فى وجهه :

ـ كيف تثير تساؤلاً وتحسم الجواب ..

أصغى . أبدى دهشة .

ـ سمعك البعض منا تقول بثبات الزرقة ..

تلفت حوله ، بدا متحرجاً ، أى أمر يخشاه ، نظر إلى شباب الزويل المجتمعين به .

ـ عندى ما أرغب قوله لإخواننا ..

انتحى ركناً مع الزويل الأربعة .

* * *

«تذكرة تلفظ امام العشائر كلها أول النهار ، بتوجيه من الشيخ الملثم

كل من عمل ساكانابا لا يكذب ،

يحظر اتهامه ، أو التقول عليه .

* * *

واقعة

« وقع زويل العشيرة الأولى ، وزويل العشيرة الثالثة حول ثبات زرقة البحر ، وعدم ثباتها ، وهل يخرج الجند المنتظر من البحر ، أو يخرجون من زرقته ؟ علا النقاش وثار ، قذف أحدهم صاحبه بحجر أسود مسنون الحافة ، أسقطه من فوقه ، ومثل هذا نادر ، ان يذهب زويلى قبل أوانه بيد أحد رفاقه » ..

* * *

من زويلى يعمل فى إحدى البلاد النائية ، أستاذا كبيراً بأكاديمية للعلوم ، وصلت رسالة ، لم يقرأ النص كله ، تليت فقرات معينة . يقدم فيها هذا الطواف الزويلى المقيم بعيداً ، تفسيراً قائماً على اسس العلوم الحديثة يدرسها ويعمل بها ويطبقها فى هذه الاكاديمية البعيدة ، فى السهرات الليلية دار همس لقد غضب الساكاناب الاعظم بعد تلاوة الرسالة ، وليس هذا إلا ظل باهت للغضب الذى أظهره الشيخ صهيج الملثم منه السلام ، وأكد تزاج فى إحدى جلساته ، (يحرص تزاج عند جلوسه مع أى أفراد زويل أن يوضح لهم ويكرر ، أنهم أقرب الزويل اليه ، يوحى اليهم أنه يخصهم بأدق أسراره ، وفعلاً يذكر دائماً خبراً جديداً فى حديثه ، ثم يميل هامساً ، طالباً ألا يبوحوا به لمخلوق) ، إن الزويلى الطواف ذكر ما أغضب الإمام ، لم يذكر سبب الغضب ، غير أن شيخاً زويلياً ذكر أن الطواف المتخصص فى العلوم الحديثة ، نسى أهله ، ومايعتقد به قومه ،وفى نهاية رسالته طرح تساؤلاً ، ابدى تعجبه من مضمون التوجيه ، إذ إن شبانا كثيرين وأطفالاً زويليين ولدوا وعاشوا وذهبوا لم يروا البحر أبداً ، لا يعرفون الصور المستثارة فى الذهن بعد تلقيه لفظ (بحر) أو (أزرق) ، إذ تمضى حياتهم كلها بين الصخور المجدبة ، وفوق الرمال ، حيث الماء شحيح خال ، حيث لا طرح ولا ثمر .

«توجيه زويلى خاص»

يحضر فوراً أربعة من أشداء الطوافين الزويل ، المتقنين لغات عدة ليأتوا فوراً بالطواف الزويلى متقن العلوم ، انتهت مهمته الزويلية ...

* * *

« الحرباء الثالث »

سازل

رأى شباب الزويل المجتمع هنا ظلاً يقترب ، قاموا ، أبدوا ترحيباً خالصاً ، قعد سازل ، بدا لامع العينين ، هرش شاب رأسه بقطعة خشب صغيرة ،

ـ بصراحة .. لم تعد له هيبة المشايخ ..

ـ كيف !!

يقولها سازل ، موجزة ، ضنينة ، ينظر اليه الشاب ..

ـ شيخنا يكثر من الضحك . لا هم له طوال يومه إلا تذكر أيامه البعيدة ، الحريم اللواتى عرفهن ، ذكره لمزايا كل منهن .. دائماً يضحك ، يقول .. اذكر مرة رقدت فيها إلى جوار امرأة .. أذكر التفاصيل .. ثم يحكى ..

ـ ياه ..

يتعجب سازل ، يصمت ، يخط خطوطاً سريعة بأصبعه فوق الرمال .

ـ اسمعوا ، أنتم على وشك طرح تساؤل عظيم .. أراه جنيناً فى أحاديثكم.. لكننى أقدر على التنبؤ به ..

يبدو الليل ثقيلاً ، الرؤوس تتقارب ، الجو ينفث برودة ، يبدأ حديث سازل هادئا ، ينقلب بعد لحظات حرارة موقدة ، لفح نيران وقيظ ..

ـ عند حد معين .. أرى وليس لى حق ابداء الملاحظات لأننى أكبركم بحولين كاملين ، (أخيراً ، سمح بحق ابداء الملاحظات ، بالنسبة لشيوخ العشائر، من قبل البالغين ، أى من يستطيعون ملء رحم امرأة ، وعلى وجه التحديد، الأعمار الزويلية بين الخامسة عشرة والرابعة والعشرين ، هؤلاء فقط لهم حق إبداء الملاحظات) .

انما أقـول مـا أفكر فـيـه ، يجب عند حـد مـعين ، حـول مـعين ، لا بد اقصاء من أرهقه العمر الطويل ...

ـ لكن الشرائع الزويلية ..

سازل يضرب الرمال بقبضته .

ـ شرائعنا دنيوية ..

يبدى شاب زويلى حماسه ، يغير جلسته مرات ،

ـ تغيرها .. نغيرها ..

ـ بالضبط .. بالضبط .. ما اسمك ؟!

ـ هزام ..

يشعرون بوجود سازل القوى بينهم ، قريب من قلوب البالغين الزويل ، دائما يصغى إليهم ، يضحك معهم ، يخاطر كثيراً فيوافقهم على آرائهم ، ما يعشقه الاصغاء إلى شباب الطوافين الزويل العائدين من أنحاء الكون الزويلى المفتقد ، سازل لم يقرب زويلية قط ، قيل إنه لا يقدر ، يتقن عدة ألسنة ، من حين إلى حين يمضى فى رحلات غامضة ، يرجع بعدها ليخلو بالشيخ الملثم مرات ، يقال إن أصحابه لا حصر لهم فى سائر الكون .

ـ انظروا ما يقوله هزام ، لم يبد تردداً .. بأمثاله يتقدم الزويل ، أنتم اليوم تبدون ملاحظاتكم حول شيخ عشيرتكم . من زمن قليل ، ما تقولونه الآن كان كفيلاً بدفنكم أحياء ...

تقطر الحكمة من كلماته ، يقال إنه رأى الدنيا وخبر أقطارها ، كل واحد من اصحابه يعرفه بصورة مغايرة ، البعض يعرفه طبيباً متبحراً فى أمراض الإنسان وعلله ، آخرون صاحبوه صحفياً لامعاً ، وعالماً روحانياً ، وربان باخرة تنقل المياه العذبة إلى آبار البترول فى وسط البحر ، قيل إنه يتقن هذا جمعيه .. الآن يستفسر هزام :

ـ لكن ..

ـ أعرف .. ستقول كيف ، جاهروا قبل عبور الحد المقرر لكم ، أعماركم وسيلة ، قولوا ما ترغبون ، فى الليالى الباردة ، فى أيام الحر ، فى التوقف ، فى الطواف ، لكننى أرى بعضكم متردداً ، لا يحزم أمراً ، من يوافقنى على ما قلته .. من ؟!

رجلان من العشيرة الأولى تهامسا ، رأى أولهما «سازل» يدخل خيمة الساكانات الأعظم ، يقضى وقتاً ، بل إنه لم يره خارجاً قال الثانى إن «سازل» يمضى إليه دائماً سازل لم يتحدث عن هذه الزيارات أبداً ، لا يذكر ما يدور فيها ، فيما عدا مرة ، قال عرضاً ويدون قصد إنه شرب كوباً من جوز الهند ، جاء إلى الساكاناب من بلاد قصية ، الليلة لا يدرى أحد ما دار بينهما ، يؤكد الرجل أن سازل لم يخرج حتى الآن ..

ساكاناب

« منذ بدايات هذا النهار الزويلى المبارك ، لن يرى وجه سازل ، ارسل فى مهمة خفية ، لا يدرى بها غيره هو ، شيخنا الملثم منه السلام .

* * *

ساكاناب خاص

.. لقاء مسائى ، يخلو مشايخ العشائر إلى « الساكاناب الأعظم » ، ينقل اليهم ما ارتآه الشيخ الملثم ، تحدث الساكاناب عن بعض شباب الزويل ، شباب لم يغادر الموطن الزويلى أبدا ، عيونهم لا تستقر عند سماعهم لفظ «امرأة» يسهرون الليل ، لا هم لهم إلا التحدث عن شئون لا تتعلق بواحد منهم ، يحشرون آراءهم حشراً فيما لا يعنيهم !! . لكن صفاء

الوجد الزويلى ، هدوء الجبال ، انبساط السماء مستقر زويل الكبير ، كل هذا لن يخدش أبداً ، هنا أكد مشايخ الزويل أجمعين أن هذا لم يحدث ابدا عند كل منهم ، يصغى الساكاناب الأعظم .

أبداً ..

لقد نفذ البصر فى أحشاء العتمة ، كشف الحجب ، بأن أعلى الأصوات واحد الأشواك ، شاب زويلى اسمه هزام ، لكن العيب كله فى شاب آخر ، قليل الكلام ، صموت كثير التفكير ، يزن الحرف قبل النطق به، يقلب الجمر مرة إذا ما رأى اللهيب يخبو ، اسمه زيفر ، أمثاله قلة ، لكن لابد من ايضاح كافة ما يتعلق بهم ، مولانا الشيخ صهيج الملثم منه السلام يرى إرسال عدد من شباب الزويل فى مهام خاصة ، كل شيخ عليه اخبار مَنْ يتبعه ليرحل بعد شروق الشمس سبع مرات ، المزمع بدء طوافهم سبعة، ثلاثة من العشيرة الرابعة ، اثنان من العشيرة الثالثة ، اثنان من العشيرة الخامسة ، هزام لن يسافر ، أما زيفر فيقوم الآن بمصاحبة شابين جاءا من الإقليم المجاور ، (***هنا لابد من الاشارة إلى احد الاسرار الزويلية ، لقد قسموا العالم إلى أقاليم ، باعتباره عالمهم ، كل إقليم له رقم أو علامة تميزه، فالإقليم المجاور يعنى مصر والسودان ، والاقليم الرابع مثلا يضم الهند وافغانستان وجزيرة سيلان وايران وعدن والإمارات العربية وأجزاء من الاتحاد السوفيتى وتركيا ، ولشرح بقية الأقاليم ودلالات تقسيمها لابد من تخصيص جزء كامل لشرح جغرافية العالم الزويلى***) .

كل من الشبان السبعة سيكلف بمهمة ، قد يستغرق أداؤها ثوانى قليلة ، لكن حتى وصوله إلى هذه الثوانى ربما يفنى عمره كله .

(لا بأس هنا من إيراد نبذة عن «سازل» وطبيعة ما يقوم به بعيداً عن الموطن الزويلى ، بعد فترة طويلة من خروجه ظهر فى مدينة «القاهرة» ، هيئته انقلبت تماماً ،الآن بدون لحية ، أنيق فى ثيابه الافرنجية ، الشىء

المتبقى من ملامحه ، ضحكة خفية مستورة ، فى القاهرة يتحدث الانجليزية، والفرنسية ، والعربية ، يحضر الندوات ، يتحدث عن الفكر والأدب ، يخالط الشبان كثيراً ، تعود الناس ظهور اسمه كثيرا ، انتظامه فى مقال أسبوعى بصحيفة يومية ، ومقال آخر فى مجلة شهرية ، وكتب تظهر من حين إلى حين ، حتى تساءل البعض ، متى يكتب هذا كله !! عرف باعتباره ابناً لأحد المهاجرين المصريين إلى استراليا منذ زمن ، عاد من المهجر ، ضاقت نفسه بالبعد عن الوطن ، آثر العودة ، يتحدث كثيراً عن البلدان الأوروبية طاف بلدان أوروبا كلها ، تردد عن انتظامه فى خلايا ثورية هناك . ويؤكد هذا مقالاته الدقيقة عما يسمى باليسار الجديد فى أوروبا استجوب مرتين فى قلم المباحث ، لكنه لم يعتقل ولم يمنع من الكتابة ولم تفرض أية قيود على حركته ، وباستطاعته السفر إلى أى مكان يشاء فى القطر ، وبأية وسيلة للمواصلات ، دعى مرات إلى إلقاء محاضرات ، وألقى خطاباً افتتاحياً سبق عرض إحدى المسرحيات بالفرقة القومية ، يجلس دائماً مع بعض الشبان فى الحى القديم ، يسكت فجأة ، تتعلق الأبصار به ، يشير إلى أحد الجالسين بالقرب منه ، يهمس بحس خفيض «لا يكفون عن مراقبتى» ، تتوزع المشاعر بين الخوف والحنق ، تعلو ضحكاته ..

ـ هل سمعتم عن أحدث إنتاج من أجهزة التليفزيون !!

يناقش المميزات والعيوب ، يقول أحد الجالسين ..

ـ عندنا جهاز ست عشرة بوصة .. لكن يقال أحسن الأنواع ثلاثة وعشرون ..

يقول جاداً ..

ـ سينما .. سينما فى بيتك ..

يتساءل ، لماذا يلمع الأسفلت فى شارع رمسيس ، بينما يبدو خشنا فى شارع قصر النيل ..

ـ فى الأمطار تمشى العربات بسهولة فوق الأسفلت الخشن ، تنزلق العجلات فوق الاسفلت الناعم ، رأيت عربة أوتوبيس مفصلية ضخمة تنزلق، تتلوى كالثعبان ، لم تحدث أضرارا فلم يكن بالقرب منها عربات .. بالمناسبة ، هل رأيتم الحروف الجديدة التى بدأت مطابع الصحف فى استخدامها ، أحسن طبعاً ، ياه .. إنها تقدم تسهيلات فى ...

يميل هامساً فجأة .

ـ إنما أحرص عليكم ..

فى قلب ضاحية المعادى يتخذ مسكناً صغيراً ، تحيطه حديقة أنيقة ، نباتها مخملى يغطى جدران البيت ، يتجول فيها خلال الصباح الباكر ، يشمر عن ذراعيه ، يرتدى قميصا وبنطلوناً ، يزرع الورود ، ينسقها ، يقتطف الباسم منها ، يقول بمرح ، هوايتى الحبيبة رؤية الزهور المتفتحة ، أرى العالم كله فيها ، صفوة أصحابه يزورونه هنا ، يسهرون معه ، إذ يتقدم الليل ، يقدم إليهم طعاماً خفيفاً ، شرائح لانشون ، بيض مقلى فى الزبدة ، مربة خوخ ، وعند مجىء البيرة يبتهج الشبان كثيراً ، ثم يمشى معهم فى طرقات الضاحية العذبة ليلحقوا آخر قطار ...

تعليقان

(١) تعليق الدكتور العنتابلى سوس

« أخيراً ، ظهر من يمد يده ليلمس أغواراً مجهولة ، يكشف واقعاً لم ينكأ أبداً ، وعندما أتيحت لى الظروف وقرأت « الحرابية » قبل نشرها ، ايقنت أن ظهور العمل بهذه الصورة إلى القراء أمر مخل ، من هنا أعددت رداً سريعاً ، لقد أتيح لى بحكم عملى كأستاذ للتاريخ البشرى ، ورحلاتى العديدة ، فرص نادرة اطلعت فيها على مواثيق زويلية ، وانما أرغب فى توضيح الأمور قبل اختلاطها .

* ان تطبيق المقاييس العادية عند الحديث عن الزويل ، أمر يؤدى إلى مغالطات حتمية ، ان الدور الذى يقوم به البعض فى أنحاء العالم ، والذى يراه قطاع من الناس مشينا ، ربما يقوم بعض الزويل بأداء دور يشبهه ، لكنهم لا يرون فيه ما نراه نحن ، من هنا لاحظت إدانة المؤلف للدور الحريابى .

* ساهم الدور الحريابى العظيم ، فى تهوين كثير من الحوادث الجسام على الواقع الزويلى ، أسهم إسهاما كبيرا فى تثبيت فكرة اللثام ، (يتجسد الآله زويل الكبير فى الشيوخ الملثمين ، وبمجرد مجىء شيخ جديد ليقوم مقام زويل الكبير ، تخفى معالم الوجه ، يصبح فقط ممثلا للإله الغائب) .

* أسهم الحرابية فى سيادة روح أخوية بين الزويل ، ما الفكرة التى تحكم العقل الزويلى !! انها انتظار نزول سيد الغمام ، لتسود جموعهم الكون ، ولكن تستمر الفكرة وترسخ ، حتى لا يدركها الوهن ، قام الحرابية، ينفون الخلاف ، من هنا اعتبروا زويلا نورانيين ، أى صفوة وهكذا يختار شيخ الزمان الملثم للحرياب «درياد» العظيم دوراً تاريخياً ، جعله يقوم برحلة طويلة رائعة ، يقطع الدنيا كلها ، قبل « درياد » الغربة عن بؤرة الموطن الزويلى (وهذا صعب وقاس جداً على نفوس الزويل) . وبعد انتهاء رحلته لم يرجع اليه ، انما أقام فى فارس ، حتى أتته الوفاة .

* مما يؤكد نورانية المهمة الحريابية ، لنر ماذا جرى لاول من طرحوا التساؤلات فى التاريخ الزويلى ، فازر ، آخر ايام الرحلة ، نجده بلا ذكريات، لا تربطه بالطفولة صورة ، ما من سبب يثير اشتياقه او يحرك ألمه، يتجرد من ثيابه عارياً ، ينادى مولاه الملثم ، لم يصغ إليه مخلوق .

* زنيد ، صارم القسمات ، لم يلفظ حرفاً ، لم يناج روحه ، بدا أخرس وهو غير أخرس ، لا يعرف فى أى لحظات الليل رحل ، تطلق عليه المواثيق الزويلية ، «المتسائل المتوحد» .

* زراب ، بقى ساهما أبداً ، عيناه معلقتان إلى قمم الجبال بخيوط خفية ، بعد أن تمت الرحلة ، استجوب طويلاً ، بدت كلماته ملفعة بغموض ، يأس غريب ، كأنه نادم ويخشى التصريح بالندم .

* عندما أثار تزاج الساكانابى نقاشاً واسعاً ، حول زرقة البحر ، حرك فى الحقيقة ركوداً أثقل العقل الزويلى ، حرك ريحاً طيبة ،أطلق نسمات حتى تستمر حيوية العقل الزويلى ، وهنا أبدى ملاحظة حول الطريقة التى قدم بها المؤلف شخصية تزاج ، فأقول باختصار لا تخلو من خبث .

* لم توضع لسازل مهمة خاصة ، أقبل سازل على مجالسة الشبان برغم فارق العمر ، والنتيجة ، إقصاؤه عن بؤرة الموطن الزويلى ، وهذا عقاب ، وليست مهمة خفية ، لن أنفى وجود «سازل» فى القاهرة لكنه لا يشغل المهنة أو المهن المشار اليها ، سازل لا تعرفه الحياة العامة مطلقاً ، لن أنشر تفصيلات عن موقعه بين الناس إننى أفتعل إثارة ، او أختلق معلومات أتباهى باستعراضها .

* ثمة فكرة هامة فى فلسفة التاريخ الزويلى المدون ، أرى ضرورة الاشارة اليها ، إنها تغير النظرة إلى الظاهرة الواحدة ، لنأخذ مثلا واقعة طرح التساؤلات التى خرج من أجلها درياد «ابن بطوطة» إلى العلم ، رئى فى هذه الاحقاب البعيدة أن « طرح التساؤلات» لن يمس الاساس الزويلى ، من هنا وجب الرد عليه ، حيث يمس أقدس الزويل ، الشيخ الملثم نفسه ، غير أن نفس الحادثة بعد مضى وقت قليل أو طويل يمكن النظر إليها نظرة مغايرة تماماً باختصار، لا حقيقة ثابتة فى التاريخ الزويلى كل الوقائع تتغير ، تتبدل ، من هنا نرى المؤلف تناول الأحداث فى ضوء نظرة ثابتة ، بينما وجب عليه ليستكمل الحقيقة ، أن يعرض الوقائع ذاتها فى ضوء أكثرمن نظرة ، من هنا تسقط كافة المعانى المستخلصة ، الموحى بها من خلال الاحداث ، إلا إذا اعتبرنا الأستاذ جمال الغيطانى ، يعبر عن وجهة

نظر خاصة جداً ، لا تطرح إلا باتساق عضوى مع جانب زويلى ، وهذا ما لا أخوض فيه .

(٢) « تعليق الدكتور فتحى السرنجاوى »

.. أقصر حديثى على نقاط عدة ، أوردها الدكتور العنتابلى سوس ، أرى فيه مغالطات بينة .

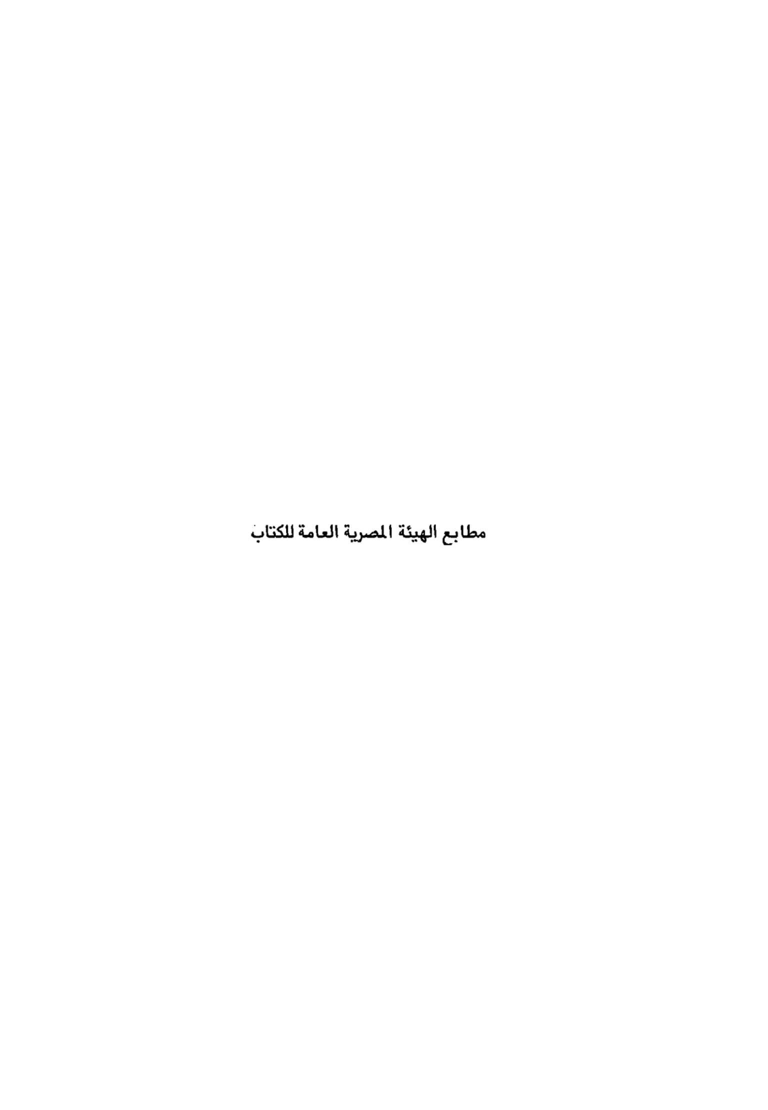
لا أرى عنصر المعاناة فى حياة درياد « ابن بطوطة » ، لقد رحل عن حياته الزويلية الشاقة حيث الزاد شاحب ، والماء مفتقد ، والمأوى صلب ، طاف الدنيا ، ذاق نساءها ، أكل ثمارها وركب بحارها ، ثم بقى مصوناً فى كتاب معروف ، يتناقله المتخصصون وغيرهم ، أى معاناة فى هذا !! ، لقد بلغ درياد « ابن بطوطة » ذروة رفيعة فى اداء دوره الحريابى ، عندما نقرأ حسراته وحنينه الى صفرة الرمال فى بؤرة الموطن الزويلى ، وعيون الصغار الزويل ، فعلا قمة فى الحريبة ، الأجدر بالدكتور العنتابلى سوس أن يتحدث عن زنيد ، كيف مات المتسائل المتوحد ، صاحب الوجه الصلب والعينين القاسيتين ، أما زراب الوحيد الذى بقى محتفظاً ببعض من وعيه ، فبعد انتهاء الرحلة واستقرار درياد « ابن بطوطة » فى فارس ، أمر الشيخ الملثم باطعامه الثمار الزويلية ، تورم زراب ، سمن ، تضاعف حجمه ، اختفى بعد شهر واحد ، وفى فترة لاحقة ظهر ساكاناب زويلى غريب ، يمجد فازر وزراب وزنيد ، يعتبرهم حرايبة مخلصين ، ضحوا بأعمارهم لتنفيذ فكرة ، واثبات أمر زويلى مقدس ، وروبت قصص وحكايات عن صلابة زنيد ، وقوة زنيد ، احتمال زراب ورهافة روحه ، اعتبروا مثلا يرتجى أمام الشباب الزويلى ، ثم تغير هذا كله فيما بعد ..

لم يقصد تزاج إلى تجديد حيوية العقل الزويلى ، أبداً ، لقد أثار قضية «زرقة البحر» بتوجيه من الساكاناب الأعظم ، وعلم مسبق من الشيخ الملثم ذاته ، توجد أغراض أخرى لا يمكننى التحدث عنها ، لأن الحياة الزويلية غامضة القوانين ، والعوامل الخفية والظاهرة ، لكن يمكن القول

بدون التعرض لتفاصيل ، إن قضية «زرقة البحر» هدفت إلى إهدار طاقة العقل الزويلى .

لعب سازل دوراً خطيراً فى تسطيح العقول الزويلية ، وما إباحة إبداء الملاحظات للأعمار المحصورة بين الخامسة والرابعة والعشرين إلا وسيلة لكشف من لا يستحب وجودهم فى بؤرة الموطن الزويلى ونظراً لبراعة سازل، وحنكته واحاطته بعلوم كثيرة ، وعدة لغات ، ارسل فى مهمة زويلية كطواف عتيد تتصل بمهامه فى بؤرة موطنه ، أنا أجهل الاسم الذى يعيش به سازل بيننا ، لكننى أناشد الاستاذ جمال الغيطانى ، أن يعلن اسمه ، حتى نمنعه من أداء دوره الخطير ، وإلا سيطحن شبابنا طحناً مضنياً ، وإن كنت أشك فى إعلان المؤلف اسم سازل الحقيقى ، ولا يمكننى نفى خاطر بذهنى ، كيف توافرت هذه المعلومات كلها لديه ؟!

مارس ١٩٦٩



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ٢٣٥٩ /٩٣

I.S.B.N.977-01-3245-6

« إنها اكتشاف »

بهذه الكلمات ختمت مجلة « لير » الفرنسية المتخصصة فى الكتب مقالها عن « الزينى بركات » عندما نشرت فى أشهر سلسلة روائية تصدر عن دار (لوسوى) بعد أن ترجمها إلى الفرنسية جان فرانسوا فوركاد عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف .

منذ ذلك الحين بدأت « الزينى بركات » تكتسب حياة جديدة مع كل لغة تترجم إليها . والتى بلغ عددها حتى الآن أربعة عشر . رحب بها القراء والنقاد فى جميع هذه اللغات . ثم أصبحت رواية عالمية كلاسيكية عندما صدرت عام ١٩٨٨ فى سلسلة « بنجوين » الشهيرة ، الواسعة الانتشار ، وحتى الآن تعتبر « الزينى بركات » هى الرواية الوحيدة من الأدب العربى التى صدرت فى (بنجوين) .

ومن قبل .. طبعت فى اللغة العربية عدداً من الطبعات . بلغ عددها حتى الآن سبعاً . ورحب بها القراء ، والنقاد ، وتناولتها دراسات جامعية بلغات مختلفة .

« الزينى بركات » ـ كما يقول الناقد الفلسطينى البارز الدكتور فيصل دراج ـ عمل أدبى أصيل يتضمن منظوراً جديداً للعملية الأدبية ، وفى كل هذا يكون الغيطانى مرآة للأديب المبدع الذى يكتب من أجل تغيير الوجود .

أما « الزويل » فهى أول رواية ينشرها الغيطانى ، وتقدم واقعاً يقف على حدود الأسطورة والحقيقة . يطمح إلى خلق واقع خاص ، وهذا جوهر جهد الغيطانى يمضى فيه بصبر أيوب يثير الإعجاب .

« الزويل » و « الزينى بركات » عملان روائيان أصيلان يدينان قهر الإنسان فى أى زمان وأى مكان .

٨٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب